buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

مُنتهى العِشق

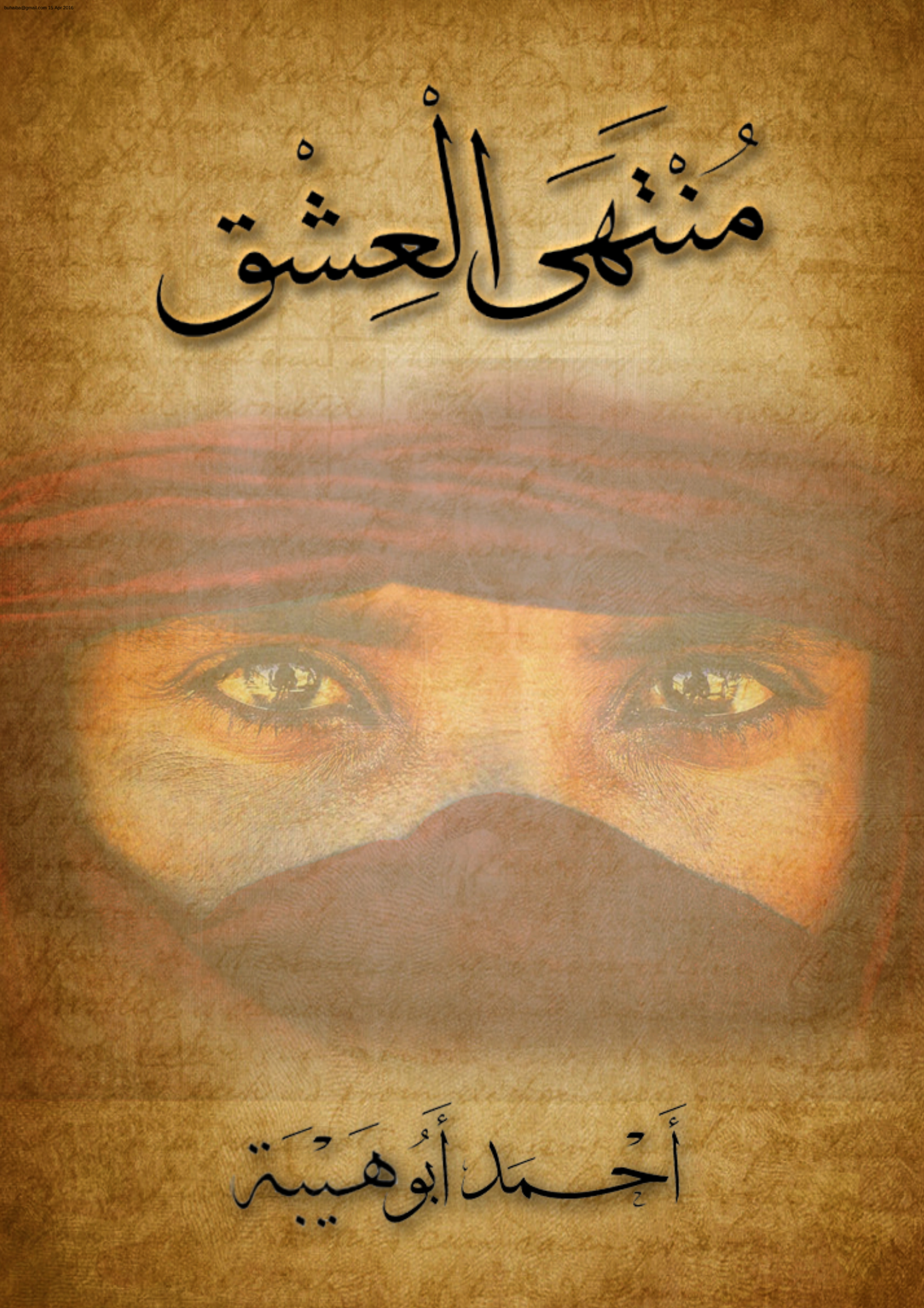

أحمد أبو هيبة

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

إلي المعشوق ...

والعاشق ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

ابن نَصِيبِيْن

اسمي عبد المحسن ... أَعيشُ في هذا العالمِ مِن قَديمٍ ... لا يهمكم كثيرا من ملامحي أو هيئتي ... لا يهمكم كذلك محل إقامتي أو مكان ولادتي أو إسم عائلتي حتى ، ... كل ما يهمكم حقا هو حقيقة هامة ... أنني لا أنتمي لهذا العالم الذي تعيشون فيه... فأنا انتمي لعالم الجن ... واعتذر مبدئيا لو كنت أفزعتك لكن ليست هذه أول الإعتذارات ... فمن الاعتذارات مثلا أنك لن تجد في قصتي ما تتمناه عن حكايا الجن والسحر والشعوذة ... لن تدخل كذلك إلى عالم الجن والأرواح وعذاب القبر وما شابه من الترهات[1] التي تمتلئ بها كتب الأرصفة ... كل ما ستجده هو رحلة عجيبة في عالم تظن كذبا أنك تعرفه ... وجُلّ ما تعرفه ربما ... هو أنك أحد مخلوقات الله ... عدا ذلك لا تعرف شيئا ... بما فيها ما تتطلبه هذه الحقيقة الوحيدة التي بالكاد تعرفها .

تبدأ قصتي في أحد ليالي شتاء مضى منذ زمن بعيد ... في إحدي قرى محافظة الغربية في مصر وتحديدا علي الطريق الواصل من المدافن الكائنة حذاء القرية إلى الزاوية الصغيرة في قلبها ... مبدأ رحلتي في هذا العالم ومنتهاها ...

كنا مجموعة من الجان نتلاعب كيفما تعودنا في الأماكن النائية والمقفرة البعيدة عن سطوة الإنس ... غير أن بعضنا كان يلازمه طيش لربما تحوله الليالي الشاتية لتصرفات رعناء[2] ضد إنسي أو أكثر ... خاصة أولئك الذي يضعهم قدرهم في طريقنا من حيث لا يدرون ... مثل أولئك الحشاشون الذين تأخذهم أمزجتهم الشاذة أن يقضوا ليلتهم الهائجة على سطح مقبرة ... أو أولئك السهارى الذين يفتشون بين طيات الليل على ونيس أو أليف فيطوفون في الطرقات والهين ، ... أو رجل أو إمرأة قادها حظها العاثر أن تصطدم بأحدنا بدون أن تدري ...

---

[1] الأشياء السفيهة التي لا تنفع

[2] متهورة

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

كان الطائشون منا يهوون ملاعبة هؤلاء البشر بطرق متعددة ، فمنا من يتمثل حيوانا ليفاجئه على حين غرة ، ومنا من يحرك غصنا أو حجرا فيتعثر به سائر فيقع ، ومنا من يلاعب نار أوقدها أولئك الحشاشون حتى تعلو وتصنع أخيلة تتراءي لهم قصصا وأشخاصا ... فيتضاحكون من فزعة البشر أو تعثرهم حتى يستلقون أرضا من كثرة الضحك ، وهكذا حتى ينتهي الليل ...

العالم أكثر إزدحاما مما يظن أي إنسي ... فبالإضافة للإنس الذين ملأوا الأرض وأساءوا لها بقدر ما ملأوها ، وبالإضافة لكافة المخلوقات المرئية التي يراها البشر ويظنون أنها ما خلقت إلا لتكون زائدة عن كون هم وحدهم يمتلكون حق إفساده . . فهناك الكثير من غير المرئيات تسبح في كون أكثر إتساعا مما يظن ويعلم معظم البشر ... أولهم – وللعجب أقربهم للإنس – هو ذلك القرين من الجن الذي يقترن بالإنسان منذ ولادته ... فيلازمه كظله ... فيعرف خبيئته ويحدثه ويلازمه كما الظل ونسمات الهواء . . وهو غالبا ما نتواصل نحن معه لنعرف من الإنسان ما لا يريد أن يخبره عن نفسه ولعل بعضنا من الطائشين يرافق مشعوذا كي يسر له بخبيئة إنسي يحدده له ... فما يفعل ذلك الجني الطائش إلا أنه يتحدث مع القرين الملازم للإنسي المسكين فيعرف منه ما رأي وما سمع وما أخفى وما أظهر وما تحدث به في خلوة من البشر ، فيخبر به صاحبه المشعوذ فيظنه الناس يملك قدرات خاصة فيسبغون له العطاء أو يبذلون له خشية سطوته ... وكل ذلك نعرف أنه مما قد حرم رب العالمين لكن ... لا يختلف الجن كثيرا عن الإنس في هذا الأمر ...

وهنالك الملائكة التي تملأ الكون بأعداد لا يتخيلها البشر ، فيسيرون في الطرقات ويسبحون بالأجواء ويتنزلون ويتصاعدون من وإلى السماء وهم متعددو الرتب والمقامات والأشكال ... وهناك الشياطين ، وهم منا إلا أنهم إختاروا الكفر بالله رب العالمين وبرسله تبعاً للجِدّ الذي لا نفخر كثيرا بذكره ، وهو إبليس لعنه الله وعاقبه بما أنزل علينا من سمعة سيئة تلازمنا طول العمر ... ويوجد بالكون كذلك العديد من الغيبيبات التي لم يقدر الله فائدتها لبنى آدم فمنع

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

عنهم معرفتها وذكرها ... إلا للنفر القليل منهم ... وكان الشيخ أبو العلا واحد من هؤلاء القليل ...

في هذه الليلة ، وبعد مغامرات عديدة مع أشخاص عدة ، وبعدما وجد هؤلاء النفر من الجن متعتهم في اللعب والسخرية ... كان هناك يسير وحده على ممر بين الحقول ذاهبا لصلاة الفجر ، وحين يقترب الفجر نبتعد جميعا خلف أكمة تحمينا من اجتماع الملائكة المهيب في الصلاة العظيمة ، ولو رآه البشر لتجمد الدم في عروقهم من هول الاجتماع اليومي ... فما أن يؤذن للفجر حتى نسرع لنبتعد قدر الإمكان عن الزاوية الكائنة بقلب القرية ...

وفي الممر الواصل بين الزاوية وبين المدافن طريقين ... أحدهما واسع ممهد مأهول لكنه طويل ، والآخر ضيق ترابي متعرج يمتد بين الحقول الخضراء مظلم لكنه قصير مختصر ... وكان البشر يخشون المرور فيه ليلا بعدما تعددت حوادث مداعبة قومنا لهم ... كانت الطريق يومها خالية مهجورة مظلمة وهو الجو الأمثل للعب الجن أمثال الطائشين من أصحابي ... و كان الشيخ أبو العلا يسير فيه بلحيته الرمادية الخفيفة مرتديا ثوبه الأبيض وعباءته الصوفية البنية الآتية من بلاد الحجاز وهو يلفها من أسفل جانبها الأيمن إلى أعلى كتفه الأيسر إمعانا في التدفئة ، متوكئا على عصاته العجوزة ، كان يسير غاضبا متوعدا من أم " ياسين " زوجته التي أخرته حتي إضطرته أن يذهب لصلاة الفجر من هذه الطريق غير المأهولة ، وكانوا يسمونها "سكة التعبان" لتعرجها وتشققها ... عندها نظرنا اليه ونظرنا لبعضنا البعض ورأينا لعبة هائلة لربما نضحك عليها أياما ... فهو شيخ كبير لو فزع أو خاف أو تعثر أو وقع من فزعه فستكون مضحكة كبيرة لربما نعيش عليها أياما نرويها ... وكنت بينهم لا أميل كثيرا لهذه الملاعبات ، أولا لأنها كما علمني أبي من المحرمات علينا نحن معشر الجن المؤمن وسيحاسبنا رب العالمين على ذلك . . ثانيهما كنت أخشى المخاطرة ، فتلك التعوذات التي يطلقها البشر قد تسلط أحد الملائكة الحراس علينا فننال منهم ما لا نحبه وما لا نطيقه ، فالحراس أشداء أقوياء وقد يحرقوننا معشر الجن في لمحة عين لو لم نستطع الهرب بالسرعة المناسبة وكم نسمع عن رفاق احترقوا حين بالغوا في اللعب بما هو ليس مسموح لهم ورأيت بنفسي صاحبي حين لم يسارع

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

بالهرب فاحترق في لحظته في مشهد لن أنساه ما حييت ... ونحن نحيا لأعمار بعيدة ومن ثم فسأظل أذكره أكثر مما تتخيلون .

غير أنني أعتقد أن السبب الرئيسي في عدم استساغتي لما يفعلون ، أنني لم أكن أجد في كل ذلك ما يضحكني ... فما المضحك أن يفزع مخلوق أو أن يتعثر أو حتى لو جري مولولا وهو أكثر ما يضحك الأصحاب الطائشون ... أعتقد دوما أن بالكون ما هو أكثر أهمية وأكثر جدوى من هذا الأمر ... كان يأسرني بشدة مشهد الفجر الرهيب ، حتى أنني كنت أختبئ كثيرا لأراه بعيدا عن أصحابي الذين لو رأوني لفزعوا ... فالملائكة الحراس يقفون على أبواب المساجد بقوة وصرامة ولربما يطوفون في الطرقات القريبة من المسجد ، والموكب الهابط من السماء يحوي الآلاف من الملائكة على اختلاف طبقاتهم ، السيارة والشهود والسائقين والكتبة والمسبحين وغيرهم من الرتب التي لا يعرف منتهاها إلا رب العالمين ... كنت أراهم يهبطون فوق الزاوية فأحسد البشر الذي يحضرون هذا الاجتماع اليومي وأتمنى لو حضرته معهم . . لكن مشهد الحرق الملتصق بذهني يمنعني دوما ...

نعود لتلك الليلة العجيبة ، حيث كان الشيخ أبو العلا كما سماه اهل القرية ، يسير متعجلا ذلك الاجتماع اليومي ، ساخطا متذمرا من تاخير أم " ياسين " له ، عندها استعد أصحابي لممارسة ألعابهم على هذا الشيخ المسكين ، الذي كان يبدو أيضا ضعيف البصر من كثرة تعثراته وكاد أن يسقط مرات عدة ... شيئ ما أثارني يومها ... فقد أشفقت عليه حين رأيته غاضبا ساخطا ، بل وأحببته حين رأيت حرصه الشديد لحضور هذا الاجتماع الرهيب ... فترددت أن أكون معهم ، بل وعارضتهم وذكرتهم ببعض ما حفظنيه أبي من آيات القرآن ومن أقوال النبي محمد عليه الصلاة والسلام ... فما كان منهم إلا أن أصروا أن أكون أنا من يقوم بهذه اللعبة واجتمعوا علي وهددوني أنهم سيرمونني للحراس إن عارضتهم . . ،كانوا يعلمون رعبي من الحراس ... ومضوا يعيرونني بضعفي وجبني وأنني لا أختلف كثيرا عن هؤلاء الإنس الخائفين ... في النهاية وافقتهم ، وأعتقد أن جزءا مني كان يـــــــــــريد الاقتراب من هذا الرجل الطيب ، إلا أنني كنت أعلم مخاطرتها ، فهذا الرجل كثير التعوذ ، ولربما لا أستطيع

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

اللحاق بالفرار فيلحقني أحد الحراس فأحرق ، إلا أن شيئ ما داخلي أراد التقدم ... فتقدمت ...

كانت الخطة لابد أن تكون مفاجأة وسريعة حتى لا تصبني التعويذة إن تعوذها ... كانت الخطة أن أقترب من خلفه فأراقب تداخل خطواته حتى إذا لاحظت فرجة واسعة أدفع فيها غصنا جافا فيتعثر ويسقط ...

خطة بسيطة سريعة لا تتطلب أكثر من الاقتراب بحذر دون أن يراني الشيخ وهو ما يجيده معشر الجن ، ثم دفع غصن صغير لا يحتاج لقوة ولا لشدة ... ونحن ننقل الجبال إن آردنا ... فالخطة بسيطة وسهلة ... اقتربت من الشيخ بحذر ... رأيته من على البعد ... وأول ما نظرت كما تعودنا ، نظرت لقرينه لأجده هزيلا متعبا ، تعجبت منه لكنه نظر الي بشفقة ... وأومأ لي محذرا من الاقتراب ... غير أنني لم أعبأ بذلك واستمريت حتى اقتربت من الرجل وسمعته بوضوح مازال في تذمره المستمر ... "أقولها يا ولية الفجر حيأذن ... تقوللي يابو" ياسين " الليل طويل ... أقولها يا ولية القيام حيروح مني . . تقوللي يا بو" ياسين " الليل طويل ... طال عليكي تعبان يلف حواليكي يا أم السَّوٌّ... ضيعتي مني القيام و أهه الفجر على فوتة الله يهدك يا مرضعة ابليس ... " ... ظللت طويلا أتسمع له وهو يتذمر ... لم أفهم ما هو القيام ، ولم أفهم لماذا يسميها مرضعة إبليس . . غير أنني طبعا فهمت لماذا أخرته ... فضحكت داخلي ...

ظللت أقترب ، تحت نظرات قرينه الهزيل وفي ظلام الليل الحالك الذي لا تقطعه سوى ومضات مصباح إنارة يتقطع ويضئ ، وتحت سمع تذمراته التي بدأت تتحول لشبه النواح ندما على ما فاته مما يسميه القيام ولا أفهمه ... وكان الأصحاب يقفون على جانبي الطريق يترقبون السقطة الهائلة ... ظللت أقترب حتى صرت كظله ... فإذا به يصمت فجأة وتتباطأ خطواته ... ارتعدت وخفت أن يطلق التعوذ المخيف فيأتيني أحد الحراس في لمح البصر ... لكنني لم أتوقف بل ظللت أقترب وأنا أتابع خطوات أقدامه تحينا اللحظة المناسبة التي سأدفع فيها غصنا أو حجرا فيتعثر ... وفجأة توقف ... فتوقفت ... بل تسمرت قدماي من الرعب ... هل هذا الرجل يحس بي ؟ كيف ؟ ... البشر لا يروننا ولا يعرفوننا ... إلا حفنة قليلة قال لي أبي أنهم قد

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

انتهوا من قديم . . كان أبي يسميهم "العارفين" لأنهم يعرفون من رب العالمين ما لا يعرفه بقية البشر ... فهل هذا الرجل منهم ... هل التقيت بواحد من أولئك الندرة في الكون الذين من أجلهم يسخر رب العالمين قوانين الكون ونظمه ... هل أنا أقف في مواجهة هذا التفرد ... يا لهولي ، لو تعوذ مني ذلك العارف فلن أستطيع الهروب أصلا ... تدافعت إليّ هذه الإيحاءات وأنا أقف متسمرا من هول الموقف . . حتى أن أصحابي تسمروا هم الآخرين ... بدأ يلتف لي في بطء ... الآن قد حانت النهاية ... ارتعدت هولا في مكاني وأنا أرى أحد الحراس يطوف على البعد ... هرب الأصحاب جميعهم ... سيتعوذ وتنتهي حياتي التي كنت أأمل أن تكون مديدة ... أكمل التفاتته حتى واجهني تماما ... كان بالنسبة لي أطول قليلا ... تأملت في عينيه ... فيهما صفاء شديد ولمعان كأنه يضوي في ظلام الليل ... لم أفهم . . هل ينظر الي أم أنه يبحث عن شيء خلفي ... نظرت لنفسي ، مازلت بهيئتي الأصلية التي يستحيل أن يراني فيها كما أمر رب العالمين ..."إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ "[1] ... فأنا لم أتمثل بشئ ... فكيف ينظر لي بهذا التركيز الشديد ... مازلت متسمرا وتمتمت بدعاء أن ينجيني رب العالمين منها ولن أعود لها ما حييت ... وفجأة نطق بصوت عميق رخيم لا علاقة له اطلاقا بذلك الصوت الذي كان يتذمر ويتوعد منذ قليل ... "مسلم أنت أم كافر ؟ " ... ارتعدت ... نظرت حولي هرب أصحابي . . الحراس يتجولون في السماء ... صوت قرآن الفجر في الأنحاء ... يارب العالمين سلم ... "مسلم أنت أم كافر؟ " أعادها وقد رفع صوته قليلا ... مستحيل ... كيف يحدثني ؟ . . كيف عرف بي ؟ ... هل أجيبه فأكشف نفسي ؟ لعله يجرب فقط أو لعله ... لم أستمر في تخيلاتي حيث فاجأني بصوته العميق الذي اختلف تماما وبدت عليه الحدة والشدة والحزم ... " حتجاوبني ولا أسلط عليك تعوذ سيدي أبو الحسن ما حتعرف تمرق ولا حتى تتلفت يا عبد الله ابن النار ... بسم الله ولا حول ولا قوة الا بالله ..." نطقت فزعا حين رأيت الحراس ينتبهون

---

[1] الأعراف ٢٧

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- استنى يا عبد الله الانسي . . مسلم ومؤمن برب العالمين ...
- اظهر نفسك حالا ...
- ارحمني يا عبدالله
- اظهر نفسك حالا عشان تحرم لعب شياطينك يا ملعون الجن
- اظهر نفسي إزاي بس ... متحرم علينا وانت أعرف مني يا عبد الله
- طب اتمثل عشان أشوفك ...
- اتمثل بإيه ... قط أم كلب ... ؟
- كلب لما يهري جتتك ... راجل عشان أعرف أكلمك ... راجل ييجي عشرين تلاتين سنة عشان أعرف ألطشك قلمين يرجعوك جحرك تاني ...

في لحظة تمثلت في أقرب صورة جاءت لذهني وهي صورة لرجل بائع في سوق الجمعة كان يقف أمام عربة بسبوسة يزعق على بضاعته كانه يولول لا يبيع ... ما أن تمثلت حتى ابتسم الرجل ، فحمدت الله أنه هدأ قليلا ...

- يخرب عقلك جني واطي . . مالقيتش غير الشنواني تتمثل فيه
- سامحني يا عبد الله ... مش حاعملها تاني ...
- وانت فاكرني حاسيبك ... وحياة جدك ابليس الله يلعنه لافرج عليك العيال ببركة رقية سيدي أبو الحسن ... . امشي قدامي

بعد تردد وصمت ، وخشية من الحراس الذين بدأوا يتوافدون إلى السماء الدنيا انتظارا لصلاة الفجر ... سرت أمامه متباطئا مترددا وأنا مطأطئ الرأس ... وبعد خطوات عدة ، خرج صوتي متحشرجا يكاد ينتحب ...

- إنت عارف إنه محرم عليك إنك تسخر الجن ... يعقل يا عبد الله الإنسي تعصى رب العالمين وانت رايح تقف له ؟
- وهو انت تعرف رب العالمين ولا ليك ملة ولا دين يا ملعون ...
- مانا قلتلك مؤمن برب العالمين وبالنبي محمد ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- ولما انت عارف رب العالمين بتإذي عباده ليه
- غلطة ومش حارجع ... إنت ما بتغلطش ؟

كانت الزاوية قد اقتربت على مرأي البصر والحراس يحيطون بها في أعداد هائلة فارتعدت وتوقفت ثم التفتت وانحنيت على يده أقبلها إستعطافا وإسترحاما ...

- ارحمني يا عبد الله وأحلفلك بيمين النبي سليمان ما حاقرب تاني من أي إنس ... استحلفك بكل اللي غالي عندك ... بمقام سيدك أبو الحسن ...

انتزع الرجل يده بعنف وتراجع خطوة في وجل وعرفت أنني قد مسست وترا عنده ... فاستمريت في استعطافي

- يا عبد الله ... إرحمني إنت عارف إنك كده حتنهيني وأنا واحد من مخلوقاته في الكون ... أديلك كل العهود إني مش حارجع تاني بس ارحمني ...

نظر الي بنظرة عطف وهو يبتسم ، مما بعث في نفسي الاطمئنان ... ثم ربت علي وأقامني بساعده القوي رغم كبر سنه ...

- شكلك طيب رغم انك عبيط ... افهم يابن ابليس
- الله يرضى عنك يا عبد الله ما تندهلي بالاسم ده
- طيب يا لمض ... اسمع . . هو انت اسمك ايه داهية تاخدك
- عبد المحسن
- شكل اهلك ناس طيبين ... قصدي جن طيبين ... قوللي إنت مش مسلم وموحد
- ومؤمن برب العالمين وبالنبي محمد عليه الصلاة والسلام
- خلاص ما تحضر الفجر

فزعت بشدة وتراجعت ...

- يا عبد الله ارحمني ... أحلفلك لولا إنه متحرم علينا كنت عملتلك الي انت عايزه ...
- انت خايف من ايه يا بن ابليس ... ييه ... خايف من ايه يا عبيط انت
- انت مش شايف اللي انا شايفه ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

ابتسم في ابتسامة الواثق ، ورد بثقة

– مش باقولك عبيط ... أنا باشوف بعين القلب مش النظر يا بن ... يا بن نصيبين

ولمن لا يعرف . . نصيبين من أكثر الأسماء شرفا وكرما عندنا معشر الجن ، فهو إسم النفر من الجن الذين ذهبوا للقاء النبي محمد عليه الصلاة والسلام في مكة فسمعوا منه قرآن رب العالمين ثم عادوا ونشروا الإسلام في صفوف الجن ... هم بمقام الصحابة عند البشر ولولا الأدب في المقام لقت أنهم بمقام الأنبياء ، ونصيبين هي البلدة التي جاءوا منها ولذا سموا بإسمها ، وقد ذكرهم رب العالمين في قرآنه ومن يومها ونحن نعدهم عندنا في أعلى الرتب ونعد نسلهم من الأكرمين لهم دائما الفخر والشرف والمكانة بين معشر الجن ، وقد حدثني أبي يوما مفاخرا أننا من نسل أولئك الأكرمين ... غير أنني لم أسمع في حياتي من يناديني بهذا الإسم سوى ذاك العارف العجيب ...

– نصيبين ؟ ... انت تعرفهم ؟ ...

ضحك الشيخ حتى بدا عليه الدمع ... وتعجبت ألا يدمع البشر عند الحزن فقط ؟

– مش باقولك جني عبيط ... تعال تعال ما تخافش ...

– الحراس يا عبد الله

– يا أهبل خلق الله . . الملائكة الحراس بيحرقوا الكفرة بس ... يارب يا قادر ... ما تبلنيش من أهل الجن غير بأغباهم ... سبحانك يا مقسم الأرزاق ... تعالى تعالى ... انت في حمايتي لحد الشروق . . ماشي كده ؟

بدأنا في السير حثيثا ... وأنا خائف متربص إلى أن فاجأني خاطر أفزعني ، فقد خشيت أن يكون ذلك الرجل مشعوذا ممن يستخدمون الطائشين منا في خدماتهم المحرمة ، عندها فزعت وتوقفت والتفتت له غاضبا ...

– أنا مش حاعملك حاجة مايرضهاش رب العالمين ...

نظر لي متعجبا ... ثم عقب في غيظ مكتوم ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- يا اهبل مخلوقات الله ... وهو أنت شايفني كافر عشان اطلب منك حاجة ما يرضهاش ربي وربك ... حسبي الله رب العالمين ... امشي قدامي دانت طلعت عرة أهل الجن ... بس اسمع ... باقولك ايه ... اختارلك صورة تانية غير الشنواني لحسن أهل البلد هنا عارفينه ... وليهم عنده ألف حساب . . اختارلك أي بني آدم مش من نواحينا ... وخليك صغير في السن ييجي ١٦ ، ١٧ عشان ماحدش يلاغيك ويتطفل عليك ... وغطي وجهك وربك الستار

سرت في بطء وقد سلمت أمري لمن بيده الأمر وأنا أتمتم ...

- توكلنا على رب العالمين

استمر المسير بعدما تخيرت صورة لصبي من الأسكندرية ، جميل الخلقة يبدو عليه الطيبة والبساطة ، رأيته يوما يداعب قطا صغيرا على شاطئ البحر ولم يكن القط سوى أحد معارفي ... فنام على راحتيه سعيدا ...

هالني مشهد الزاوية وتمنيت لو يراه البشر ... فهذه البقعة الصغيرة من الأرض كانت محلا لحفل نوراني من الأرض للسماء ... هالة من النور تنبثق من هذه البقعة المضيئة يمتد منها عمود ذهبي ينير الفضاء ... الملائكة بكافة رتبهم يقفون متراصين ملتفين حول نقطة الزاوية في المنتصف ثم تتسع الدوائر ثم تتصاعد للسماء ... أشكال وألوان وأنوار بديعة ... لم يتسن لم من قبل أن أشهدها عن قرب ... كان المشهد من البعد يبدو فقط كبقعة نور متوهجة ، لم أظن أن بها هذا القدر من الأشكال والألوان والأعداد ... منهم الصغير مثل الطيور والضخم مثل الجبال ، منهم ذوي الأجنحة مثنى وثلاث ورباع ... كان مشهدا لا أنساه ... رغم أنه كان يتكرر يوميا !! . . مرتان !!!

مضيت أتخطى صفوفهم العظيمة منبهرا وأنا وسطهم كائن ضئيل مثل طائر صغير يسبح بين الجبال الشاهقات ... نظر لي الحراس بحزم عندما رأوا هلعي ورعبي ، لكن لم يمسنى أحدهم بسوء فتمتمت "صدق الشيخ " ... فكأنه سمعني فربت علي قائلا ... "سمي الله وخطي بيمينك ... فوالله لقد أراد الله بك الخير من حيث لا تعلم يا بن نصيبين" ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

من هذه الليلة المباركة ... وأنا ألازم الشيخ أبو العلا السني كما يسميه أهل القرية الطيبة ... عشرون عاما لم أتركه فيهما وقتا إلا فيما يحب أن يختلي فيه البشر ، من خصوصيات أو محرجات ... وكان شيخي أبو العلا له خلواته الخاصة التي أحيانا ما كان يصطحبني فيها وأحيانا يمنعني حتى من التلصص عليه فيها ... عشرون عاما لازمته فيها ، عرفني أهل القرية أني قريب له تَيَتَم حديثا فأتيته من الصعيد لأكون بخدمته والعيش بكنفه ، فكانوا يتعاملون معي بود ولطف ... عشرون عاما أمضيتها معه ، رأيت من نور الله ما ملأ قلبي وعيني وكم سجدت شكرا على هذه الليلة ... عشرون عاما ، لم يطلب مني طلبا إلا وهو يستأذنني لينفي عن قلبه وروحه شبهة تسخير الجن التي حرمها الله رب العالمين من بعد نبي الله سليمان ... عشرون عاما لم يسألني فيها عن شيء مما يخص الجن وطبائعهم وحياتهم ، حتى أنني إذا هممت بقول شيء من هذا القبيل يسكتني ويقول لي " لو علم الله في هذا العلم خيرا لذكره لنا في كتابه ، نلزم ما قاله لنا ولا نجاوزه حرفا" ... عشرون عاما ، لم أر فيها أهلي وأبي إلا مرة واحدة سيرد ذكرها لاحقا . . عشرون عاما انتهوا اليوم وأنا أراه مسجىً أمامي وديعا هادئا مبتسما بلحيته البيضاء الناصعة وجبينه المشقق من أثر السجود . . ولولا ما رأيته من موكب الفرحة والعرس حين صعدت روحه لأغرقت القرية في دموع حزني لكن مرآه في ثوب عرسه الأبيض الحريري خفف من ألم الحزن وأبقي فقط كثير من ألم الفراق إلى أن نلتقي حين ينتهي العمر المقدر بوقت وميعاد ... ولأول مرة ... أتألم من طول أعمار الجن ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

صَفِيَّة

كنا في لحيظات الغروب الصافية في إحدى ليالي الصيف اللطيفة نجلس على ربوة خارج القرية ... حيث يقوم الشيخ بورده اليومي من أذكار المساء ... كانت السماء صافية ليس فيها سوى الطيور العائدات لأعشاشها ونسمات العصاري الرطبة تربت على وجوه البشر العائدين من حقولهم ، وقد ارتضى الجميع برزق يومهم من عطاء رب العالمين ، بينما انتشرت الصبايا اللاعبات يمنة ويسرة بين الحقول بثيابهن الزاهيات واحتشد الصبية والشباب في مقهى البلدة الرئيسي منذ أن غزانا ذاك الاختراع المسمى الانترنت ، والذي رأيته يفوق أكثر أبناء جنسنا طيشا ...

كنت أعشق الجلوس بجواره وأنا أسمع دندنته المستمرة وهو يردد ورده المأخوذ من " " السيد "" أبو الحسن الشاذلي ، بجمل وعبارات وأدعية بديعة بعضها مما ذكره النبي محمد عليه الصلاة والسلام وبعضها مما فاضت به أنوار الله على عباده العارفين .....

"اللهم يا عليّ يا عظيم ، يا حليم ، يا عليم ، أنت ربي وعلمك حسبي ، فنعم الرب ربي ونعم الحسب حسبي ، تنصر من تشاء وأنت العزيز الرحيم ، نسالك العصمة في الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للقلوب عن مـــــــــــــطالعة الغيوب " ...

ثم ينتهي من الأوراد ليدخل إلى الأشعار ، وهو ماكنت أعشقه حين يدندنه بنغيمات من عنده أو كما يغنيها معشوقه المنشد المسمى "" ياسين " التهامي" ، وهو ينشد من أشعار سلطان العاشقين عمر بن الفارض . كنا نسمعها غالبا في جهازه العتيق ذو الأشرطة المصفرة من القدم وهو ينشد الموال بصوته الحنون المستضعف الواهن في مفردات الحب والعشق الذي يسمو عاليا ...

"ويحسن إظهار التجلد للعدا ... ويقبح غير العجز عند الأحبة "

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

... غير أنني كنت ألمح في "سيدي أبو العلا" السني لمحات التجلي والتوهج حين يدندن سرا بأشعار غريبة جريئة ... سألته مرة عنها فأجابني ساخرا من جهلي كعادته إنها لرجل يدعى "الحلاج" ... فسألته :

- أمن العارفين هو ؟

- لا يعرف العارفين إلا عارف مثلهم ...

- أمن العارفين أنت ؟

- إن كنت عارفا فقد ازددت معرفة بجهلي ، وإن لم أكن . . فما معرفتي بما أجهلُ

ظللت أياما أحاول فهم ما قال ، فما ازددت إلا حيرة ، فامتنعت عن السؤال وصرت أنتظر ترقب أحواله من إنشاد أشعاره ... فإن أنشد لابن الفارض فهو راض متناغم ، إن أنشد لابن عربي فهو متألم مشتاق ... أما إن أنشد للحلاج . . فهو متمردٌ هائم في حب الله ذائب في نجواه ...

لبيك لبيك يا سري ونجوائي ...

لبيك لبيك يا قصدي ومعنائي

أدعوك ...

بل أنت تدعوني إليك ...

فهل ناديت إياك ...

أم ناديت إيائي

يا عين عين وجودي

يا مدى هممي

يا منطقي وعباراتي وإيمائي

يا كل كلي ويا سمعي ويا بصري

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

يا جملتي وتباعيضي وأجزائي

يا من به علقت روحي

فقد تَلِفْتُ[1] وجدا

فصرت رهيناً تحت أهوائي ...

...

وكان غالبا ما ينتهي إنشاده بدمع يفيض حين تقترب الشمس من الغروب ، فيستحي من ارتفاع صوته بالنحيب وتقطع صوته بالنشيد فيصمت متنهدا وهو يقوم ويناديني بصوته الخفيض ...

"قوم يا بن نصيبين . .

فاض الوجد ولسة اللقا ما آنش آوانه ...

قوم المغرب على أذان والقلب اتفرط م الشوقة" . .

ثم يسير وهو يئن من فرط تشوقه للقيا مولاه ...

كنت غالبا ما أذهل من فرط ما أراه على تكراره كل يوم بكافة أشكاله ... كنت في البدء أحسد البشر على ما وهبهم رب العالمين من رقة الحس وعمق إدراكهم به وهو العلي المتعال ... وكنت أتمنى يوما أن أبكي كما يبكون من فرط شوقهم إليه ... لكن الحجر كان أقرب لذلك مني ... فعلمت أنني أبعد من أكون عن المعرفة التي تسبب ذلك الدمع الساخن ... فارتضيت مصيري وبقيت أترقب دموع الشيخ واستمتع بها ، كالجوعان الذي يتأمل من يتلذذ بوجبة شهية ساخنة فيلتذذ بها معه وكأنه يرى طعمها في حلقه ...

وفي هذه الليلة ... حيث صفت السماء ، وبدت الصبايا من على البعد ، وقد بدأن يلملمن ألعابهن الصغيرة ويقمن من جلساتهن المتناثرة وهن ينفضن عوالق العشب من فساتينهن المزركشة ... كان "سيدي أبو العلا" قد بدأ في انشاده ، وانتبهت أنه هذه المرة قد دلف مباشرة

[1] تلفت من التلف أي تمزقتُ من الوجد وهو ألم البعد ..

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

بدون تقديم إلى "الحلاج" ، فعرفت أن الشيخ في أوج وجده ، فاهتززت وصمتت وانعزلت عن الكون مترقبا جفنيه بدموعه الساخنات ... غير منتبها لتلك الصبية ذات الفستان المزركش بين الأحمر والأخضر وهي تتهادي منفصلة عن جمعها الصاخب لتقترب منا وقد أغمض الشيخ عينيه ومضى متطلعا للسماء وأنا معه وددت لو أطلقت نفسي كالسهم في السماء لأذهب لأقصى ما يستطيع جني أن يذهب اليه ... ومضى سيدي يدندن بنغمه الباكي :

"أشار سري اليك ...

حتى فنيتُ عني ودُمتَ أنت

أنت حياتي وسر قلبي ...

فحيثما كنتُ ... كنتَ أنت ...

أحَطتَ علماً بكل شيء . .

فكلُ شيء أراه أنت

فَمُنْ بالعفو يا إلهي

فلستُ أرجو سواك أنت ... "

عندها تحشرج الشيخ وهو يردد ...

"فَمُنْ بالعفو يا إلهي ... فلستُ أرجو سواك أنت ... "

وكنت بجواره أكاد أحترق من فرط تأثري بنبرتة المجروحة وصوته المتقطع حزنا... حتى سمع كلانا شهقة عذبة الصوت كأنها أنّة قطة تشكو الهجران ... ففزع الشيخ وجفل في لحظة ونظر اليّ ، فنظرت له متعجبا متبرئا من أي لفتة تكون قد بدرت مني عن غير مقصد فتقطع حبل وَجْدِه ... ثم سمع كلانا صوتاً ... أظنه قد يكون بعذوبة جريان الماء بأنهار الجنة ...

"يا سيدنا" ...

التفت كلانا ... فرآها كل منا على طريقته . . رآها الشيخ بعينه ، ورأيتها أنا بروحي ... نظر لي الشيخ بعتب وغيظ وكأنه يلومني على عدم مرآتي اياها لأحذره ، فأسرار العارفين لا يطلع عليها العوام ، نظرت له باستعطاف أني لم أدرك وجودها مثله فرد بنظرة كأنه -كعادته- يلعن

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

اليوم الذي وقع فيه على جني فاشل عاجز مثلي ... لكنني بالفعل كنت أعجز دوما أمام ذلك الإنشاد الساحر فلا استطيع حراكا ولا ادراكا ... لكن في لحظة مرآها ... عرفت أن للسحر وجوها أخرى ...

كانت "" صفية "" اسمها وصفتها هى معجزة هذا الكون وسره الأعظم ... ولولا أنني تعلمت الكتمان من عشرتي الطويلة مع الإنس لبدرت مني شهقة ولربما سقطت من روعي كما يسقطون ...

هالني اتساع عينيها ... عينان سوداوتان مكحلتان تتوسطان وجها مستديرا خمري اللون ناعما صافيا كنسمات الغروب ... سوداء الشعر منجدل في ضفائر طويلة انسدلت على مقدمة كتفيها حتى تجاوزت صدرها الناهد والمشدود تحت فستانها المزركش بينما تفلتت خصلات سوداء ليلية فوق جبهتها العريضة فكأنها سيف طاف برقبة العباد وعاد لينسدل من غمده مهددا عقول الخلق ... أقرب إلي الطول ... يسمونها "فرعة" ... أتمت الثمانية عشرة من شهرين ، كذا عرفت من قرينها الثائر دوما ... ابتسامتها معجزة ... صوتها معجزة ... نظرتها معجزة ... كانت الفتاة إحدي دلائل الخلق حين يريد رب العالمين أن يفحمنا بآياته المعجزة ...

بعد صمت من الشيخ محاولا الخروج من حالة الوجد ومغيرا نبرة النشيج التي علت كلماته ... خرج صوته مغايرا تماما لما كان عليه منذ لحظات ...

- يخرب شيطانك يا بنت " معروف " ... مالك يا بت بتتسحبي كده ليه زي العرس ... ما تتنحنحي ولا تعملي صوت يا بت الأبالسة
- يوه يا سيدنا ... مانا باندە عليك من أول السكة بعزم صوتي مانتاش معبرني ... إسأل حتى قريبك ... مش كده يا اسمك ايه ...

نظرت الي بدلال زاد من حالة الوجد التي كنا عليها فأكاد أجزم أن جزءا مني قد احترق وقتها ، ولمحت نظرة الذهول على قرينها الذي وقف ينظر لي متعجبا ... ولمحت كذلك عيني الشيخ وقد اخترقت عيني بقوة وحزم ارعبتني ... غير أنني لم أستطع أن أعارض هذا الجمال البشري الأخاذ ، فأجبتها غير عابئ باحتراقي ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

– كده يا بنت " معروف " ...

نظر الي بغيظ وحنق بالغين وعقب ...

– كده يا بن الأبالسة ... والله لأوريك ...

– "رددتُ عليه في رعب" ... ليه بس كده يا خال ؟

– ولما هو كده يا بن إبليس ما نبهتنيش ليه ولا عملت أي صوت ولا حس ... فضلت لابد كده زي الجذع المسوس لا حس ولا حيا ...

هنا أطلقت " صفية " سهمها التالي في غير شفقة ولا رحمة ، حين ابتسمت وردت عني في دلال تذوب منه أقمار الدنا فتنسكب حبات نور ...

– بالراحة عليه يا سيدنا ... دا بن حلال وطيب ومالوش حس ...

– طب امشي يا بت بلا قلة حيا ... انجري على ابوكي وأنا حابقى أعدي عليه بعد العشا ... وابقي خليه يطلع باكو الشاي السوبر . . ما باشربش أنا الشاي العكر بتاع أمك ده ...

ردت ضاحكة ... "عكر ؟؟ وهو انت سبت فيه حاجة النوبة اللي فاتت . . دانت كان ناقص تاخد التفل تلفه ف ورقة بفرة وتعمله دخان ؟ "

– امشي يا بت قبل ما اكسر عصايتي على حنكك بت عيارها فالت ...

استدارت تجري مسرعة وهي تغرد "سلام يا عب المحسن ... " ... وكان هذا هو السهم الأخير والفاتك بعبد المحسن الذي ما عاد يعلم من أي مخلوقات الله هو .

مضى الشيخ يتمتم وهو يسير بهمة نحو الزاوية حيث بدأ قرآن المغرب في الإذاعة من مكبر الصوت المتهالك وأنا ألاحقه متعثرا بين ضحكات قرينه الهزيل ...

– ليلتك سودة يابن إبليس

– يا مولانا يمين الله ما سمعتها ...

– مش قصدي على كده يا عرة العفاريت ...

– أمال يا مولانا ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

توقف فجأة وواجهني بقوة وأنا بعد في صورة الفتى السكندري وقد قارب عمري العشرون وظللت أقصر من طول مولانا بمقدار شبرين . . فكان ينظر لي من علٍ وكأنه صقر وقد انقض على فريسته فباتت عاجزة بين مخالبه ...

- مالك عينيك كت حتفظ عليها ولا عينين مية مجاري بظت من قلب ساقية عفشة ...
- أنا ... أنا ...
- إنت مالكش عفريتة عفشة زيك تبصلها
- وهو أنا سبت مطرحي جنبك من ساعة ما اتقابلنا عند سكة التعبان ؟
- كانت ساعة سودة مافي أسود منها إلا ساعتك يوم ما تقوم الساعة يا ملعون
- يا مولانا أنا بس عملت ايه ...
- عملت ايه ... إنت أصلك مش شايف التناحة اللي حطت عليك لما البت المقروضة دي كبست علينا زي القضا المستعجل ... ماشفتش نفسك وانت بتريل عليها وهي بتوجه الكلام ليك ...
- يا مولانا ...
- بس يا بن الأبالسة انت ... أنا ماليش في شغل العفاريت بتاعك ده ...
- طب الأمر أمرك
- ماليش أمر عليك
- طب اعمل ايه عشان ارضيك
- اصدقني . . وما تكدبش عليا
- اسألني . . اجاوبك

اقترب حتى صارت عينيه صوب عيني وبدا لي حر أنفاسه ثم تحدث في حزم وهو يضغط بأسنانه على كل كلمة تخرج من شفتيه ...

- عرفت من قرينها أي معلومة غير اللي قالتهالنا
- لا ورب العالمين

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

– ماتكدبش يابن ابليس

– مفيش يا مولانا ... (وبعد ترددوتلجلج) ... هو بس عرفت إن سنها ١٨

– اتواصلتوا يعني ... وعرفت منها اللي ماذنتش بيه انك تعرفه

ذهلت للحظة من طريقة نطق الشيخ لها ... لقد كنا قد تعاهدنا يوم التقينا وسمح لي بالبقاء معه أن ألزم سلوك البشر وطبائعهم وصفاتهم ، ولا أمارس مالا يتفق مع طبيعتهم وإلا أكون قد خالفت قانون الكون ومن ثم فقد عارضت قضاء رب العالمين فهو من أشد المحرمات علينا أن نغير في قوانين الكون ... ومنذ ذلك اليوم وأنا أعيش كما البشر ، فلو ظهرت لي عثرة في الطريق ، أتعثر فيها كما يفعل البشر مبالغة في الالتزام بقضاء الله وحكمه فينا معشر الجن أن نلتزم بقوانين الكون ... حتى ظهرت " صفية " ... كانت المرة الأولى في حياتي اللي ألجأ فيها للقرين لمعرفة مالايجوز معرفته ... . أدركت فورا ما يقصده الشيخ ، أدركت أنني نقضت عهدي معه ومع رب العالمين ... فلعنت ذاك الذي مسني من مرآها فشغلني عن عهدي وصدقي مع شيخي وربي ... فهممت على يده أقبلها معتذرا ومتأسفا وتائبا ... لكنه جذب يده بعنف وقال لي وهو يشيح بوجهه عني "هذا فراق بيني وبينك ... " ثم انصرف ، حاولت اللحاق به فإذا بي أفاجأ بأحد الملائكة الحراس قد انشقت الأرض عنه وحال بيني وبين الشيخ فضربني ضربة خفيفة قذفني فيها كما يقذف البشر حجرا صغيرا ، فعرفت أن شيخي قد استعاذ في سره ، وكان بي رحيما ولو أراد لحرقني في طرفة عين ... لم أصدق أذناي ولا بصري وأنا أراه يبتعد أمامي ... وتداخلت كل الأشياء في خاطري ، بين الأوراد والإنشاد وسويعات الشروق والغروب و اللحظات النورانية التي عرفتها علي يد الشيخ وكأنني أعيد التعرف على العالم ... و ... وعيني " صفية " ... وبدا لي لأول مرة أن التزامي بطريق الشيخ وبدنيا البشر مربوط بمحو صورة " صفية " من خاطري . . وهيهات ... فهل يمحو أحد ما تنحته الرياح بوجه الجبال ؟ ...

كان طريق الشيخ بالنسبة لي هو ما كنت أبحث عنه طوال عمري ، فأنا لم أجد نفسي يوما ضمن الطائشين من أصحابي وكنت أجد متعتي ونجواي وأنا أجلس في حضرة أبي فوق جبل المقطم بالقاهرة وهو يحكي لي سير العارفين القدامى و يحكي عنا معشر الجن وكيف كلفنا رب

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

العالمين بعبادته وكيف جاء الينا الأوائل من أهل نصيبين من الجن بالرسالة وكيف قاسوا وعانوا حتى يبلغوا رسالتهم لمعشر الجن ... وكان يفخر دوما أنه من نسل أحدهم أولئك الأكارم الأشراف ... من يومها وأنا أعرف أن شوقي وحبي هو لكل ما يصل بي لرب العالمين ، وكم كنت أحسد البشر على تكريم ربنا لهم وتجليه لهم في كلامه المكتوب بوريقات قرآنهم ... وكنت أتعجب من تعامل البشر مع هذا التجلي ... فكيف يرسل لي رب العالمين خطابا بكلماته وحروفه ثم يلقي في المجهول كأنه من زوائد الحياة ... حتى ظننتهم جميعا أشرار ناكري الجميل ولربما كان هذا بعض مما كان يجعلني أقبل تصرفات أصحابي الطائشة ضد بني الإنس ... لأنهم يستحقون ... وكنت أسائل نفسي ... لماذا لا يوجد عندنا معشر الجن مثيل لأولئك العارفين فأرافقهم وأعيش معهم في حكايا الخليقة وأطوف معهم بالكون لأشهد آيات رب العالمين في خلقه ... إلى أن رأيت الشيخ أبو العلا ، وعرفت أنني أستطيع مرافقته فأنال ما حظى به البشر من التفضيل والمعرفة والاقتراب من عطايا رب العالمين ... وكان حقا ما تمنيته ... في شهود الاجتماع الرهيب اليومي بصلاتي الفجر والعصر والجمعات وترقب الليل ، وأفراح السماء في رمضان ... كل ذلك ما كان لي أن أشهده إلا بصحبة الشيخ أبو العلا . . فكان الفراق بالنسبة لي يعني الموت ... والموت المجسد في الحياة أصعب كثيرا من موت الحياة

بقيت أياما واقفا بباب الشيخ ، اترقبه حين يخرج للصلوات ، أو في جلسته المعتادة للأوراد ، لكن لا أجرؤ على الاقتراب منه وقد صار الحارس الجبار ملازمه أينما حل أو ذهب ... وبدا لي أن الشيخ قد قرر الفراق الحتمي ، فحزنت حزنا لم أحسه منذ احترق صاحبي من أحد الحراس ... وبقيت أهيم بالليل في طرقات القرية مفتقدا أنس الشيخ بأوراده وصوت الشيخ التهامي وهو يشعر بأشعار ابن الفارض ، حتي تفلتت مني ذات ليلة رغما عني دندنة ببيت من شعره ، فنطقت قائلا ...

" ويحسن إظهار التجلد للعدا ...

ويقبح غير العجز عند الأحبة " ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

وكنت يومها في خلقتي الأصلية من شكل أهل الجن فلم يراني أحد ... غير أن صوتي في غفلة مني خرج مسموعا ، فسمعته امرأة كانت تسير عائدة بليلتها فصرخت و ولولت هاربة ...

في الليلة التالية كانت القرية كلها تتحدث عن ذلك العفريت الصوفي الذي ينشد أشعار بن الفارض ليلا في طريق المدافن ، وبعضهم بالغ فقال إنه عفريت بن الفارض نفسه جاء ليهيم بقريتنا لما رأى من صلاح أهلها ... تعددت الروايات حتى فوجئت ذات ليلة بالشيخ يخرج لصلاة الفجر ولم أر معه الحارس الذي كنت أخشاه ... فاقتربت من فوري وتمثلت في شكل السكندري واعترضت طريق الشيخ ... ونطقت له غير متردد ولا متلجلج ...

- ويحسن إظهار التجلد للعدا ... ويقبح غير العجز عند الأحبة ...
- (نظر الي مبتسما مترفقا) ... والله وفادتك قعدة الكاسيت يابن ابليس ...
- سامحني يا مولانا ...
- السماح يربطه العهد يابن نصيبين
- عهد ؟
- السماحةُ بغير العهد إباحة
- يامولاي عاهدتك من قبل وغاب عقلي حين غلبت مودتي ... وأنت أعرف مني بالمودة
- مودتي مودة الخالق يا بني وليس مودة الخلق ... وهيهات بينهما ...
- يابني ؟... أنا ؟؟؟؟؟
- مودة الخلق تخفي العقل حين يتجبر القلب ... مودة الخالق تذيب العقل والقلب بسنا نور خالقهما فيذوبان كما الشمع تحت وطأة ناره ... فهل تستبدل مودة الخالق بود مخلوقه
- معقول يا سيدنا ... وهو أنا سبت أهلي وحياتي وعالمي غير عشان مودته ؟
- فعاهدني يابن نصيبين ... ستكون " صفية " وكل بنات الإنس منك بموضع جهنم العظمى ... إن تاقت اليها نفسك الأمارة بالسوء فاصرفها ...
- لكن يا مولاي
- هذا شرطي ... فاقبله أو ارفضه لكنه واجب صحبتي

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

ترددت هنيهة قبل أن أومئ موافقا مكسورا والها مدركا أنني اللحظة قد قررت موتي ... وتعهدت للشيخ أن أصرف " صفية " عن رأسي ... أما قلبي ... ولا أعلم إن كان للجن قلبا مثلما للبشر ، لكن لو كان لي قلبا ... لصار اللحظة منقوشا على جداره ابتسامتها المعجزة ... وقد غلفته بحجر صوان من سفح المقطم .

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

اللقاء الأخير

بضع وعشرون عاما مرت كلحيظات وأنا جالس بجواره على فراشه وقد افترشت الأرض واستندت بمرفقي على طرف السرير وكان ذلك قبيل وفاته بسويعات ، بضع وعشرون عاما صرتُ فيها كهلا تجاوز الأربعون ، وقد اتخذت لنفسي الصورة التي رأيتها مناسبة ، نبت لجسدي الذي تمثلته لحية خفيفة شابها بعض السواد ، وظللت نحيفا متوسط الطول نحيف الوجه والوجنتين فالعبد المؤمن لا يجب أن يكون شرها أكولا ، غير أنني حرصت على نضارة عين سوداء مكحلة ، فهي سر الإحساس الإنساني وجمال صورته ... وصار الجلباب الأبيض ومن تحته سرواله الأبيض والطاقية الشبيكة هما زيي الوحيد فعرفني الناس باسم الشيخ عبمحسن ... أو عم محسن كما يحلو لأطفالهم أن ينادوني

كانت السنة الأخيرة من أصعب ما مر علينا ، فقد بدأت بفراق أم " ياسين " والتي كان الشيخ رغم لعناته اليومية لها ، يحبها حبا جعلني أتعجب من وله وعشق هذا العجوز الذي ما صرح به يوما ... ومن يوم فراقها والشيخ يتهاوى سريعا وكأن جسده أعلن تمرده عن حمل الروح المثقلة بالحزن ، وباتت من يومها جلساتنا اليومية عند الغروب للأوراد يشوبها الشجن والحزن وألم الفراق ، واختلطت معاني الحب الإلهى بالاشتياق البشري ... وصرنا لا نسمع الحلاج إلا نادرا حين صرنا أسرى لابن عربي وديوانه الذي ألفه خصيصا لمعشوقته وابنة شيخه ... وفي الليلة الأخيرة حين سقط بين يدي متأوها ، كنا نجلس فوق سطح البيت الطيني المتهالك وكان الشيخ بصوت ضعيف يكاد ينطق بالشعر كلمة كلمة ، ...

"أطارحها عند الأصيل وبالضحى
بحنَّة مشتاقٍ وأنَّةُ هيمانِ
أدين بدين الحب أنَّي تَوَجَهَت ركائبُه
فالحُّب ديني وإيماني ... "

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

قالها الشيخ المبجل وكانت آخر ما قال ... فسقط من ساعتها حتى اللحظة راقدا ، فحملته على فراشه بالدور السفلي حتى رقد مستكينا ... وما بالبيت سوانا ... هممت بأن أستدعي له الطبيب فنهاني قائلا :

– خليك يابن نصيبين ... طال الانتظار والقلب على شوقة ... خليني أروحله بأة ...

رددت في لهفة

– يا سيدنا ... اللقا بإذن وأوان ...

رد مبتسما ...

– يا عبيط ... لو العشاق استنوا الإذن باللُّقا ... ماكانش قلب في الكون رضي ولا بردت ناره ... حلاوة العشق ... سرقة النظر ...

تأملت في قوله وتساءلت في نفسي هل كان يدري سيدنا بأيام كنت أسرق فيها النظر لمن نقشت بسمتها على جدار قلبي الصخري ... " صفية " ... أم أنه يحدث نفسه بلقيا أم " ياسين " ...

– يا أغبى مخلوقات الله ... أم " ياسين " مين ... المحبوب يا ولة ... المحبوب ...

كم أذهلني بما كان يعرفه عن الكون وعن نفسي ... فما عدت أسأل كيف يعرف ما يدور بخاطري ... كيف ينظر الي فيرى ما بداخلي ؟ ...

– النظر بعين القلب أبعد م النظر بعين الجفن يابن نصيبين ...

– يعني آن الأوان ؟

– ده مطلوبي ولو حَنّ عليا بالإذن ... يحصل المراد ما بين الكاف والنون

– حاعمل ايه من بعدك

– كمل الترحال يا بن نصيبين ...

– صعب الترحال من غير رفاقى ...

– لو تشوفه بعين القلب حيكون معاك أجمل ونيس . . ... لساك يا مسكين جاهل ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- علمني ... لسة حاتعلم لحد آخر ساعة
- شوف يا عبد المحسن ... أنا كنت عايز أقولك كلمتين وأظن دول أوانهم ... هاتلي بس شربة مية وماتقطعنيش ...

قمت مهرولا فصببت له الماء وأسندته فقام بجذعه ، وشرب ثم حمد برضا ، ثم أغمض عينيه وتنهد ، ثم بدأ يتكلم في بطء ...

" فاكر يوم ما التقينا ؟ ... كان اللقا بميعاد ... وكل شيء في الكون بمكان وميعاد ... عشرين سنة قضيناها مع بعض ، ما منعتش عنك يوم علم أو خاطرة أو حتى رؤية ... ويسامحني ربي لو قصرت في تعليمك ... وسامحنى يا بني لو قصرت معاك ..."

"أنا !!!! ... "

" قلتلك اخرس ما تتكلمش ... ماتهدنيش معاك "

ابتسمت وسكتت ...

"سامحني ف قلبك لو كنت شديت عليك ولا أذيتك ولا كان الطريق صعب عليك ... بس هي السكة كده ... حلاوتها ف صعوبتها ، زي ما تفحت في الأرض شهور لجل ما تشوف زهرة تمسكها ف كف ايدك ... ويعلم ربنا أنا اعتبرتك ابني اللي ربنا عوضني بيه عن النطفة الفسدانة " ياسين " ... ومن ساعتها وانا اعتبرتك ابني ولو مش دمي ولا جنسي

- يا سيدنا ... إبنك ؟!!!
- دهدي ... إنت ما بتفهمش عربي ... اكلمك بلغوة أهل الجن يعني ... ماقلت إخرس لغاية ما اقول الكلمتين اللي عندي ... .

ومرة أخرى ابتسمت ... و وددت لو بكيت ... . لكن لم أستطع ...

- ودلوقتي آن أوان الرحيل ... وأنا باعفيك من عهودك معايا . . لو حبيت ترجع مرجوعك إنت وما حبيت ... إلا عهد واحد ...
- أؤمرني أطيع

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- الكون ده ليه قوانين حطها ربنا من فوق سابع سما ... لو عايز تعيش وسط الإنس ... ما تخرقش قوانين الكون وإلا حتبقى اتعديت على الله في ملكه ...
- حاشا لله يا سيدي
- أمانة عليك يابني ... حافظ على نفسك ، يا تملكها يا تملكك ... لو ملكتها حتشوف ، ولو ملكتك حتعمى ... وشوف النفس بصر ، وشوف العين نظر ... والبصر فوق النظر ... ربنا قال ف كتابه العزيز "لقوم يبصرون" . . ما قالش لقوم "ينظرون" ... "

ظل يتنهد لحيظات ثم أكمل ...

"أنا ما سبتش مال غير الدار دي وما فيها ... ابني " ياسين " واد نافر عاق ... كان نفسي أسيبله علم أو ذكر يشيلني من بعدي بس ربك ما أرادش ... سلمه الدنيا يفرح بيها ، وادفنوني في أي أرض بس ما يبقاش فيها معصية ولا ضلالة ولا غل ولا غلول ... لا عايز حد يزورني ولا حد يعرفلي سكة ... عايز اللي يستدل عليا يستدل عليا بقلبه وعقله مش بعينه ورجليه ... الشرايط والكتب اللي عندي ابأة اديها للحاج " معروف " هو يوزعها بمعرفته ... "

صمت هنيهة فظننته سيكمل لكنه أسند رأسه على وسادته فأغمض عينيه ومضى يتمتم كأنه يحدث شخصا أمامه ...

" خلاص ؟؟... . وصل الإذن ؟؟ ... يافرج الله ... اللقا شوقة يا خلق ... اللقا شوقة يا بشر ... وعلى بلد المحبوب وديني ... " ...

ثم صمت وهو يردد الشهادتين في ابتسامة رضا . . ورقد وشبك ذراعيه على صدره ، ومضت الأنفاس تتضاءل حتى سكن ...

فجأة ... أضاء المكان ضوء باهر ملأ كل شبر في أركان الغرفة ... وانقشع المكان من حولنا كانه كان سحابا ولاحت الأرض من حولنا على مد البصر خضراء زاهية مشرقة بنور دافئ هادئ ... وإذا بالأفق يمتلئ بأعاجيب خلق الله من ملائكته العظام ... لم أميز منها سوى الحراس الذين نخشاهم وقد بدوا في أبهى صورة ... وتدافع الموكب حتى أحاط بنا من كافة الجوانب فملأ الأفق وبدت السماء من فوقنا بيضاء زاهية ، بألوان زرقاء وحمراء هادئة ، يشوبها ومضات

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

ذهبية ... ثم شق الجموع عدد قليل من الملائكة وجوههم تشبه وجوه الإنس إلا أنها شديدة البياض كأنهم شموس متحركة حتى أنني خفت الاحتراق من النظر ، كانوا يحملون قماشا أبيضا به لمعة كأنه الحرير ... فاقتربوا حتى جلسوا على طرف السرير وهم يحملون ذلك القماش الأبيض وقد فاح في المكان رائحة عطر شديدة تكاد تسكر من شدتها ... اقتربوا وجلسوا ساكنين ... ثم ظهر من على البعد ملك عظيم هائل ضخم أوسع له الجميع حتى صنعوا له طريقا ... فاقترب حتى وصل لسرير الشيخ أبو العلا ... ثم جلس عند رأسه ، ومد طرف له فوضعها على رأس الشيخ ثم سمعته يقول بصوت رخيم : أيتها النفس الطيبة ، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ... قالها فإذا بجسد الشيخ تنسل منه أشعة نورانية تسيل كما العسل حين يخرج من عين القدر ... فيتلقاها ذلك الملك العظيم حتى تنساب جميعها على يديه فيحملها للجالسين على طرف السرير حاملي الحرير المعطر ... فيلفونه بها ، ويصعدون تباعا ... ويتتابع الصعود من الجميع تباعا ... حتى تعود السماء للونها ، وتدريجيا يعود السقف وتعود الجدران ... لأرى نفسي مرة أخري وحيدا وأمامي ذلك الجسد المسجى وقد بدت علي شفتيه رسم ابتسامة ومازال عبق العطر القوي يملأ المكان .

ظللت وحيدا للحظات متسمرا واجما جالسا على الأرض مستندا على الجدار ... "ما هذا الذي رأيت ؟ ... هل كنت أحلم ؟ ... هل ما رأيته حقيقة ؟ . . أعلم جيدا مقام الشيخ والا ما تبعته . . أعلم جيدا وتعلمت منه ما يكون عند موت العبد المؤمن ... وكم رأيت من غيب ما يعجز عن رؤيته البشر ... لكن كان رعبي وخوفي مما أراده الله مني حين أراني ذلك ؟ ... فكما يقول الشيخ ... لا عطية بدون سؤال ... ولا منحة بدون محاسبة ... فإن كانت هذه قمة العطايا فما قد يكون قمة السؤال ؟ ... وإن كانت هذه صفوة المنح ، فكيف المحاسبة؟"

ظللت ساعات شاردا في شكل الشيخ وابتسامته حتى بدا نور الشفق من خلف الأفق المظلم , قمت أغطي الشيخ حتى أقوم ببقية المهام المطلوب عملها في مثل هذه الأوقات ، وقفت أتأمل فيه برهة إلى أن أحسست فجأة أنني لست وحدي بالغرفة ، سمعته بصوته القديم يناديني من خلفي :

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

– ألم يأن أوان العودة بعد ... ؟؟

نظرت إليه من خلفي وقد اشتقت لصوته ... كان أبي علامة هامة في حياتي ، فقد علمني الكثير من العلم الديني والدنيوي ، أخبرني كثيرا عن حياتنا وتاريخنا ، وقيمنا التي لا تختلف كثيرا عن قيم الإنس ، لولا أننا ربما أفضل إحتراما لها ... حدثني عن صالحينا وفاسدينا ... حدثني عن أوامرنا ومحرماتنا ... أبي بتعريف الإنس شيخا كبيرا في معدل أعمارنا نحن الجن ، يسكن مغارة في جبل المقطم حيث نسكن جميعا . . وأقصد جميعا أي قبيلتي التي أنتمي لها وتسمى "جن السودان" ، وكنا قد انتقلنا لجبل المقطم بعدما هاجرنا من أرض السودان بجنوب نهر النيل ، سكنها أوائلنا وكانوا صالحين ، فوجدوا المقطم بقعة صالحة للتعبد والتأمل والوصول لمرضات رب العالمين ... تماما مثلما العارفين عند الإنس ... التفتت له مطأطئا رأسي في احترام وتوقير نُـجِّل به أباءنا ...

– هل تسمح لي سيدي باستكمال الطريق حتى دفن الشيخ ...

– وبعدها هل ستعود ؟

– لم أقرر بعد . . اعتدت الحياة هنا ...

– تعال معي ...

سافرنا سويا كما اعتدنا أن نفعل ... تتبعته حتى وصلنا لجبل المقطم في دقائق معدودة ... وكان الكون هادئا وديعا ساكنا ، لا يدرك الموكب الهائل الذي غادره منذ قليل حاملا الروح المطمئنة الطاهرة ، ولا بالهوام الذين يهيمون في سمائهم الدنيا حاملين أمالا وأحلاما وتخوفات وأشواق ...

جلسنا سويا على ربوة تطل على المقابر الكائنة أسفل جبل المقطم على طريق الأوتوستراد ، حيث مغارات متعددة راشقة بقلب الجبل يراها الجميع في الذهاب والإياب فيظنونها مهجورة ولا يدركون أنها آهلة بساكنيها ... جلسنا والشمس قد بدأت رحلتها اليومية رويدا رويدا ، والشوارع خالية من الإنس فقد كان اليوم يوم الجمعة ، وعما قليل ستزدحم السماء بالموكب

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

المهيب الخاص بكل جمعة ... جلست بجوار أبي " " السيد "" الكبير ... فتمتم بهدوء وصوت رخيم ...

- لازلت تذكر هذا المكان ... ؟
- وكيف أنساه ... وفيه عرفت فيه أصل خلقتي وكنهها ... عرفت إجابة كل أسئلتي
- فمازلت تعرفها ... أم تاهت منك في ترحالك الطويل ...
- وهل تكفي الإجابة سيدي ؟ ...
- كل يكتفي بما يكفيه ...
- إذن ... لو تأذن لي سيدي ... فهي مازالت ليس بعد كافية ...
- منذ أن وُجِدتُ في هذه الدنيا وأنا أعلم شغفك للمعرفة والوصول ... كنت أراك شغوفا بمعرفة أخبار الأولين والأكرمين ... شغوفا بمعشر الإنس وعاداتهم وطبائعهم وكل ما لهم وما عليهم ... فلم أبخل بشئ عليك ، ولم أخفي عنك شيئا مما أعرف ... وحتى عندما إستأذنتني للبقاء مع شيخك العارف ... ما كنت لأرفض ما أراه يسد جوعك للمعرفة والعلم ... لكنني الآن أحضرتك لهذا المكان للإجابة لنفسك ولي عن سؤالك الهام ... وماذا بعد ؟ المعرفة بحر لا شاطئ له ... وترحالك فيه لا ينتهي ... ووصولك ليس مرهونا بأرض ولا موعد ... مرهونا بقرار وإختيار ...
- يا سيدي وأبي ... ليس بيدي الاختيار ...
- كيف ؟
- لقد كنت أبحث دوما عن شيئ لا أعرفه ...أعرف افتقادي له لكنني لا أعرفه ... أبحث عن سبب وجودي بهذا الكون ... ذلك الكون الفسيح الذي لا حدود له ... ذلك الكون العظيم الممتلئ عن آخره حيث لا يوجد شبر في السموات إلا وبه أحد مخلوقات رب العالمين ، ... أبحث عن سبب حقيقي وراء تكليفنا نحن ومعشر البشر بهذه المهمة العظيمة ... ولماذا أخضع رب العالمين الكون للإنس وهم أفسد ما فيه ... سيدي ... إنني باقترابي منهم لم يزدني سؤالي إلا إستغرابا ودهشة ومزيدا من الحيرة ... لقد عاشرتهم ورأيتهم ، وفيما عدا

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

شيخي الجليل والقليل منهم ، فهم غير ما كنا نظن عنهم وغير ما أرى من استحقاقهم لهذا التكريم والارتقاء ... فزاد سؤالي عن نفسي ، أين أنا في هذا الكون ؟ و لماذا خلقني رب العالمين من الجن وليس إنسيا مثلهم ؟ ... وما هو منتهى الوصول في هذه الحياة ؟ ... كيف أصل لما كان يردده الشيخ دوما "اللُّقا شُوقة" ... ؟ ... سيدي ... كان لدي سؤال واحدا ، وحين أجبته ، خلف وراءه عشرات الأسئلة ...

- هل ترى هذه المغارات المتناثرة على جدار جبل المقطم ؟
- أراها سيدي ...
- هذه المغارات سكنها العديد من مخلوقات الله ... جن وإنس ... دواب وهوام وكافة مخلوقات الله ، مرت عليها ورحلت كما يرحل الجميع ... لم يملكها أحد ولم يَسُدْها أحد ... وظلت وحدها حاملة أسرارها في صمت ... وكل من مر عليها لا يعلم من كان بها قبله ولا بعده ... إلا من كشف رب العالمين أعينهم وبصائرهم ... عدا ذلك فهم محدودي الرؤية بحدود قدراتهم مهما اتسعت ... هكذا أنت يا عبد المحسن وهكذا كلنا جميعنا ... لا يستطيع أحد بهذا الكون أن يحوي أسراره وأسرار مخلوقاته ... رب العالمين خلق كلٌّ بِقَدَر ... قصته وسره ودورانه في سلسال حياته ... وكل من هذه المخلوقات يعيش قصته ومساره بمعزل عن الجميع حتى تكتمل دورة الكون ويقضي كل منا مراده من حياته ... حين تتداخل هذه الدوائر يختل نظام الكون وهذا ما لا يرضي رب العالمين
- لكن سيدي ، أنا منذ عشت بعالم الإنس وأنا لم أتدخل بعالمهم إلا بما تقتضيه حياتهم وطبائعهم ... لم أتجاوز يوما حدود قدراتهم
- لكنك تعرف مالايعرفون ، وترى ما لا يرون ...
- ويغيب في بئري لا يطلع عليه أحد
- فكيف ستستمر حياتك معهم
- ترحال ...
- لا ينتهي ؟

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- حتى أجد ما ارتحلت له
- وهل تعرفه ؟
- أحسه ...
- فما علاماته ...
- أن أبكي ... أن أشتاق للحظة اللقاء ... "اللُقَا شوقة" ... أن أمسك بطرف صلة بطرفها الآخر رب العالمين ... أريد أن أصل له ... فأراه بعين الحس إن لم أره بعين البصر ...
- مطلوبك صعب ... وطريقه شاق ...
- لو كنت أعلم من جنسنا من هم عليه لصحبتهم ...
- هناك من هم عليه ...

التفتت له باهتمام

- هناك من هم عليه ؟ أين هم ؟
- في الصحراء البيضاء جهة الغرب ... هناك قبيلة من الجن ينحدرون من نسل الأكرمين من أهل نصيبين ... قرب عين ماء تسمى عين الزوادة ، ستجدهم هناك ... علامتهم البياض ... إسأل عن كبير من كبراءهم اسمه عبد القادر طوليد ... قل له أنك عبد المحسن ابن عبد القدوس السوداني
- ويعرفك ؟
- رافقته زمنا . . يعرفني وأعرفه ... فإن التقيته فلا تخبره بشئ حتى يسألك ، فإن لم يسألك فلا تقص عليه من أمرك سوى ما قلت لك ...
- فهل هو من العارفين ؟
- هو من المرتحلين لبر المعرفة ولا أعلم أ وصل أم لا ؟
- أشكرك سيدي ...
- يا ولدي ... كن حذرا ... فإنك تسلك دربا مخاضته صعبة ودروبه متاهة حتى علينا معشر الجن

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- فأوصني سيدي
- لا تنس غربتك عن هذا العالم ...
- عالم الإنس ؟
- الجن والإنس ... غرباء عن هذا العالم ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

التوربيني

جاوزت الشمس الشروق بقليل وأنا في الطريق إليها وقد بدا بيتها على البعد ، كنت أفكر في مئات الأسئلة أولها ، هل عندما طلب شيخي أن أسلم أشرطته وكتبه إلى الحاج " معروف " ، هل كان ذاك مقصده فقط ، أم أنه كان يبغي أن ألتقيها وقد أحلني من عهوده ومواثيقه ؟

منذ لقاءنا الذي عاهدت شيخي فيه ألا أقربها ، مضى حوالي خمسة عشر عاما ... أي أنها أصبحت الآن في الثالثة والثلاثين من عمرها ، لم يمر يوما دون أن ألمحها ، وكانت هذه خطيئتي الوحيدة التي أخشى عليها أمام ربي ... كنت إذا دخل الشيخ لخلوة أو ذهب لما يتحرج منه البشر ، كنت أطير بلمحة عين أترقب بابها ... ألمحها في خروج أو دخول ، وكنت ، وليسامحني ربي ، في خلقتي الأصلية التي لا يراني فيها سوى قرينها الثائر دوما ... ولا أعلم هل كان الشيخ يعلم برحلتي اليومية أم لا ، غير أنه في بعض الأحيان كان يفاجئني كعادته بعبارات تكشف معرفته قدر ما تكشف جهلي ... فمثلا عدت ذات يوم وكنت قد لمحتها ذاهبة لعرس صديقتها وهي متألقة زاهية ...فإذا به يلتقيني قائلا ... "لو يعلم المحبون بأفراح السماء لصارت أفراح الأرض عزاءا ... " ... فلم أجبه بل ابتسمت فابتسم ... ومرة أخرى كانت حزينة مهمومة وهي خارجة مع أمها لشراء مستلزمات جهاز بيتها المستقبلي ... فتكدرت لحالها ، فقال لي عندما رآني ...

"يابن نصيبين ... عندما يثقل هم السماء ... يهون هم الأرض ... " ...

لم أدرك هل كان يعلم بزياراتي أم ...؟!! ... لِمَ أسأل أسئلة ليس من وراءها طائل ؟ ... أريد أن أهذب فضولي المتنطع ...

وقفت ببابها ... هل هي مستيقظة ؟ ... أعلم أنها انتقلت لبيت أبيها بعد طلاقها من ابن أبو يوسف في قصة تسامعت بعض منها من نقاش مولانا أبو العلا مع أبيها ، كان ذلك حين قصده لإنهاء هذا الزواج المرير ، وقد أنتج زهرة صغيرة ... سمتها أمها " فاطمة " ، وأسماها

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

الجميع بطة ، فلم أعرف ما العلاقة بين إسم راقي وعظيم مثل "" فاطمة "" ، وطائر يؤكل على مائدة غداء .....

ماذا بي ؟!! . . لماذا أتشدق بسفاسف الكلام كما الصعاليك من البشر والطائشين من الجن ... لماذا يتفلت مني عقلي وفكري ؟ ... حتما أراني مرتبكا ، فهي المرة الأولى التي سأكلمها فيها ... إن صادف ورأيتها اليوم ... سامحني يا رب العالمين ، مازال القلب يأبى الانصياع ...

طرقت طرقتين ... ثم انتظرت ... فسمعت صوتها من الداخل ... "... الباب يا بطة " ... وسمعت رد " فاطمة " ... " يامة أنا بأأكل الفراخ ... " ... فلم أعلم أيهما سيفتح وكنت قادرا على المعرفة بل وعلى أنا أكون معها الآن ... بل ... ياويحي ... ماهذا الجنون يا بن ابليس ... هل تتشدق بقدرتك أمام مخلوق من مخلوقات رب العالمين ... صدق من سماك ابن ابليس ... لا تنفع الحرية المتفلتين أمثالك لابد أن يحكمك رابط ...

سمعت صوت القفل يفتح من الداخل ببطء ... لألمحها واقفة ، فاضطربت واحسست أن الكون يدور من حولي ... من حولي وحولها ... ونحن فقط محوره الثابت ...

فتحت وأطلت كشمس الشروق ... ومازالت عينيها شاهقة الاتساع ، شديدة الحور ، ومازالت تلك الخصلة فوق جبهتها تمارس هوايتها في ذبح أعين الخلق ... نظرت الي بدا عليها التوتر والفزع وقد غطت شعرها وجيدها بقطعة قماش أمسكتها بمعصمها خشية التفلت ... بينما بدا ساعدها تحت القماشة بلونها الخمري يذهب بالعقول ... يا خالق الخلق ارحمنا من فسوق أعيننا ...

" صفية " – سي عبمحسن ؟ ... خير ؟

عبدالمحسن – أبويا الحاج " معروف " صاحي ؟

" صفية " – يالهوي ... هو سيدنا بعافية ...

عبد المحسن – سيدنا بأحسن حال ... بس هو أبويا الحاج صحي ولا لسة ...

" صفية " – لسة ؟

– طب صحيه الله يرضى عليك ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

خبطت بكف يدها على صدرها وشهقت ...

- يبقى مولانا حصل حاجة . . يمين بالله كنت حاسة ... شفتله رؤيا ديك النهار ماطمنتنيش ... قولي ماله ... ناخده ع المستشفى عدل ...
- يابنت الناس الطيبين الله يرضى عليكي ، صحيلي أبويا الحاج ...
- ماتنطق يا أخي ولا تقول نشفت دمي ... دهدي ... مولانا ماله
- يا ست " صفية " ... مولانا ليه مع ربه أسرار وحالات ومقامات ... واللي زيه ماينزعلش عليه ...
- يالهوي ... هو مولاناااا ...
- راح يلتقي محبوبه ومراده ...

ظلت تخبط على صدرها وهي تولول ... وفي لمح البصر تهدج صوتها وبدأ في البكاء بينما جاءت " فاطمة " من الداخل تجري ...

" فاطمة " – فيه ايه يا مة ... فيه ايه يا عم محسن

" صفية " – يا خرابي ... يا لهوي ... يا سنتك السودة يا " صفية " ... الله يرحمك يابا الحاج ... الله يرضى عليك يا سيدي وتاج راسي ...

واستمر النواح والبكاء حتى أفاق الحاج " معروف " وأدخلني بيته بعدما بقيت واقفا لا أدري ماذا أفعل ، لقد انفجرت " صفية " أمامي في بركان من الحزن والأسى تعجبت منه ، ... أعلم تماما حب " صفية " للشيخ أبو العلا ... بل حب كل أهل القرية له ، فقد حفظ معظمهم القرآن وهم صغار و أولادهم بل وأحفادهم أحيانا ... وكان رحمه الله ورضي عنه يبيع الحلوى والمستلزمات البسيطة أمام بيته المتواضع مما يعينه على أسباب العيشة ، وكم باع بدون ثمن وكم سد حاجة وكم أشبع جوعة ويعلم الله أننا كنا نبيت الليلة والليلتين وما في البيت سوى خبز مهترئ قديم وكوب شاى تقطع من كثرة الغليان مرة تلو المرة ... وهو مالم يكن مولانا يستغنى عنه ... لكنني تعجبت من فاجعة " صفية " في مولانا ... التي أظن أنها ما كانت لتحدث لو كان المصاب أبوها نفسه !!!

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

جلسنا في غرفة الضيوف وقد سرى بالبيت صوت القرآن يصدح به الشيخ الحصري بماتيسر من سورة مريم ... وخيم الصمت والحزن على المكان ... وبعد أن سلمت الحاج " معروف " الأمانة بدأ كبار القوم يتوافدون لعمل الترتيبات اللازمة ، وكان آخر الواصلين هو " ياسين " . . ابن مولانا ... وسبحان من يحيي الحي من الميت والميت من الحي ... كأن شرور النفس قد خلت من صدر الشيخ لتصب في صدر ولده ... كان " ياسين " نموذجا مشوها للنفس الإنسانية ، كان أصدق تعبير هو ما كنت أسمعه من فم الشيخ وهم يردد وراءه كلما غادرنا تاركا وراءه حزنا وغما ، قول رب العالمين لنوح عليه السلام حين خشي على ولده من الغرق ... "إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح" ...

" ياسين " رجل سيئ الخلق بذئ اللسان معدوم القيم ، تحكمه شراهة نفس لا تهدأ ، منذ صغره رفض مسار أبيه وسخط على كل أفعاله ، فغادره وهو في السادسة عشرة وانضم لرفاق سوء عاثوا في الأرض فسادا ، نهبا وترويعا وتجارة مفاسد وكل ما يشوب البشر من سوء ... ولم يكن يأتي إلينا إلا لحاجة . . إما لمال على شحه عندنا ، إما لقضاء الليل بعدما نفذت منه السبل وإما هاربا من الشرطة أو من أحد شياطينه ... وتكون هذه الليلة عادة من أسوأ الليالي فلا يهدأ الشجار والسخط بين الأب والأم وابنهما العاق ، حتى يترك الأم باكية والأب صابرا محتسبا يذرف دمعاته فوق بساط صلاته سائلا الله الرحمة والغفران لهذه النطفة الفاسدة ...

أتى " ياسين " بعد مشقة ودخل القاعة على كره من الحاضرين ووجل وخوف . . فقد كان هذا أل "" ياسين "" هو بلطجي المكان وسبب الشرر فيه فكانوا يتجنبون إغضابه والقرب منه ويطمعون دائما في الشيخ لايقافه وردعه ... أما الآن ... فالقلق يساور الجميع ... دخل كعادته ثقيل العينين ثقيل اللسان ، وبدا قرينه منتفخ الأوداج منتشيا ، نظر الي كعادته غاضبا ساخطا ، ثم مر من أمامي راكبا صاحبه على كتفيه وقد أدلى بساقيه فوق كتفه بسعادة وفرحة ... نطق " ياسين " في ثقل ...

" ياسين " – شوفوا بأة يا حجاج ... أنا معيش بريزة على بعضها ... والصراحة مليش عازة في الجتة ... فاللي ييجي على بالكو اعملوه ... أنا اللي يهمني حاجة واحدة بس الحدوتة تخلص

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

في ساعتين زمن ، الشيخ المجذوب ده يروح يلم حاجات أبويا ، يسلملي الدار تسليم أهالي ... وكل حي يروح لحاله ... ماشي يابا ...

ونظر الي بعينيه المتثاقلتين ، وتمنيت في لحظتها أن أتحلل من عهدي مع الله وأمسك بهذا المسخ فألقي به من فوق جبل المقطم ... عشر مرات ...

– يابا ... ماشي يا عمنا ؟

أجبته في خفوت ...

– اللي تشوفه يا سي " ياسين " ...

هنا نطق الحاج " معروف " مترددا

" معروف " – إحنا كنا يعني بنسأل . . هو مولانا مالوش قرايب في أيتها ناحية وجب نبلغهم

" ياسين " – ليه ؟ ... حنعمل فرح ؟ ... واحد مات يا عمنا ... والحي أبقى م الميت ...

" معروف " – طيب أنا كنت رتبت مع التربي حيندفن ف مدافن الصدقة بتاعة الجمعية الشرعية ، عندك ما يمنع ؟

" ياسين " – حياخدوا فلوس ؟

" معروف " – لا طبعا يابني ... دي مقابر صدقة

" ياسين " – ولا حيدوا فلوس ؟؟؟ (ثم أخرج ضحكة رقيعة قذرة من فمه المسود دوما) ... طبعا ما هو الشيخ أصله بركة ... وكمان فيه مهابيل كتير حيجوله يزوروه ... يعني حيجيبلهم رجل ع الترب ممكن بعد كده يبيعوا المتر بالشئ الفلاني

" معروف " – لا يابني ما حدش بيدفع فلوس في الدفن

" ياسين " – خلاص ... خلوها عندي المرة دي ...

وفجأة علا بالمكان صوت أغنية فاحشة قذرة من إمرأة أكثر فحشا ، فانتبه الجميع فإذا ب" ياسين " يبتسم ويخرج هاتفه المحمول من جيبه وهو يصدح بهذا الفحش الشنيع ، فأمسكه ما أن نظر فيه حتى أجفل وقام ملدوغا وسط استغراب الحاضرين ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

" ياسين " – أهلا يا حاج " نصحي " ... كيف الحال ؟ ... لمؤاخذة يا حاج أصل أبويا كان بعافية حبتين وأنا كنت طول الليل جنبه لحد ما طلع السر الإلهي من ساعتين زمن ... . تعيش يا حاج مانجيلكش ف حاجة وحشة ... لا حندفن دلوقتي هنا ف البلد ... في مقابر الجمعية التعاونية اللي هنا ... ؟ نعم ؟ ... (تطلع لنا جميعا ونحن ننظر له في ذهول تام ، فسكت للحظة) ... دقيقة يا حاج ... بعد إذنك يا حاج " معروف " آخرج آخد التليفون برة نقضي مصلحة بس كده ...

" معروف " – اتفضل يابني البيت بيتك ...

تقدمه الحاج " معروف " ففتح له الباب فخرج مسرعا ، رغما عني جاءني ريحها فانتشيت وإذا بها جالسة جانبا على الأرض مستندة على الحائط وقد ارتدت السواد وعصبت رأسها بقماشة سوداء محتضنة ابنتها وبدا علي عينيها الذبول ... خرج " ياسين " للحيظات ، بينما ظل الجميع واجمين حتى أتى ... وأتى بوجه ممتقع غير الذي ذهب به ...

" ياسين " – حصل تغيير ف الخطة يا حجاج ... إحنا حندفن في الصعيد ...

" معروف " – الصعيد ؟؟؟

" ياسين " – آه ... أخوالي هناك مصرين أدفن عندهم ... وإنتوا عارفين دول صعايدة ما تنزلهمش كلمة

نظر الجميع لبعضهم البعض مذهولين من تغير الحال ...

" معروف " – يابني بس هنا أهله وناسه ... أبوك ماراحش الصعيد من ييجي أربعين سنة ولا عمره جاب سيرتهم أصلا ...

" ياسين " – معلش بأة يا حاج ... الودّ حاجة والواجب حاجة ولا ايه يا خوانا ... إحنا مُشّكرين ليكم يا حضرات ... أناحابعت أجيب الواد " شنودة " يجيب التوربيني نطلع بيه ع الصعيد قبل الصلاة ...

" معروف " – قبل الصلاة ؟ ... طب ما تخليه لحد ما نصلي عليه الجمعة دي ساعة مباركة...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

" ياسين " – جرى ايه يا حاج " معروف " ... أبويا وأنا حر فيه يا أخي ، أنا قدامي ساعة زمن عقبال مارتب العربية ولزوم السفر ... لو تحبوا روحوا ع الدار دلوقتي اعملوا اللي عايزين تعملوه واقابلكم هناك بالخشبة والعربية ... بالإذن يا حجاج ...

وخرج من الدار مسرعا تاركا الجميع في صمت مطبق قطعه الحاج " معروف " بصوت واهن . .

" معروف " – ياللا يا رجالة نطلع على مولانا نغسل ونكفن ونودعه . . واهه ربك الحافظ ...

نظر الي الحاج " معروف " بنظرة تنم عن غيظه وألمه فبادلته بمثلها وخرجنا جميعا متوجهين لبيت الشيخ ، سرنا جميعا لكنني كنت متأخرا عنهم قليلا أدبا وإحتراما كما علمني شيخي ... جال في نفسي خاطر عجيب ... إنها وراءنا ... أحس ريحها ، بل إنني أحسها تقترب شيئا فشيئا في سرعة ... إنها بجوارنا في مكان ما ... إنها تتبعنا ... لم يكذب حدسي ، فما أن انعطف الرجال عند رأس السكة و بدوا على غير مرأي مني ، فوجئت بصوت يهمس ...

"بسسست ... بسسسست ... عبمحسن ... عبمحسن ..." ...

نظرت ورائي متعجباً فرأيتها واقفة بقوامها الفارع بجوار حائط وقد انزوت بعيدة عن الأنظار وكأنها تمثال اغريقي برونزي ، والسكة خالية من المارة في صبيحة يوم الجمعة ... كانت واقفة مرتدية عباءة فضفاضة سوداء معصبة رأسها بالسواد وحاملة حقيبة قماشية متوسطة الحجم وقد وقفت " فاطمة " بجوارها واجمة مرتدية ثوبا زاهيا فوق ثياب البيت ...

– ست " صفية " ؟ ... يارب يا ساتر ...

ذهبت لها ووقفت أمامها مطرقا في الأرض تاركا كل ما أملكه من إدراك يعيش في ريحها العبق ...

– عبمحسن ... إنت رايح معاهم ؟

– مع مين ؟ وفين ؟

– مع " ياسين " وسيدنا ...

– أكيد يا ست " صفية " ... ده سيدي ولا يمكن أسيبه قبل الدفنة

– طب أنا جاية معاكوا ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- نعم ؟؟؟ إزاي
- زي الناس ... التوربيني بتاعة الواد " شنودة " تاخد اتنين جنب السواق واتنين ع الكنبة ورا . . ونتني الكرسي اللي في الجنب تتمد الخشبة فوقيه ... تقعد انت و" ياسين " جنب السواق ، وأنا وبطة ع الكنبة ...
- أيوه بس ...
- مابسش ... أنا لو قعدت هنا يوم كمان ، الواد ابن أبو يوسف حياخد البت مني أنا عارفاه مفتري ومابيراعيش ربنا ... سيدنا هو اللي كان واقف قدامه ... وإنت عارف أبويا لا بيصد ولا بيرد وأصلا زعلان من قعدتنا عنده ...
- طب وانتي ليكي مين ف الصعيد ؟
- خالتي "أميمة" متجوزة في أسيوط ... حاقعد عندها لحد ما شوف صرفة
- وليه البهدلة بس يابنت الناس ؟ ...
- عبمحسن ... إنت الوحيد في اللمة دي اللي ممكن تساعدني . . أنا ولية ضعيفة ومالیش حد ... ومايرضيكش الواد ابن أبو يوسف ياخد البت مني ... دانا يمين بالله أولع ف نفسي ...
- أعوذ بالله يا ست " صفية " ... لا حول ولا قوة الا بالله ... طب ما تروحي تسافري م الموقف زي الناس ...
- كل السواقين حبايب ابن أبو يوسف ... أول ما حاهوب الموقف حيدوله خبر حالقاه فوق دماغي قبل العربية ما تتحرك ... هو متخانق مع " ياسين " ابن مولانا ومفيش بينهم عمار ... وماحدش حيعرف أنا رحت فين لحد ما ارتب حالي
- طب حنعمل ايه ف " ياسين " ...؟
- مالكش دعوة ب" ياسين " أنا حاتصرف معاه ... أنا بس طالبة منك حاجة تانية
- أؤمريني يا ست " صفية "
- عارف البنزينة اللي جنب محل الشناوي بتاع الموبيليا ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- عارفها ...
- خليهم يقفوا هناك بأي شكل . .
- وبعدين ؟
- مالكش دعوة ببعدين ... يحلها اللي خلقني وخلقك ...
- تحت أمرك يا ست " صفية " ... ربنا يسهلك أحوالك
- كتر خيرك يا عبمحسن ... مولانا كان دايما يقول عليك ابن حلال ...
- كان بيقول كده ؟

قلتها بلهفة خرجت رغما عني فابتسمت وردت بعذوبة رغم صعوبة الموقف ...

- يوه . . وأكتر من كده ... حابقى احكيلك ... سكتنا طويلة ...

تسمرت أمام ابتسامتها واجتاحتني نشوة أنبتت لظهري جناحين إجتهدت أن أخفيهما .

أتم الرجال الغسل والتكفين ، ثم صلوا عليه الجنازة في البيت ، وفي خلال ساعة كان " ياسين " قد وصل بالتوربيني . . وهي السيارة الستيشن الخاصة ب" شنودة " ويعتبرها الجميع وسيلة الانقاذ الرئيسية بالقرية فهي سيارة كل المهمات فكم نقلنا فيها من بشر ودواب وأحمال ... إلى عرس أو أسواق أو مستشفيات ... وكان أهل القرية يسمونها توربيني " شنودة " ... لصوتها العالي وطولها الفارع وكانت أحيانا ما تقوم مقام سيارة الجنازات لكل أهل القرية مسلميها ومسيحييها ، ولربما تستخدم في أغراض أخري . . وكان " شنودة " هو مخلصاتي القرية ، فلو رغبت في أي شيء من باكو اللبان الدكر إلى شكمان عربية بيجو ٥٠٤ موديل ٧٤ ما عليك إلا أن ترسل له فيكون الطلب عندك خلال سويعات أو ليلتين على الأكثر ... والحق يقال كان " شنودة " شابا مهذبا خدوما قليل الكلام ، لم نسمع عنه ما يشين ولم نر منه سوءا

تم كل شيء كما خطط له الحاج " معروف " ، فأتم الرجال الغسل ، ولم أحضره معهم لانشغالي بلملمة أشياء الشيخ كما بررته لهم ، لكن الحقيقة كان السبب الرئيسي هو معرفتي بعدم جواز وقوفي بهذا الموقف ، فهو موقف مهيب كاشف ، لا يحضره سوى الإنس المقربين

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

خشية تكشف الإنسي المتوفى في الغسل أو ما شابه ... فاعتذرت وذهبت لأجمع أشيائي من البيت بعدما علمت أن " ياسين " سيستولى عليه ومن ثم فلم يعد لي مقام عنده ...

مضيت أللم تاريخا عشته لحظة لحظة ... ما بين وريقات متناثرة كتبت بها بعض ما تعلمته من الشيخ وكان يصر على أن أكتبه وراءه ، فلما كنت أنبهه أنني لا أحتاج للكتابة ، كان يصر أن يعلمني كما يتعلم الإنس ، فاعتدت الكتابة على أي شيء أمامي ، ورق ، صحف ، حقائب ورقية ، وأحتفظت به عندي تبركا وحبا ... غير أنني وأنا أللم كل شيء ، لم يكن بذهني سوى ذاك الطلب العجيب والموقف الأعجب من " صفية " بنت الحاج " معروف " ... فما طلبته كان غريبا خطيرا ، الهروب من بيتها في غفلة من أهلها وأبيها الرجل الطيب الصدوق ، ومخاطرة اصطحاب ثلاث رجال في طريق سفر طويل ومعها ابنتها الصغيرة ، وهؤلاء الرجال فيهم شيطان رجيم يجدر بي وأنا الجني أن أخشى منه ، فما بالها وهي المرأة الضعيفة رائعة الحسن وقد أضفى حزنها وسواد عباءتها عليها جمالا مذهلا يأخذ بالألباب ... بيد أنني رغما عني لم أخفي سعادتي من هذه الرفقة التي لم تخطر لي على بال وكنت قد بدأت أتخيل معاناتي في شكل الرحلة مع " ياسين " ومدى احتمالي لسوء خلقه وفحش ألفاظه ، فإذا بالله رب العالمين يُمنُّ عَلَيَّ بأجمل النعم وأحلاها ... يبدو في النهاية أن رب العالمين قد خلق للجن قلبا قد ترق أحيانا أكثر من البشرِ

خرج سيدي ومولايا الحبيب محمولا على أعناق الرجال من باب الدار الصغيرة ، ففوجئت بموكب من الملائكة الحراس يسيرون بجوار الرجال ويحملون النعش بأيديهم فارتعدت للحظة ، ثم داخلني الاطمئنان أن هناك من سيحرس هذا الجسد الهزيل ، خاصة عندما نظر لي أحدهم فأحسست الرضا والإطمئنان من عينيه ... عندها أدركت أنني رسميا قد خرجت من دائرة خطر الحراس ... رحمك الله يا شيخي ... أخرجتني من رعب الاحتراق بالدنيا فاللهم أخرجنا منها بالآخرة ...

دخل النعش من خلف السيارة بين دموع المودعين المحبوسة وأغلق عليها الباب ، فأسرع " ياسين " وودع الجميع بكلمات جافة خالية من أي ملمح إنسي ثم أمرني بغلظة أن أركب

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

بالكنبة الخلفية وركب هو بجوار السائق ، وأذهلني وصف " صفية " الدقيق للسيارة ، حسب خطتها ، فالمفترض أن أجلس أنا بجوار " ياسين " والسائق ، ويتم طي المقعد بالصف الخلف فتمتد به الخشبة طوليا وتجلس هي و" فاطمة " بالكنبة ذات المقعدين ... هذا سيعني أنني سأكون بجوار " ياسين " طوال الرحلة ... يا له من كابوس ... لكن الأسوأ أنها ستكون طوال الرحلة خلفي ، فلن يكون لدي الفرصة لتأملها واختلاس النظر اليها ...على الأقل في هيئتي الإنسية ... ياللهول . . ما لهذا الذي يتخاطر إلى ذهني ... كم من الحدود تبغي اجتيازها يابن ابليس ... اللهم ارحمني واحفظني من خطرات نفسي يا رب العالمين ...

بدت "البنزينة" المنشودة على البعد وظللت طويلا أفكر في العذر الذي سيجعلني أجبرهم على التوقف في هذه "البنزينة" ، فما جال بخاطري إلا العذر المعتاد ...

– سي " ياسين " ... أستأذنك نقف عند البنزينة نجيب حاجة نتزود بيها في السكة ...

نظر الي شزرا ، وله الحق ، ففي هذه الأجواء من الحزن والكآبة لم يكن من المنطقي أن أفكر في الطعام أو الشراب ، ولو يعلم " ياسين " طبيعتي لازداد ذهولا من طلبي ، لكن فوجئت به يرد ...

– والله ومعاك حق يا شيخ ... برضك السكة طويلة و الواحد صحي على معدة فاضية ...

إطمأننت قليلا ، غير أن سكينتي لم تدم عندما أضاف سيئ الذكر ...

– بس إحنا حنجيب الفطار من البنزينة بصفة ايه ... حنفطر جاز ؟ ... ده بنشربه بس ... ولا ايه يا " شنودة " ...

ثم أطلق ضحكة رقيعة وهو يضرب بيده على فخذ " شنودة " الذي جاراه بابتسامة خفيفة ، لم أدر ماذا أفعل ، هممت أن أختلق عذرا آخر إلا أن " شنودة " سبقني ...

– كده كده حنحتاج نخش البنزينة نحط جاز ، أخش أنا أمون ونبعت نجيب فطار من "أبوحباجة" ع اليمة التانية ...

نظر له " ياسين " ثم أدخل يده بجيبه وأخرج ورقة بعشربن جنيها وأعطانيها وهو يقول لي ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- طب خد يا شيخ ... هاتلي ٣ فول و٣ طعمية و٣ بتنجان وعلبتين سوبر ... وشوفوا انتوا حتاخدوا ايه ... وانا حاقيل حبتين لحد ما نخلص . . بس اسرع وحياة والدك يا شيخ ...

قالها وآعاد رأسه على المقعد وقد أرخى على عينيه طرف كوفية مهترئة كان يلفها على رقبته ... اقتربت السيارة من محطة البنزين ، ورأيت على البعد " صفية " و" فاطمة " يقفان بجوار رصيف المحطة ، فما أن وقفت السيارة أمام الماكينة حتى نزل " شنودة " ليملأ البنزين ونزلت وراءه من السيارة متخذا طريقي "لأبوحباجة" على الضفة الأخرى من الطريق وعقلي وقلبي مع " صفية " التي لمحتها بطرف عيني تقترب مسرعة من السيارة وهي تنظر لي نظرة خاصة بابتسامة امتنان ...

كل موانع الكون لم تستطع أن تمنعني من أن أستغل قدراتي لأتسمع ما ستفعله مع " ياسين " ... وفي الحقيقة لم أجد لذلك من بد ، فأنا لن أؤذي أحدا ولن أستخدم هذه الهبة الربانية ضد أحد ... ولن أغير مسار الكون وقوانينه ... وقفت أمام بائع الفول وسمعي ينقل لي همسات " صفية " التي انتهزت فرصة نزول " شنودة " لتموين السيارة فاقتربت سريعا من " ياسين " ...

- سي " ياسين " ...
- هه ... مين ... " صفية " بنت " معروف " ؟ ... ازيك يا بت ...
- بخير يا سي " ياسين " ... البقية ف حياتك يا خويا
- ف حياتك ياختي ... ايه اللي موقفك هنا يا بت انتي مش كنتي لسة ف دار أبوكي ؟
- أيوة يا خويا ، بس أنا أصلي لية غرض وقاصداك ف خدمة ...
- خدمة ؟ ... أؤمري يا ست الستات ... بس انتي عارفة أنا طالع ع الصعيد
- مانا عارفة ... ماهي دي الخدمة اللي قاصداك فيها ... أنا عايزة آجي معاكو
- يابت إنتي فاكراها عربية بالنفر ... احنا رايحين ندفن ... روحي انجري على بيت أبوكي ولا خديلك عربية من ع السريع
- يا سي " ياسين " ... انت عارف السكك اليومين دول مش أمان وأنا قلت برضك لما حد من البلد يكون معايا يعني يبقى أأمن ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- أأمن ؟؟؟ . . انتي مالك يابت عاملة عملة ولا ايه ؟
- أنا ؟ أعوذ بالله ... وانت عمرك سمعت عني حاجة كده ولا كده يابن الناس ؟
- أمال طالعة متخفية كده وساحبة البت معاكي ليه ؟ ... راحة مولد البدوي؟
- باقولك ايه يا سي " ياسين " ... أنا عايزة ياخويا أجيب من الآخر من غير لف ولا دوران ... أنا عايزاك تاخدني معاك لحد أسيوط ومعايا دبلتي دهب عيار ١٨ يجيلها بتاع سبعميت جنيه ... تلزمك ولا أشوفلي حد تاني ؟ ...
- وانتي لا مؤاخذة مش عايزة تاخديلك عربية م الموقف ليه ؟
- مش عايزة حد يعرفلي سكة وكل سواقين الموقف عارفين أبويا وأصلي وفصلي ... وقبل ما نعدي كوبري زفتى حالقالي ميت واحد مستنيني ... هه ... قلت ايه يا سي " ياسين " شكلي مايسرش وأنا واقفة كده جنب العربية

فكر " ياسين " للحظات ... ثم همهم بصوته المتثاقل ...

- طب خشي اتلقحي وراع الكنبة ونبقى نشوف صرفة ف الشيخ محسن ...

بينما تراقص قلبي الذي اكتشفته حديثا طربا ، دلفت " صفية " بخفة غزالة رشيقة داخل السيارة ،وهي تسحب ابنتها معها ، بينما مد " ياسين " يده لها في طمع شره ...

- الدبلة يا بنت الناس ...

أخرجت المرأة الدبلة من حقيبة يدها وأعطتها له وكأنها تخلع همها وحياتها ورائها ... وتمتمت . .

- هو انت ياسي " ياسين " حتاخدني الصعيد بسبعميت جنيه ؟
- عايزة تروحي الموقف أبو عشرين ... أهه قدامك ... ولا أكلم إبن أبو يوسف ييجي يوصلك يا بنت الناس ...
- ابن أبو يوسف ؟؟؟
- إنتي فاكراني عبيط ولا بريالة يابت ... أنا دبة النملة في البلد بتجيلي وأنا لامؤاخذة قاعد في الكنيف ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- ماقلناش حاجة يا سي " ياسين " ... بس أنا أصلي كنت معتمدة على فلوس الدبلة دي تستر معايا يومين تلاتة لحد ما أدبر نفسي ...
- إنتي مش نازلة عند حد في الداهية اللي انتي رايحاها ؟
- نازلة عند جوز خالتي ...
- خلاص يبقى يسترك هو ... وأهه برضك الخالة والدة ...
- ياسي " ياسين " ...
- باقولك ايه . . بلاش دوشة ووجع دماغ ... اللي أوله شرط آخره نور ... إنتي قلتيلي آجي معاكوا واديك الدبلة ... دخلتي التوربيني واترستأتي ، حتتطلعي روح أمي معاي ليه ... أنا عدلة دماغي بفلوس ... اخلصي بأة ولمي بنتك واتاوي جنب الشباك داهية تاخد النسوان على أمهم ...

سكتت " صفية " بعدما رأت وجه الوحش البشري يتجسد في عيني " ياسين " المحملة بأكياس المخدر والحشيش ، فخشيت على نفسها ... ولو سمعت ما همس به ذلك المسخ في سره كما سمعته لارتعدت من هول ما يدور داخله وهو يهمس لذاته المدنسة ... " البت قشطة وتستاهل فمك يابن أبو العلا... " ...

عدت سريعا بعدما اشتريت مطلوبات الطريق ، وكان " شنودة " قد أنهى كل شيء وخرج بالسيارة من المحطة منتظرا على جانب الطريق ، ما أن وصلت ولمحت " صفية " وقد ارتكنت بجوار الشباك محتضنة ابنتها ناظرة للمجهول حولها ، حتى نظرت ل" ياسين " متساءلا عن موضع جلوسي فأجابني في غلظة ...

- اقعد انت جنب حبيبك في الشنطة يا شيخ ... الست " صفية " حتآنسنا في السكة ... أصلها كانت بتعز الشيخ وعايزة تدفنه معانا ...

ثم أضاف وهو ينظر لها نظرة لا تخلو من طمع فاحش ... "وحياتك يا قشطة لاحنا دافنينه سوا ... ولا ايه يا بنت " معروف " " ... نظرت لها فلم يكن من الصعب تمييز نظرة الرعب التي اجتهدت أن تخفيها بقوة وهي ترد له النظرة وترد عليه بنبرة تحاول أن تظهر فيها من القوة ما

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

يردع نفسه المريضة ... "حندفنه سوا يا بن الشيخ ... " ... ثم نظرت إلى بزاوية عينيها محاولة تلمس واحة اطمئنان ... فنظرت لها محاولا أن أخبرها أنني علي استعداد أن أرفع جبال الكون لو همست ... فردت بابتسامة مسكينة ثم التفتت للطريق وبقيت جالسا وراءها ... بجواري شيخي صاحب العهد والميثاق وأمامي مخلوقة ليست من جنسي هام بها قلبي وخاطري وبالأمام شيطان يجلس متخفيا داخل مسخ إنسان ، ولم يغب عن ناظري للحظة أولئك الحراس الذين أحاطوا بالموكب العجيب إكراما وتبجيلا لصاحب المقام الرفيع المسجى داخل الصندوق الخشبي المجاور بينما انطلق " شنودة " يمخر عباب الطريق وقد تدلى من المرآة أمامه صليب خشبي وبجواره قلادة بلاستيكية مكتوب عليها سترك يارب

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

بداية الرحلة

كان صوت شخير " ياسين " يغطى على صوت التوربيني الذي كان ينهش الأرض نهشا ، بينما كانت الست " صفية " ممسكة بكتاب رب العالمين تقرأ منه سورة الكهف وقد نامت ابنتها الصغيرة على حجرها ساكنة وديعة تهدهدها سيارة " شنودة " كما الأم الحنون ، بينما لملمت نفسي وجلست مقرفصا بالشنطة الخلفية مصطنعا النوم كما يفعل عادة الإنس في مثل هذه الظروف غير أنني كنت مدركا لكل ما يدور ، منصتا رغم شخير " ياسين " لصوت " صفية " وهي تقرأ من سورة الكهف بصوت رتيب يكلله الجلال ، متساءلا عما سيحدث في الساعات القادمة ، وتمنيت أن أكون مثل أجدادي القدامي الذين كانوا يتسمعون خبر السماء فيعرفون ما سيدور في رحى الأيام في المستقبل القادم إلى أن بعث رب العالمين محمدا بالرسالة وبالكتاب فأغلقت السماء وبدأ الحراس عملهم الدءوب في حرق كل من تسول له نفسه التسلل للسماء العليا للتسمع وتكشف أسرار القادم .

ظل الحال كما هو عليه بين شخير " ياسين " وتلاوة " صفية " وهدهدة التوربيني ل" فاطمة " وصمتي المصطنع حتى قطعه صوت " شنودة " وهو يناديني ...

- عم محسن . . آآآ عم محسن ...
- خير يا " شنودة " !!
- وحياة والدك يا شيخ فيه جنبك إزازة مية محطوطة في لامؤاخذة حتة خيشة ... ناولهالي يابا لو مافهاش تعب
- تحت أمرك يابني ...

أخذت الماء ورفعتها له ، فمدت " صفية " يدها لتأخذها مني وتعطيها اياه ، فتلاقت أعيننا للحظة كانت كفيلة بأن توقف الزمن كالعادة وتزرع في داخلي نبضا لقلب لا أعلم حقيقة وجوده ...

"تسلمي يا ست البنات " ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

قالها " شنودة " وهو يتسلم زجاجة الماء منها ومضى يرتشفها في بطء ... ثم وضعها جانبا ... فانتهزت الفرصة بشكل لا يخلو من لؤم حتى تتكرر الخطوة لعلي ألاقي عينيها بمنتصف طريق التوربيني فرفعت صوتي ...

"شوية مية يا " شنودة " الله يرضى عليك" ...

فتكررت الكرة راجعة وحملت زجاجة الماء النظرة الثانية التي لم تخلُ من ابتسامة حتى ظننت أن " صفية " أدركت مقصدي المريب فاستحييت وأطرقت عيني ... غير أنها عاجلتني بعذوبتها القاتلة ...

- بالهنا والشفا يا سي محسن
- الله يهنيكي يا ست الستات ...
- والله يا شيخ ، مولانا قطع ف قلبي أوي ...
- قطع فينا كلنا يا ست " صفية " ، بس حنعمل ايه ... قدر الله ع الجميع
- الا انت ماقلتليش يا خويا هو ايه اللي حصل ؟
- هو كان بعافية بقاله ياما ... امبارح الوجع زمّ عليه وبأة مش قادر يشيل راسه ومادقش الزاد طول اليوم ...
- طب ما خدتوش ع المستشفى ليه يا خويا
- مارضيش ... كان عايز يروحله ... اللقا شوقة حسب قوله
- صحيح . . اللقا شوقة ... الله يرحمك ويسعدك يا سيدي وتاج راسي ... أكيد هو دلوقتي متنعم في أحسن مكان

نظرت من حولي للموكب المهيب المتتبع للتوربيني وهو يحيطون به من كل جانب ، فرددت عليها :

- عندك حق ... الدور والباقي ع اللي لسة مستني في الدنيا دي
- آه ومين سمعك ... دنيا مش عايزة تخلص
- وانتي عايزاها تخلص ليه بس يا ست البنات ... دانتي لسة ف أولها ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- الله يرضى عليك يا شيخ ... بنات ؟ وف أولها ؟؟ . . دانا عديت التلاتين يا شيخ . .
- وهي التلاتين دي حاجة يا ست " صفية " ... لسة العمر قدامك
- الا هو انت كام سنة يا شيخ محسن ... ؟
- (ابتسمت متفاجئا من السؤال ، وتخيلي لرد فعلها لو قلت لها أن عمري الحقيقي قد تجاوز المئة وخمسين ...) ... أنا عديت الأربعين بحبة
- حبة يعني عشرين سنة كمان ولاسنتين تلاتة ؟ . . يالهوي على كهن المشايخ ده ...

ابتسمت وتمنيت أن تتوقف عن السؤال عن سني حتى لا أضطر للكذب وقد ودعته منذ رافقت الشيخ ... فسارعت بالحديث حتى لا تستطرد في السؤال ...

- العمر مش بالسن يا ست " صفية " ... العمر حاجات اكبر من كده بكتير
- والله عندك حق ... ساعات الهم بيخلي الواحد عنده ييجي ستين سنة
- والفرح بيخليه عيل عنده عشر سنين ...

التفتت الي ونظرت الي بعينيها الواسعتين السوداوتين اللامعتين كحبتي ألماس أسود لم يرها البشر منذ الخليقة ...

- يفرحك يا خويا مايحزنك ... ويعزك ما يهينك ولا يهمك . .
- ماتحمليش هم يا ست " صفية " ... ربك حيحلها من وسعة ... ارمي بس حمولك عليه ...
- رامياها يا خويا . . رامایاها ومستغنية ... وهو أنا لو ماكنتش رامياها كان غمضلي جفن ولا نامتلي جتة ... يالله ربك حليم ستار ...

فجأة علا صوت " ياسين " من الأمام مختلطا بصوت شخيره الخشن ...

- ما تتهدوا بأة يا خلق ياللي ورا ... قلقتوا منام أمي ... دانتوا قربتوا تصحوا أبويا جنبكو ... مش فاهم إنتوا رايحين تدفنوا ولا رايحين القناطر ...

اعتدلت " صفية " في جلستها وأظلم وجهها وكأنها تذكرت كل همومها فجأة حين سمعت صوت " ياسين "

- لمؤاخذة يا سي " ياسين " ... ادينا بنتحدت ... السكة طويلة ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

– اتحدتتي يا ختي ، اتحدتتي... همة النسوان وراهم ايه غير اللت والعجن وخراب البيوت ... داهية تاخدكوا كلكوا ف ساعة واحدة ...

أعادت رأسها مكسورة بجوار الشباك وهي صامتة متحملة إهانات " ياسين " على جنس النساء بأكمله وكأنه يتحدث عن آخرين ، وكان هذا من أشد ما يغضبني في معشر الإنس ... حينما أرى إمرأة ضعيفة مستكينة ، يمطرها زوجها بالسخـــــــــــــــرية المهينة لها أو لمن يمت لها بصلة ، فتسكت صامتة لادراكها عاقبة سخطها ، بينما تكون المرأة سليطة اللسان فاحشة القول ، محترمة مصانة خوفا من ردها وتفلت ألفاظها ، وكأن الرجال لا يجيدون الاحترام إلا خوفا ، ولا يجيدون إظهار القوة إلا ظلما وافتراءا ... ويسمونه حبا ... رحمك الله يابن الفارض ورضي عنك . . ما أصدق قولك ...

"ويحسن إظهار التجلد للعدا ... ويقبح غير العجز عند الأحبة ... "

" ياسين " – باقولك ايه يا " شنودة " ... احنا عدينا بنها ؟

" شنودة " – آه ... وداخلين على شبرا الخيمة ...

" ياسين " –طب وحياة ابوك اركن عند القهوة اللي هناك دي نقضي حاجة وناخدلنا كبايتين شاي ونتحرك ... عايز أعمل مكالمة قبل ما نخش على مصر

" شنودة " – أمرك يا سي " ياسين " ... .

وقفت السيارة بجانب مقهى متواضع بجوار الطريق في ساحة شبه خالية ، هكذا يراها البشر ، بينما مالا يرونه هو ذلك الزحام العجيب الذي يملأ السماء في هذه اليوم العظيم ، يوم الجمعة ، فكل المساجد تكاد تكون مكتظة بالملائكة وإن هجرها البشر ، أشكال عجيبة وأحجام هائلة من الملائكة وقوفا وجلوسا وطيارين حول المئآذن ... كنت قد تمنيت أن أختطف نفسي وذلك الجسد الفاني الذي يحملني لأطير لأحضر ذلك الاجتماع الأسبوعي الذي لم يفتني طيلة عشرين عاما ، لكن ... لعل الله يغفر لي ويقبل معذرتي ... عموما لقد أخذت برخصة البشر في السفر وسأصليها جمعا ... هكذا علمني أبي ... "وأنت بصورة البشر يفرض عليك ما يفرض عليهم ..."

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

حينها فرحت وأعددت نفسي من المكرمين حين كُلِّفْتُ بحمل الأمانة من رب العالمين ، وتعجبت كيف يستثقلها الإنس ويدعون في النهاية أنهم يحبونه ويجلونه ... لو يعلمون ما كرموا هم به وحرم منه الآخرون لانتشوا فرحا وافتخارا بتكليف رب العالمين لهم ...

" صفية " – إنت مش حتنزل معاهم يا سي محسن ...؟!!!!

قالتها " صفية " بعدما نزل " ياسين " و" شنودة " وابتعدا عن السيارة قليلا ... أدركت أنها ترغب في البقاء وحدها للحظات ...

– لا نازل يا ست " صفية " بس ماحبيتش أسيبك لوحدك في الخلا كده ...

– تعيش يا خويا ... ماهو ده برضك العشم ... بس يا خويا السكة طويلة وإنت يمكن تحتاج تفك نفسك ولا حاجة ...

– طيب ... أستاذنك تفتحيلي الباب الله يرضى عليكي لو مافهاش تعب ...

قامت ففتحت لي باب الشنطة الخلفية ، فبحثت عن عينيها ألتمس فيهما نشوة اللقاء فإذا بعينيها مثبتة فوق الخشبة التي تحمل جسد سيدنا المكرم ، وإذا بلمعة حزن تجتاح عينيها السوداوتين فيزدادان لمعانا ، فخرجت مسرعا قبل أن يفضحني خاطري مطرق الرأس غاضا الطرف عنها ، وانصرفت لداخل القهوة لا أغفل عنها للحظة ... وما أن ابتعدت قدر عشر خطوات حتى سمعت باب السيارة يغلق خلفها وقد دخلتها وانغمست في بكاء عنيف متواصل يقطع القلوب والأرواح ...

"لهذا طلبت مني الانصراف" .

كان المقهى عبارة عن مبنى أسمنتي صغير متواضع من دور واحد ، رمادي اللون ، له ثلاث درجات تنتهي بمدخل عريض ، يفتح على ساحة متسعة ذات بلاط أسمنتي بها موائد صغيرة ومقاعد خشبية ، بينما في الواجهة هناك ما يسمى ب "البنك" حيث توضع عليه معدات الشاي والقهوة والشيشة ، عليه لوح رخام بهتان اللون يقف وراءه صبي صغير منهمكا في تنظيف الرخام الباهت .على الجانب بابين لحمامات الرجال والنساء وقد بدا من الرائحة أن مستخدميها مسدودي الأنوف ... داخل القهوة ، كان العدد قليل فالجميع المفترض أنهم في

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

صلاة الجمعة ، لذلك لم يكن بالمقهى سوى رجل جالس يدخن الشيشة ، والصبي ، ومائدة جلس عليها " شنودة " بينما بدا واضحا أن " ياسين " بالحمام ... دخلت جلست بجوار " شنودة " وقد طلبت كوبا من الشاي مصطنعا شربه بينما كان بكاء " صفية " بالخارج مازال متصلا ، قويا تتخلله نهنهة مجروحة...

" شنودة " – البقية ف حياتك يا شيخ محسن

– في حياتك يا " شنودة " ... مانشوفكش ف حاجة وحشة

– على فكرة . . أنا معايا شرايط قرآن ف العربية لو عايزيني أشغل أي حاجة ... أنا حبيت أقول ل" ياسين " بس انت عارف " ياسين " لا ليه دين ولا ملة ...

– يا " شنودة " الدين ف القلب ... والقرآن أجل وأكرم من إننا نشغله على ناس مش عايزينه

– يعني حبيت أقولك لو حبيت ولا حاجة ...

– تسلم يا " شنودة " . ... أصيل وجدع طول عمرك ...

– تعيش يا شيخ ... ألا كنت عايز أسألك على حاجة بس يعني محرج حبة

– مفيش احراج بينا يا " شنودة " ... انت زي اخويا الصغير ... يعني لو كان ليا اخوات

– تعيش يا شيخ محسن ... يعني كنت عايز أساألك يعني لو مافيهاش رزالة ... ألا هو صحيح عندكم الجن بتلبس البشر ؟

أجفلت للحظة وذهلت من السؤال حتى أن كوب الشاي اهتز بيدي وكاد يسقط لولا أن تمالكت نفسي سريعا ...

– نعم ؟؟؟

– (أعاد السؤال وهو ينطقه ببطء وتأكيد) ... عندكم ... الجن ... بتلبس البشر؟

– عندنا ؟ ... إحنا مين ؟

– المسلمين يابا الحاج ... يعني عندكم مين ؟

– آآآآه ... . آه طبعا ممكن ...

– طب وبتطلعوهم ازاي ؟ ... .

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- يعني فيه طرق كتير ...
- ماتأخذنيش يعني في السؤال ، إنت مش غريب وبينا عيش ملح
- طبعا يا " شنودة " ، إنت يابني جمايلك ع البلد كلها
- تعيش يا شيخ ... أنا أصلي الصراحة كنت ناوي أقصد الشيخ أبو العلا من فترة وكنت يعني متحرج أجيله ... أصلي ليا بنت خالة والعياذ بالله ملبوسة من حتة شيطان طلع البلا على جتتها ، البت بتخترف يوماتي وكل يوم والتاني عايزة ترمي نفسها م الشباك وتجيلها حالة كده تتخشب وتقلب عينيها وتتنفض زي الدبيحة وهي بتتطلع ف الروح وهوب تقع تتطب ساكتة ... خدتها الكنيسة عندنا ، القسيس صلى عليها ييجي ساعتين وروحنا ... هديت أسبوع ورجعتلها الحالة تاني ... دخنا عليها في كل الكنايس مفيش فايدة ... اسبوع وترجع ريما لعادتها القديمة ... لحد ما واد صاحبي قاللي تلاقي اللي عليها عفريت مسلم ... فقلت أروح لشيخ يمكن يخلصنا منه ... .
- لا حول ولا قوة الا بالله ... يالطيف الطف بعبادك
- والله أنا ماعرف يعني ايه عفريت مسلم ولا مسيحي ... أكيد عفريت كافر الله يحرقهم جميعا شياطين
- مش كلهم كفرة وشياطين يا " شنودة " ...
- يعني ايه يا شيخ ؟
- الجن أصناف ... منهم الشياطين ، ومنهم المردة ، ومنهم البنائين والغواصين ... ، ومنهم العفاريت ...والعفاريت مش كلهم كفرة ... فالعفاريت منهم المؤمنين ... مثل خادم سليمان اللي ذكره رب العالمين في كتابه العزيز "قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ"[1]
- يعني اللي على كوثر ده ايه
- ده غالبا من الشياطين ... يعني الجن الكافر

---

[1] النمل ٣٩

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- ياسنة سوخة ... يعني بجد ... شيطان ... وكافر كمان ... أبوس ايدك تساعدنا يا شيخ وينوبك ثواب ...
- هي فين يا " شنودة " ؟
- (تهلل وجهه فرحا) ... هي في مصر ... ف شبرا ... حنعدي عليها واحنا ماشيين ، أنا ممكن أخلي أختها تجيبها تنزلهالنا ع الكورنيش تقابلها وتبص عليها ولو ينفع تعمللها حاجة ، واحنا راجعين نعدي عليها ...
- تؤمر يا " شنودة " يابني ... أخدمك بعينيا ...
- تسلم يا شيخ محسن ... جميل ماحانساهولك العمر كله ...

لم يكن من الصعب تمييز نبرة العشق والوله في صوت " شنودة " ، وقد عرفت من قرينه أن هذه الفتاة هي حبه وهواه ، وهي ليست ابنة خالته بل هي صديقتها ... إنها حبه القديم والذي لم يستطع التخلي عنه رغم رفض أهلها وعائلتها المقتدرة ماليا ... هكذا ظل القرين يحكي لي بشكل متواصل حتى أنني بالكاد لم أكن أسمع " شنودة " بوضوح ... غير أنني إجتهدت أن أسمع الاثنين معا ، خاصة عندما سمعت بكاء " صفية " قد هدأ بالخارج وبقيت النهنهة خفيضة حانية ...

انفجر سعال " ياسين " كما القنبلة وهو خارج من الحمام فعرف الجميع أنه قادم ربما سمعه الذين في القاهرة ... و أجفل منه الصبي المسكين وهو ينظف الرخامة فتوقف مشدوها ، بينما نظر له " ياسين " بعينيه الغليظتين ...

- باقول ايه ياد ... عندك شاي تموين ...
- عندي شاي العروسة
- اعملي كباية كشري وحطلي عليها شوية بن سايب ونص فص لمون و٤ معالق سكر ...
- تمام يا باشا
- حتفتكر ولا أقولهملك تاني ؟
- عيب ياباشا ... كباية كشري ، عليها شوية بن سايب ونص فص لمون و٤ معالق سكر ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- ناصح ياد ... ونزلي شيشة معسل قص ... وحميها ...
- تؤمر ياباشا ...
- بس ف السريع وحياة والدك ...

اقترب " ياسين " حتى جلس على مائدة مجاورة وهو لا ينظر لنا ولا يعطي لنا بالا فظننا أنه لا يرانا ، فتطلعنا له في تساؤل لنعرف هل سنبقى أم نتحرك ، فنحن نحمل ميتا ينتظر الدفن ... "مش رايحين القناطر" كما قال ... نظر لنا بعينيه نصف المغلقتين ثم نطق ما بين النطق والغمغمة ...

- حبة كده بس اعمل تليفون مهم ... حد يشوف الولية اللي برة لو تحب تطفح ولا تشرب ولا تفك زنقة هي والبت اللي معاها ...

نظر لي " شنودة " ، "روح انت يا شيخ . .هي ممكن تتكسف مني ..."

رأيتها من على البعد مطرقة مهمومة وقد سكت نحيبها وهدأت همهمتها ... اقتربت من شباك السيارة ...

- يا ست " صفية " ... مش عايزة أجيبلك حاجة ولا محتاجة من جوة
- تسلم يا سي محسن ... احنا لسة قدامنا كتير عقبال ما نتحرك ؟
- ييجي عشر دقايق . . " ياسين " بيشرب شاي ...
- لا يا خويا تسلم وتعيش مش عايزة حاجة
- طيب " فاطمة " مش حابة تخش الحمام ولا حاجة ...
- لما نخش مصر بأة ... ما اطمنش ع الحمامات هنا ...
- اللي يريحك يا ست البنات ... عموما لو احتجتي حاجة أنا تحت أمرك ...
- تسلم يا سي محسن . . شايلاك لعوزة ياخويا ...

التفتت لأعود أدراجي ، لكنني رغما عني التفتت لها ونظرت لها بتركيز من الشباك ... . ثم قلت لها ...

- يا ست " صفية " ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- نعم يا خويا ...
- يا ست البنات ... يمين باللي خلق الخلق ، همك حينقضي وحيزول وحييجيلك بعد العسر ده ألف يسر ... وربنا حيسخرلك عبيده يمشولك حوايجك من غير ما تدري ولا تعرفي
- (ابتسمت في عذوبة طاغية) ... هو قالك كده ؟ ...
- (ابتسمت في حنان لم أتعمد اخفاءه) ... ربك حنين ع الغلابة يا ست " صفية " ...
- الله يرضى عليك يا سي محسن ويطري على قلبك ... ماتقلقش عليا يا خويا ... ياما هم وانزاح ... روح انت شوف حالك وأنا مستنياكم ماتقلقش عليا ...

انصرفت عائدا ولا أدري ما يحدث لي ... كيف خرجت هذه الكلمات مني ، وكيف واجهت خوفا ورهبة كتمتها عشرون عاما ، والسؤال الأهم ، مالذي تبغيه يابن نصيبين ؟؟؟؟؟ ...

كان " ياسين " يتحدث في التليفون المزعوم وهو ممسكا بشيشته جالسا واضعا ساقا على ساق ، بينما كان " شنودة " هو الآخر ممسكا بتليفونه يتحدث فيه بخفوت وحنان ، بشكل يفضح تماما شكل محدثه وحتى موضوع حديثهما ، رغما عني تسمعت لحديث " ياسين " الذي كنت بدون سبب قلقا بشدة من نتائجه ... فالأمر حتى اللحظة لم يكن مفهوما ... لماذا تغيرت الخطط فجأة ؟ ، ومن هم أخوال " ياسين " في الصعيد والست أم " ياسين " أساسا من الشرقية ؟ ثم لماذا طلبوا أن يدفن الشيخ عندهم وهم لا يعرفونه ولم يروه منذ عشرات السنين ؟ ... ثم . . " ياسين " ذلك العاق المنحرف المشوه ، منذ أن كان يتحدث عن ابيه وشيخنا المبجل بلفظ "جتة" ... لماذا فجأة صار مهتما بأن يصطحبه برحلة يأخذها البشر في ساعات طوال ليتم دفنه في أرض بعيدة سفرها شاق ورحلتها صعبة ؟؟؟ ... كل هذا جعلني متوجسا قلقا مما يدور في رأس هذا الشيطان الخبيث ... ولم تخيب الأيام ظني .

عدت إلى مقعدي فاستقبلني " شنودة " بابتسامة واسعة فعلمت أن مراده قد تحقق ، فأكد ظني حينما عاجلني ...

- خلاص يا شيخ ، حتقابلنا على كورنيش شبرا بعد ساعة ... وأنا حارتب كل حاجة ، أنا بس عايزك تبص عليها ، يا تقولي فيها أمل يا مفيش ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- الأمل في الله موجود يا " شنودة " ... ما تحملش هم يابني ...

كان " ياسين " لا يحتاج لأن أتسمع كلامه فقد كان صوته الأجش المبحوح يملأ المكان وقد ضاعف منه اتساع المكان وعلو سقفه ... .

- يا حاج " نصحي " مش حينفع ...
- .....
- ... الوقت كده حيخرج مننا واللي معانا مش حيستحمل ...
- .....
- طب أعمل انا ايه دلوقتي ... . احنا لسة الساعة اتناشر ... يعني حاقعد من ١٢ لخمسة أعمل ايه بالداهية اللي معايا دي ؟ ...
- ..... .
- ماينفعش يا عمنا ...
- .....
- ياحاج أمرك على عيني وعلى راسي بس انت بس قوللي اعمل ايه ...
- ....
- ياحاج بس ...
- .....
- يا حاج .....
- .....
- طيب طيب ... خلاص ماتزعلش يا حاج انا حارتبها
- .....
- يا حاج " نصحي " خلاص ما تاخدش على صدرك كده دانت لسة عريس جديد ...
- .....

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- انت مش عارف " ياسين " يعني ... خلاص زي ماحنا بس وحياة غلاوة ولادك ياحاج ماتأخرني بعد خمسة . .
- اللي تشوفه يا حاج ...
- .....
- تسلم وتعيش يا حاج خيرك سابق ... .
- .....
- الله وبركاته ... .

أغلق " ياسين " التليفون وقد بدا أنه في هم عميق ، ولولا ما يبدو على قرينه من غلظة وشيطنة لعرفت منه كل شيء ، لكنه كما بدا لي من هيئته ومظهره لا يصلح للمحادثة أساسا... لو استطعت لأريته ل" شنودة " الذي كان يسأل عن كفرة الشياطين . . هذا الذي يصاحب " ياسين " كان شيطانا مسلطا عليه من قبل رب العالمين ، تصديق ماوعد الله به عباده البائسين حين قال "وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ" [1]... فهذا هو الذي ركب " ياسين " وأدلي رجليه من فوق كتفيه وأمسك برأسه يوجهها كيف يشاء ...

خرج " ياسين " من اطراقته وهو يسحب أنفاسا من الشيشة بينما صوتها يكركر في المكان ... نظر له كلينا أنا و" شنودة " في استفهام وتساؤل ... سرعان ما قطعه بصوته المتحشرج ... "بتبصوا على ايه يا جدع انت وهو ، ماتتلهوا في اللي انتوا فيه ولا خدولكوا حاجة اطفحوها لحد ما نخلص ونتحرك ... دي حاجة وسخة أوي ..."

حولنا أبصارنا عنه وقد بدا عليه الغضب الشديد من المكالمة التي أنهاها توا مع ذلك الحاج " نصحي " ... فسكتنا ، ومضيت أتسمع حال " صفية " بالخارج وقد صحت " فاطمة " وبدأت تلاعب أمها ملاعبة الأطفال لأهليهم وقت الهم ، وكأنهم هم الأمهات والآباء وليس العكس ... حتى فجأة قام " ياسين " فدفع ثمن ما طلب وغادر مسرعا بدون كلمة ، فقمنا وراءه

[1] الزخرف ٣٦

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

مجذوبين بقوة اندفاعه ... فركبنا السيارة ... وما أن جلس " شنودة " خلف المقود حتى قال له " ياسين " بصوت مكتوم مكظوم ...

" ياسين " – لف وارجع ...

نظر له " شنودة " بنظرة ملؤها الإحباط وخيبة الأمل

" شنودة " – نعم ؟؟؟

" ياسين " – ايه انطرشت ... باقول لف وارجع ...

" شنودة " – ارجع فين ؟

" صفية " – يرجع فين يا سي " ياسين "

" ياسين " – وانتي مال أهلك ... سكتك حتوصليها اتخرسي بأة انتي دلوقتي ... ارجع حنخش بنها ... فيه حد حييجي معانا ...

هنالك صمت الجميع ، وسلطت " صفية " نظراتها على " ياسين " بمنتهى الغضب والاحتقار ، ثم صمتت وعادت فركنت رأسها على الشباك ... بينما تحرك " شنودة " في اتجاه العودة ، وأخذت مكاني المعتاد بجوار الخشبة ، بينما ظل موكب الحراس موجودا محيطا بالركب كما كان ، سوى تغير وحيد طرأ عليه ولم أفهمه ... كان بينهم ملكا عظيما هائلا ... أعرفه تماما ، رأيته مرة واحدة فقط هذا الصباح لكني أبدا لم أنس شكله ... ملك الموت .

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

هدية

كنت قد سمعت من شيخي أن ملك الموت يحوم بالمكان قبيل أن يقبض روحاً فيه ، فلربما يحس الحي قبل موته بسويعات فيرتدع ويتوب ، وغالبا ما يستشعر الأحياء ذلك لكنهم لا يفهمون أو على الأقل الطالحين منهم ، أما الصالحين فهم يستشعرون ذلك وكأنهم يرونه بعين البصيرة من قبل البصر ، فترى البعض منهم يقول "حاسس إن ساعتي قربت" . . أو يوصي ... أو يرتب أحواله وأموره لأولاده قبل سويعات من وفاته ... إنها حالة عجيبة لم أفهم قط كيف يعرض عنها ويتناساها البشر وهم يرونها في اليوم مرات ومرات ، ويعلمون علم اليقين أنهم قادمون عليها ، ولو حق أن نسمى الموت بغير اسمه لسميته "الحقيقة المنسية" ...

دخلت التوربيني مدينة بنها ومضت تسير في شوارعها البسيطة بين البيوت الأسمنتية ذات الطابق الواحد أو الطابقين ، وقد أنهى الناس صلاة الجمعة وانتشروا في الشوارع يبتغون من فضل رب العالمين فالبائعون قد أخذتهم لحظات التجلي فمضى كل منهم ينادي على سلعته بصوته الجهوري المنغم ، بينما التف حوله المشترون أو المتفرجون أو حتى السارقون الذي يختلسون أي حبة فاكهة في غفلة من البائع المتجلي ... كان يبدو على " ياسين " أنه يعلم المنطقة جيدا ويعلم طريقه فيها ، فقد كان يدل " شنودة " بدقة وتتابع محددين ، بينما بدا على " شنودة " الإحباط واليأس الشديدين خاصة وأنه لم يستطع أن يبلغ حبيبته بتأخير الموعد خوفا من " ياسين " ربما أو أملا في أن نعود أدراجنا مرة أخرى ، " صفية " انشغلت ب" فاطمة " ، تطعمها وتهدئ مخاوفها ببعض القصص والحكايات ، بينما ظللت جالسا في مقعدي متكرمشا بجوار سيدي ومولاي متابعا الموكب المهيب الذي صار أكثر مهابة ورهبة وقد رافقهم ذلك الملك العظيم المقرب من رب العالمين وقد غطى بحجمه وأجنحته رحب السماء فما عدت أرى منها سوى أشعة ضوء متفلتة ، ولو يرى البشر ما أراه لسقطوا جميعا صرعى بدون أن يكلف الملك المبجل نفسه عناء قبض أرواحهم .

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

ظللنا بين انعطافات عديدة يمنة ويسرة ، وخرجنا من الطرق العامرة لندخل على طريق أكثر وعورة بين زروع وحقول متسعة ، ثم انعطفنا مرة أخرى على طريق ترابية تخترق حقول الذرة التي امتدت لمسافة طويلة وبعدها غابة كثيفة من النخيل تلقي الرهبة في القلوب ... ولم يكن من الصعب أن أميز تسارع أنفاس " صفية " ولونها الشاحب الذي قارب الإصفرار ... هممت بأن أمد يدي اليها لأربت عليها فأطمئنها لكنني أحجمت وأدركت أنني على عتبة التفلت . . فالتزمت الصمت والإطراق والذكر الذي لم يفارقني منذ ارتحلنا من قريتنا التي صارت بعيدة . من خلف النخيل الممتد ظهر فجأة بيت من طابقين جدرانه من الطوب الأحمر وله باب حديد أمامه سلم أسمنتي عريض من ثلاث درجات ، بالدور الأول شرفة صغيرة عليها حبل غسيل منشور عليه ملابس أطفال ، أمام البيت هناك سيارة نصف نقل قديمة وقد خرج محركها جانبا بينما أمام البيت وقفت إمرأة حاملة طفل على كتفها وقد نظرت لنا بتعجب وتمعن ...

توقف " شنودة " أمام البيت بناءا على أمر " ياسين " الحازم ، ونزل " ياسين " من السيارة فتوجه للمرأة وحدثها بلهجة آمرة كلمات معدودة فدخلت للبيت و دخل هو وراءها ، لم أكلف نفسي بسماع ما قاله للمرأة ، فقد كان همي الأول طمأنة " صفية " التي بدا عليها التوتر والخوف العظيم فاحتضنت ابنتها بعنف حتى كادت تعتصرها ... فلم أملك نفسي إلا وهمست لها ...

– ست " صفية " ... بالراحة على " فاطمة "

نظرت لي بعينين زائغتين ووجه واجم فقابلتها بابتسامة فلم تردها بمثلها ...

– ست " صفية " ... قلتلك ماتقلقيش ... أنا معاكي ...

هنا علا صوت " شنودة " من الأمام وكأنه يعاونني

– كلنا معاكي يا ست الكل ... ماتقلقيش ...تلاقي بس سي " ياسين " عدى يجيب حاجة نسيها ولا حيجيب حد ييجي معانا ...

بدأت تهدأ رويدا رويدا فظهر طيف ابتسامة رقيق ... وتمتمت ...

– ربنا يستر على عبيده ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

تلطيفا للجو ... مضيت أحادث " فاطمة " ...

– ازيك يا " فاطمة " ... ؟

وكأن " فاطمة " انتقل لها وجوم أمها فبدت هي الأخرى زائغة العينين ونظرت لي في حيرة ... فعاجلتها أمها بحزم

– ردي يا بت على سيدنا الشيخ مش بيكلمك ...

نظرت لها " فاطمة " ثم لي ثم تمتمت في خفوت ...

– كويسة الحمد لله

– عاملة ايه يا " فاطمة " في القرآن . . حفظتي لحد فين ...

– لحد العلق ...

– طب تعرفي تقوليهالي ...

– لأ ماعرفش

قالتها ببراءة شديدة ... فابتسمتُ رغما عني ، بينما وجمت " صفية " وقالت في غضب يعكس توترها الحاد

– يابنت المقروضة ... يابت أنا مش لسة محفظهالك من أسبوع ...

– يامة مانا ناسياها دلوقتي ...

تدخلت سريعا قبل أن يزداد غضب الأم ...

– طب حافظة أيه تاني وفاكراه ...

نظرت لي مرة أخرى ... ثم حولت نظرها للخشبة بجواري ثم انطلقت سائلة وكأنها تطلق شغفها الذي ظل محبوسا منذ ركبت السيارة ويبغى الهروب ...

– هو ايه اللي جنبك ده ؟

– ده ؟

– أيوة ؟

ضمتها أمها بعنف وهي تؤدبها ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

– اخرسي يابت داهية تخرسك ... ماتسأليش في اللي مالكيش فيه ...

نظرت ل" فاطمة " فأشفقت عليها ، وعرفت لماذا تصل النساء في الكبر لمرحلة تقبل الإهانة من رجالهن بدون تعليق ، لأنهن غالبا ما يعشن على هذا التقبل منذ الصغر من كل من حولهن ومسئول عنهن ... ابتسمت ل" فاطمة " ... وحدثتها بنبرة تعمدت فيها اللطف والحنان وفي الحقيقة كنت أتمنى أن يصل هذا الدفء لأمها ...

– عايزة تعرفي ده ايه يا أحلى البنات ؟

– أيوة يا عم محسن ...

نظرت لي " صفية " بعتب وتحفز فرددتها بابتسامة طمأنة ...

– ماتقلقيش ياست " صفية " ، " فاطمة " ذكية ، أنا علمتها على ايدي وعارفها ... تعالي يا " فاطمة "

عبرت " فاطمة " بخفة ظهر الكنبة حتى صارت بجواري وهي مثبتة رأسها على الخشبة بجواري ...

– شوفي بأة يا ست البنات ... انتي بتقولي خدتي سورة العلق ...

– ايوة بس مش فاكراها ...

– طيب قوليها معايا ... إقرأ ...

– آه . . افتكرت ... إقرأ بسم ربك الذي خلق ... خلق الانسان من علق ... اقرأ ... . آآآآآ

– هاااا إقرأ وربك الأكرم

– آه ... إقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم . . علم الإنسان ... ما لن يعلم

– ما لم يعلم ...

– آه . . ما لم يعلم ... علم الانسان ما لم يعلم ... كلا إن الإنسان ... ليـ... ليـ

– ليطغى ...

– آه ليطغى ... أن رآه إستغنى ... إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ...

– أيوة قولي تاني كده

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ...
- يعني ايه بأة ...
- يعني إحنا كلاتنا حنرجع لربنا ...
- اسم الله عليكي يا ست البنات ... حنرجعله ازاي ...
- حنموت ...

هنا شهقت " صفية " لكن بابتسامة وتعجب ، فنظرت لها " فاطمة " فابتسمت من فزعة أمها وأحست بزهو أنها تعلم ما لم تكن أمها تظن أنها تعلم ... ضحكت " فاطمة " ... فمصمصت " صفية " شفتيها بابتسامة أنستها توتر ما نحن فيه . . تابعت " فاطمة " ابهارا لأمها ، و" شنودة " كذلك الذي لمحته ينظر لها من مرآته الأمامية وهو يبتسم ...

" فاطمة " – حنموت زي جاموسة عم إسماعيل لما ماتت ... وحنروح عند ربنا حيدينا حلويات وعصير مانجة ...

ضحك الجميع ، فتابعت معها ...

- أهه بأة سيدنا الشيخ أبو العلا ... مات
- وراح عند ربنا ؟
- ماحنا رايحين بأة ندفنه عشان يروح عند ربنا
- يعني ايه ندفنه ؟
- يعني نخليه ينام في أوضة تحت الأرض ... ونمشي ... ربنا يبعت الملايكة بأة تاخده وتروح بيه على بيته الجديد ...
- وتجيبله الحلويات ؟
- وعصير المانجة ...
- طب وهو بأة جوة الصندوق ده ؟
- أيوة
- طب عايزة أشوفه ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

هنالك تدخلت " صفية " منهية هذا الحديث الباسم وأخذتها بقوة ... "خلاص بأة يابنت اللمضة ... سألتي وجاوبك على سؤالك ... اتهدي بأة شوية ... ياسي محسن مش حتخلص منها ... " . . ابتسمت ولم أمانع فقد أدي الحديث الغرض منه وعلا الابتسام جو المكان فتخلص الجميع من توترهم الحاد ...

دقائق قليلة وأتى " ياسين " ... نظر لنا من نافذة السيارة ...

- ياللا يا باشوات ... حنريح هنا حبتين ...

عاجله " شنودة " سريعا ...

- حنريح ؟ ... ليه إحنا مش حنكمل ؟

- شوية ... أصل الجماعة اللي احنا رايحينلهم لسة مستنيين نسايبهم يجولهم ويتجمعوا عندهم فعايزينا نتأخر عليهم حبة ...

- ايوة بس يا سي " ياسين " أنا عندي مصالح في البلد لازم أرجع بكرة قبل الضهر

- مصالح ايه يا " شنودة " إنت حتعملي نفسك عضو مجلشعب ... مانت صايع لا شغلة ولا مشغلة ... الغي مواعيدك وحاديلك اليومية بتاعتك كلها النهاردة وبكرة

- مش القصد يا سي " ياسين " . . بس انت عارف أهل البلد بيبقوا مرتبين معايا ومعتمدين عليا

- يتحرقوا بجاز وسخ ، اتهد بأة كلمهم وقولهم أي حاجة ... إحنا حنقعد هنا للعصر

هنا نطقت " صفية " في فزع ... "للعصر " ...

" ياسين " - آه للعصر ... خدي بتك وخشي اقعدي مع الجاموسة المتلقحة جوة دي ... لو عايزين تخشوا الحمام ولا تاكلوا لقمة زفرة ...

" صفية " - بس يا سي " ياسين " احنا ماتفقناش على كده

" ياسين " - وهو احنا اتفقنا على حاجة أصلا ... إنتي طبيتي على دماغي زي القضا المستعجل ، خلاص اللي يجري علينا يجري عليكي ...

" صفية " - طب انا حاستنى ف العربية

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

" ياسين " – ماحدش حيتلقح ف العربية ، ماتخلوش الناس تتفرج علينا ... كله حيخش جوة . . أنا جهزت للرجالة أوضة الجلوس ، و انت حتخشي مع " زكية " جوة في أوضتها لحد ما نتحرك ... ياللا ... ماتوجعوش دماغ أمي ...

تحرك الجميع في النهاية فسبقتنا " صفية " وابنتها بصحبة تلك المرأة الذي سماها " ياسين " " زكية " ... ثم تحركت أنا و" شنودة " خلف " ياسين " لغرفة صغيرة بها مجموعة من الوسائد الاسفنجية ملقاة على الأرض ، وبالمنتصف حصيرة من الخوص تتوسطها مائدة خشبية (طبلية) مشققة وفي أحد جوانب الحجرة وضعت شيشة وملحقاتها ... كان هذا هو ما يراه البشر ، أما ما لا يرونه فقد كانت الغرفة مكتظة ببني جنسي ... كان العديد منهم منتشرين بالغرفة الصغيرة ، منهم من هو جالس على الوسائد ومنهم من هو ملتصق بالحائط زاحفا للسقف وكانوا جميعا من الشياطين الكفرة ، لذا لم يكن بيني وبينهم أي لمحة من ود أو تواصل ، فقط تبادل كل منا مرأى الآخر ثم مضى كل منا في حاجته ، بينما بالخارج كان الموكب قد ازداد عدده بشكل عجيب للغاية ... وما أذهلني أنني رأيت أولئك الملائكة حاملي الحرير الأبيض الذي حملوا روح الشيخ معهم ، وتساءلت في نفسي ، من في المكان يستحق هذه المكانة ، عندها ارتعدت ، فأول من جاء لذهني كانت " فاطمة " ... فهممت أن أقوم قآخذها بجواري لكنني تساءلت في سري ، ممن ومم سأحميها ؟ ... فاستسلمت لقضاء الله راجيا أن يخيب رب العالمين ظني .

دقائق ودخلت تلك المرأة " زكية " حاملة طفلها بيد وباليد الأخرى حاملة أكواب الشاي على صينية صغيرة وقد بدا على عينيها آثار البكاء الشديد ، وضعت الشاى وانصرفت ، كان قرينها هزيلا ضعيفا ، عرفت منه بالكاد أن المرأة هي زوجة " ياسين " بالسر ، وأنه تزوجها ليضع يده على الأرض والبيت مستغلا اسم ابيه الشيخ أبو العلا ومحبة الناس له ، وهي من بيت طيب فقبلوه كرامة لأبيه ، لكنها وهي الكريمة بنت الأكرمين لاقت علي يديه الأمرين ورزقت منه بابنة جميلة فلولا تلك الإبنة لكان ذلك الشيطان قد تخلص منها من قديم ... قطعني صوت " شنودة " ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- ايه الاخبار يا شيخ محسن ...
- علمي علمك يا " شنودة " ...
- تفتكر حنلحق نشوف كوثر ...؟
- كوثر ؟ !! . . بنت خالتك
- ايوة يا عمنا ...
- والله يابني أنا تحت أمرك بس نتحرك ... .
- أنا كلمتها . . قصدي كلمت أختها أجلت معاها ساعتين زمن ... بس اياكش سي " ياسين " يديلنا الفرصة ...
- كله بأمر الله ... قول يارب وهي تفرج ...
- يااارب ...

كنت قد بدأ يساورني القلق على " صفية " ، وأين هي ؟ وأين أخذها ذلك ال "" ياسين "" ... حتى سمعت صوت " فاطمة " تنادي علي ، وهي تفتح الباب وكانت تقف وراءها تلك المرأة التي سماها " ياسين " "" زكية "" ، . . دخلت " فاطمة " مسرعة ...

- عم محسن ... إنت هنا ؟
- ايوة يا ست البنات أؤمري ...
- أمي بتقولك خد دول شيلهم معاك عقبال ما تقيللها حبة ...

أعطتني " صفية " لفافة قماشية صغيرة بداخلها خاتمين وسلسلة وغويشة دهب رفيعة ... ابتسمت وأعجبني ذكاء " صفية " ، لقد أدركت قلقي عليها فأرسلت لي " فاطمة " بابتسامتها العذبة ورسالتها الذكية ، كذلك أحبت أن تضع مصوغاتها البسيطة والمتواضعة في أمان وهي كما يبدو كل ما تعتمد عليه في حياتها القادمة والمجهولة ... أحببت أن أرد عليها الرسالـــــــــــــــة بأخرى تطمئنها ...

- ماشي يا ست البنات ، وقولي لأمك عمك محسن هنا مش حينام ، لو احتاجت ايتها حاجة ، تنده بس أو تبعتك ليا ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

– ماشي يا عم محسن ... خللي بالك ... السلسلة دي بتاعتي ...

ابتسمت لها ...

– ف عينيا السلسلة وصاحبة السلسلة يا ست البنات ...

قبل خروجها ... رأيت المرأة "" زكية "" تقترب مني في غموض وتهمس ...

– هو حضرتك تبقى الشيخ عبد المحسن

– ايوة يا ست

– يا نهار اسود ... ؟؟؟

– نعم ؟؟؟

– لا مؤاخذة يا سيدنا ... لا مؤاخذة ... بعد إذنكم ...

انصرفت المرأة في عجل تاركة كل منا في ذهول شديد ... وقد أصبت برعدة من فزعتها وشدة خوفها ... وخشيت أن تكون " زكية " مثل "سيدي أبو العلا" تستطيع معرفة الجن واستشعارهم ... ولربما يفتضح سري لدى " صفية " فينتهي أملي معها . . ذلك الأمل الذي لا أعرف كنهه أصلا ...والأسوأ أن ذلك سينهي رحلتي في عالم الإنس وأنا بعد لم أصل لما أبتغيه ... سلمت أمري لرب العالمين ، وعدت لورد ذكري ...

"سبوح قدوس رب الملائكة والروح ...

سبوح قدوس رب الملائكة والروح ... "

قطعني صوت " شنودة " بعدما أفاق من ذهوله ...

– انت تعرف الست دي يا شيخ

– ولا عمري شفتها . . إنتي مش شايفها بتسألني على اسمي

– أمال مالها دي ...

– والله ماعرف يابني ... يمكن بتشبه عليا ولا حاجة

– شكل السفرية دي شؤم باين عليها

– العبرة بالخواتيم يابني . . يا عالم أولها من آخرها ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

– ربنا يستر

فجأة جاءنا صوت قوي من الخارج ، صوت شجار حاد بين " ياسين " وتلك المرأة التي كانت منذ لحيظات مستضعفة وخائفة فإذا بها وحش هصور يصرخ في " ياسين " بقوة ويعلو صوت بكاءها وصراخها بكلام لم يكن مفهوما ولا مسموعا ، صراخا أيقظ حتى معشر الجن النائم بسقف الحجرة ، تردد كل منا في الخروج من الغرفة ، لكن لم يطل ترددنا ، فقد فتح الباب فجأة وإذا ب" ياسين " يدخل وقد احمر وجهه غضبا وشمر عن ساعده حاملا سيفا قصيرا يسمونه في عرف البلطجية "سنجة" وبدا عليه عينيه شرر عجيب ...

" ياسين " – انت يا شيخ ... انت تعرف الولية دي منين ؟

– نعم ؟؟؟ ولية مين ؟

– ولية مين ؟ إنت حتعملي مجذوب ؟ ... تعرف الولية دي منين ؟

– ولية مين يا سي " ياسين " ؟ وهو أنا عمري طلعت برة البلد أصلا ؟

– قبل ما تشرفنا ...

– أنا جيتلكم وأنا عندي ١٧ سنة ... وبقالي عشرين سنة ماخطيتش برة البلد ولا أعرف حتى بيطلعوا منها ازاي

هنا نطق " شنودة " ببراءة

– يا سي " ياسين " ، شيخ محسن عايش معانا بقاله أكتر من عشرين سنة ماشفناش عليه العيبة ...

– اخرس انت يا بو عضمة زرقا ... انطق يا شيخ لحسن وربنا أجيب أجلك ...

نظرت من خلفه فرأيت المرأة وقد لطخ وجهها الدم تبكي وتنهنه ووقفت بجوارها " صفية " محتضناها بينما وقفت " فاطمة " بين ساقيها ترتعد ، فأدركت أن هذه الموقف لابد أن ينتهي سريعا حتى لا يسوء أكثر من ذلك ...

وقفت في ثبات ، وتقدمت خطوات ل" ياسين " ووقفت أمامه ونظرت في عينيه بقوة أردت أن أبث فيهما الرعب ثم تحدثت بصوت أعلم أنه سيتخلل أعظمه...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

– " ياسين " ... أنا من عشرين سنة ومولايا اللي خلقني وخلقك ... واللي يتولاه جبار السموات والأرض مايرهبوش حد من عبيده ، دخل سلاحك ولم لسانك فيه نسوان وعيال ف الدار ...

هم " ياسين " أن يرد بكلمة نابية من قاموسه القبيح ، فهمست لقرينه مهدداً بأنني سأستدعي الحرس فورا لاحراقه ، فهلع وبينما كان " ياسين " يهم برفع سنجته على رأسي منعه قرينه بضمة من ساقيه على رقبته فكاد يختنق ، ففزع " ياسين " بشدة وأمسك برقبته حتى جحظت عيناه ، لم يدر ما يحدث له إلا والسلاح يسقط من بين يديه وهو ينظر لي بنظرة ملؤها الرعب والفزع كان القرين أكثر حذقا من صاحبه ، وخاصة وهو يسمعني أتعوذ بتعوذ سيدي أبي الحسن الشاذلي المأثور من رسول رب العالمين ، ولمح الحراس يطوفون بالمكان ، فمنع صاحبه من أن يهلكه المهالك ...

تراجع " ياسين " خطوات ، فانتهزتها " زكية " فرصة سانحة فأسرعت إلى وأحنت على يدي تقبلها فسحبتها سريعا وأنا لا أفهم من أمرها شيئا ، حتى بدأت تتحدث باكية :

– أبوس ايدك يا سيدنا ، أبويا جوة بين الحياة والموت ، ومش عايز غير إنه يشوفك

– يشوفني ؟؟؟ . . وهو يعرفني منين ؟

هنا نطق " ياسين " محاولا اصطناع القوة وهو مازال مشدوها مما حدث له ...

– أيواااا جاوبيه بأة يا بنت جابر ...

لم تلتفت له المرأة ، أكملت كلامها قائلة ...

– يمين بالله يا سيدنا ماعرف ... أنا أبويا بقاله أسبوعين يا ولداه بيطلع في الروح وبياخد النفس بالعافية ، جبتله شربة مية ، قلتله يابا حتروح وتسيبني لمين ؟ . . قاللي يابنتي ما تخافيش ، مش حامشي غير لما أقابل الشيخ عبد المحسن ...

ذهلت ، وذهل معي الجميع ، ... يالهول ما يحدث ، أعجزني الفهم ، وتداخلت في خاطري كل الأشياء من مخاوف وتساؤلات وتعجبات ... لكن توسلات " زكية " ودموعها كانا كفيلين بمنع أي كلمة تخرج من أي شخص ... تحدثت لها مصطنعا الهدوء وبداخلي بحر هائج ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

– فين أبوكي يا ست " زكية " . .

– في الأوضة يا سيدنا ، تعالى ...

"بسم الله تبارك الله" ...

تمتمت بها وأنا أدخل غير متمالكا لنفسي ...

"بسم الله تبارك الله" ...

كانت الغرفة بحر من نور يسبح في فلكه كون عجيب ، من جميل مخلوقات الله يدورون في دوائر متصاعدة لسقف الحجرة ... ألوان وأشكال ورائحة عطرة تغمر غرفة صغيرة يتوسطها سرير صغير يجلس عليه جسد متهالك هزيل بيد أنه يحمل روحا أعظم عند الله من جبال الأرض يبدو منه وهج نوراني عجيب يطوف حوله كل هذا الكون البديع ، تعجبت في نفسي كيف ينظر البشر لهذا الجسد المتهالك ولا يرون ما حوله من عظمة وجلال ، فاجأني هذا المشهد حتى أنهم من حولي أوقفهم ذهولي وأنا أتأمل في فراغ الغرفة وهم لا يرون ما أراه ، فزفر " ياسين " من همه وتمتم ببعض كلمات نابيات يسب بها الدراويش أمثالي وغادر مسرعا ، بينما وقفت " صفية " و" زكية " وتحتهما " فاطمة " ، واستحى " شنودة " فتراجع ... دخلت بعدما خلعت نعلي رهبة وإكراما للمكان ومن فيه ... وجلست على ركبتي بجوار الفراش وتمتمت في خفوت

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

فتح الرجل عينيه ونظر لي في صفاء طاغي ، وتمتم مبتسما في وهن ...

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ... إزيك يا شيخ عبد المحسن ...

– طيب مطيب بلقاء الطيبين وخادما ومأمورا للصالحين سيدي الكريم ...

– أعزك الله أيها العبد الصالح ... .

– ربنا يجعلني على قدر ما تقول ... فما بيني وبين ما أنت فيه زمن لا أعلم ما أنا فاعل فيه ... فهنيئا لك سيدي نعمة الوصول ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- وصل أبو العلا ...؟
- وصل فجر اليوم
- سبقني وهو السَبَّاق دوما ...
- في ذلك فليتنافس المتنافسون . .
- أكيد بتسأل أنا عارفك ازاي ؟
- سيدي علمني ما أسألشي في اللي مايفيدنيش ...
- آآآه ... أبو العلا ... عشان كده سبق ...
- أؤمرني سيدي أنا لك من الطائعين ...
- إحنا سبنالك هدية ... أراد ربك إني ما أرحلش غير لما توصلك
- أنت و"سيدي أبو العلا" ... ؟
- نعم ... خذها فهي مني ومنه
- سمعا وطاعة سيدي ، حبا وكرامة ...
- طولت عليا يا عبد المحسن لحد ما وصلت ... واللقا شوقة
- كنت مع "سيدي أبو العلا" باحضره للرحيل ...
- آه يا بو العلا ... كنت دوما بتبدينا على نفسك إلا في لقا المحبوب ...
- أتعبتم من بعدكم سيدي ...
- استعن بالله على المسير ، فهو أول الطريق ومنتهاه وهو المعين على شقاءه ومبتلاه ...
- فأوصني سيدي ...
- لاتنس غربتك عن هذا العالم ...

هممت على يده أقبلها وتمتمت له في خفوت ... "أرسل سلامي إلى شيخي و"سيدي أبو العلا" ... رد علي في وهن وهو ينظر لي برفق ... "يا مسكين ... وهل نذكر في حضرة المحبوب أنفسنا ... مازال قلبك يحتاج للتخلية ... خذ ال" هدية " وأكمل المسير ، مازال الطريق بعد طويل ..."

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

أغمض الشيخ عينيه ، فتلاشت جدران الغرفة واقترب الملك العظيم فاستل الروح الطاهرة كما الذهب المسال ، ليمضي الموكب المهيب حاملا قلب الصديق لصديقه والحبيب لمحبوبه ...

نظرت من خلفي فإذا بأعين " صفية " و" زكية " و تحتهما " فاطمة " تحدق في ، لا أستطيع الإجابة على أيا من تساؤلاتهن ، لمحت الدموع تنسال من عيني " زكية " فاقتربت منها وتمتمت لها في خفوت ،

"يابنة الأكرمين ، أبيكي يعد الآن لعرسه الكريم ، ولا يصلح أن نبكي في الأفراح ، وإلا كان ذلك من قبيل قلة الإدراك ..."

ردت علي " صفية " وهي تحتضن رفيقتها في هدوء ...

"يا شيخ محسن ، بالراحة ع البنية ، المصيبة صعبة ... " ...

"يا ست " صفية " ... المصيبة مصيبتنا إحنا ... اللي عدى نجا ، الدور والباقي ع اللي مش عارف حيعدي على فين ... اللهم أجرنا في مصيبتنا واخلفنا خير منها ...

يا ست " زكية " يبدو عليكي الصلاح ، احفظى اباكي في الحزن كما حفظتيه في الفرح لعل رب العالمين يجمع بينكما في الصالحين ... " ...

كان " ياسين " في الغرفة الصغيرة التي امتلأت بالدخان من جراء الشيشة التي يدخنها في غضب وقهر ... ذهبت اليه فأبلغته بارتقاء حماه ... فمضى يضرب كفا بكف ...

" ياسين " – ده ايه الليلة السودة دي ... أبويا وحماي في ليلة واحدة ... هو عزرائيل ماوراهوش غيري النهاردة ولا ايه ...

ارتعدت وهو ينطق اسم الملك الكريم بهذا القدر من التهاون والاستهزاء فتراجعت حتى خرجت من البيت مسرعا فوقفت على باب السيارة وأنا أتمتم

... "رحماك يارب العالمين ... رحماك يا ملك الكون ومليكه ..." . .

لحقني " شنودة " ...

– خير يا عم محسن ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

– خير يا" شنودة " ... خير يابني إن شاء الله كله خير

خرجت " صفية " من الدار في هدوء وسكينة

– شيخ محسن ... حنعمل ايه في الراجل اللي جوة ده ...

قبل أن أرد عليها ... فوجئنا بصوت " زكية " يأتي هادئا رزينا من على باب الدار الحديدية ...

– ماتشغلوش بالكم ... أبويا كلم اعمامي وقالهم يجوله بعد الصلاة ومعاهم الكفن والتربي

" صفية " – يالهوي . . لهو كان عارف ياختي ؟

" زكية " – مين يعرف ومين مايعرفش يا ست " صفية "

خطر على بالي تلك ال" هدية " التي تركها لي الشيخان ولم يخبرني بها أحد ... فسألت الست " زكية " ...

– ست " زكية " ... الشيخ ماسابليش معاكي أي أمانة أو أيتها حاجة

– أبدا والله يا شيخ محسن ...

– طب ماقالكيش أي حاجة ؟

– ماقاليش ...

– طيب ربنا المستعان ...

فجأة خرج " ياسين " من الدار وهو يدفع " زكية " جانبا ... ويزعق ...

" ياسين " – ياللا منك ليه ليه لها ... سيبوكو من القرافة اللي احنا فيها دي وياللا حنتحرك

" صفية " – نتحرك ؟؟؟ ... حتسيب مراتك وبنتك في ساعة زي دي

" ياسين " – دهدي ... مانا معايا ميت مش عارف أعمل فيه إيه ... أخرتها حاشتغل تربي ، ماقالتلك عمها جاي حيرتب كل حاجة ... أشوف حالي أنا بأة ... الجتة حتعفن معانا كده ... ياللا يا " شنودة " إحنا حنتساير ... .

نظرنا جميعا ل" زكية " ونحن نقف أقل منها درجتين ، فبدت في وقفتها العالية شامخة عظيمة أفلح من رباها ... ردت علينا النظرة بابتسامة ... وصوت رخيم هادئ ... "ماتقلقوش ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

أنا مش لوحدي ... ولا ايه يا شيخ عبد المحسن ... " نظرت متعجبا محاولا فهم معنى ما تقول ... غير أنني لم أطيل كثيرا فأيا كان ما تعنيه فهي على حق ...

قطعني صوت " ياسين " الأجش وهو يركب التوربيني ...

"خشي يا بت شوفي حالك وزي ما اتفقنا ... النهاردة أرجع بالليل تعملي اللي اتفقنا عليه ..."

" زكية " – ازاي بس يا " ياسين " ... ؟

" ياسين " – زي الناس ... لما يجيلك عمك تلمي عزالك وبتك وتروحوا تقعدوا عنده ... الدار لازماني ...

نظرنا له جميعا وقد هالنا هذا القبح البشري المجسد في إنسان ... وأدرك ذلك فأحب أن يمعن في عناده أمامنا فأضاف ...

"وماتنسيش تاخدي حاجات البت "" هدية "" معاكي ... مش عايز حاجة عيال ف البيت " ...

أجفلت أمام الجملة فلم أتمالك نفسي أن سألته ...

"" هدية " ؟؟!!! . . بنتك اسمها " هدية " ؟!!!" ...

نظر لي بعينيه المغلقتين ...

"آه ايه لازماك ؟ ... " ...

قبل أن أرد عليه عاجلته " زكية " ...

"" هدية " فيها طهر أبوك وحب أبويا ... ماتستاهلش تشوفها ولا تطولها طول عمرك ... "

قالتها وانصرفت داخلة وقد اهتز صوتها ، بينما أدركت بوضوح أنني حتما سأعود لهذا البيت بآخر هذا اليوم ...

نظرت لي " صفية " وقالت لي بنظرة ملؤها الحنان ...

"حملك تقل يا شيخ عبمحسن ... "

تمتمت ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

"اللي وضع الحمل ... يزود القدرة" .

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

القمريات

أعادني مشهد الشيخ "جابر" لليلة من ليالي "سيدي أبو العلا " وكان يسميها "القمريات" ، وهي تلك الليالي التي يصبح فيها القمر بدرا في السماء ، ليلة منتصف الشهر الهجري ، وعندها يستضيف الشيخ مجموعة من أحباءه من قبل صلاة العصر ، فيجلسون سويا فوق سطح البيت البعيد عن القرية يتسامرون في الحياة وما فيها ، ثم بعد صلاة العصر ينتقلون لقراءة القرآن والمدارسة والفهم العميق لأحد الكتب الشرعية ...

قبيل الغروب تبدأ مرحلة "التخلية" وهي الذكر الهادئ وتمثل الانتقال الأولي من حال الدنيا لحال الآخرة وهي بداية منحنى الصعود الرزين لملكوت السماء حين يؤذن لصلاة المغرب فيصلون جماعة ثم يفطرون حيث جميعهم صواماً ...

ثم يصلون العشاء ، لتبدأ مرحلة "التحلية" حيث مرحلة الصعود للملأ الأعلى فيبدأون الذكر الخالص الذي يلهمه رب العالمين لأفئدتهم المتوهجة ، وحينها يبدع كل منهم في ذكر ما أحس به يوما ما أو سمعه أو أُلْهِمُه إلهاما ، ثم تبدأ المرحلة الأخيرة بعد منتصف الليل ، وهي لقيا الحبيب ... حيث ينفرد كل منهم في جانب ليناجي ربه وحيدا ... ويبدأها "سيدي أبو العلا" بنداءه المعتاد ... "ياللا يا مشايخ . . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا[1] ... " ... فيقومون جميعا بهدوء فينتقي كل منهم بقعة خالية تفصلها مسافة عن أقرب صاحب له فيتكوم على نفسه ، وما هي إلا لحظات حتى يعلو صوت النحيب من ناحية أو نهنهة صامتة من ناحية أخرى ...

لكن والحق يقال ما سمعت ذلك يوما من "سيدي أبو العلا" ، بل كنت دوما أسمعه يتمتم بهدوء وتبسم وكأنه يدندن شعرا أو يلقي بقصيدة حب ... حتى يأتي الفجر ، فيجتمعون على صلاة الفجر وعلى وجوههم آثار القمرية من اجهاد وتعب ودموع خطت طريقها على الخدود السمراء المتشققة ، فصارت كما الماء التي فاضت لتسقي أعماق أرض عطشي ...

---

[1] سورة مريم

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

وبعد الفجر يعودون تدريجيا لحال العبادة الأرضية بالذكر الهادئ مرة أخري ، حتى الشروق ، ويصلون الضحى ، ثم يفطرون إفطارا عظيما هائلا وكأنهم يكافأون أنفسهم على ما فعلوا ، وكان "سيدي أبو العلا" وهو يأخذ الفطور العظيم من الست أم "ياسين " ليقدمه لهم على الطبلية المباركة (كما يسميها) ... كان يقول ..."بسم الله يا مشايخ ... حلاوة الوصول ..." ويقصد حلاوة الوصول للحياة ولأرض الدنيا...

وعلى الجانب الآخر ومن زاوية أخرى في هذه الليلة أيضا ، كانت القصة تبدأ منذ لحظة اجتماع الملائكة العظيم في صلاة العصر ، لا يغادرون مثلما يفعلون كل يوم ، يومها تبقى الملائكة في الدنيا لتطوف في الطرقات ، أما على سطوح أبو العلا ، فكان يجتمع كبارهم فقط ، وكان يذهلني كل ليلة عظم الملائكة الذين يحضرون هذا اللقاء ، حجما وهيئة ومقاما ، وقد قضيت طوال العشرون عاما ، كل شهر في كل قمرية ، لم أشهد ملكا منهم مرتين ، كانوا دوما يتغيرون ، ... وكانوا يقضون الوقت مراقبين منصتين مستمعين حتى يأتي وقت الإفطار ، كان الجمع يكثر ، وتأتي الملائكة السابحات الحاملات دعوات الصالحين فيتزاحمون حول إفطار المشايخ متلقين دعواتهم في كل لحظة ليصعدوا بها وينزل آخرون ، في مواكب نورانية هائلة متتالية ومتتابعة كقطرات مطر ذهبي

ثم تأتي صلاة الليل ، لأشهد عجب العجاب ، تبدأ أو ما تبدأ بنور هائل يغمر المكان ، حتى أنني كثيرا ما كنت أعجز عن الرؤيا ، فكانت الدنيا تستحيل بياضا لا أري فيه إلا هالات زرقاء هلامية مكان وقوف المشايخ ، ثم ما تلبث هذه الهالات الزرقاء أن تتصاعد في السماء كل بقدر مختلف ... كانت هالة "سيدي أبو العلا" أعلاهم ... حتى تصير تلك الهالات في السماء التي تحولت بيضاء كأنها نجوم زرقاء تطفو بنعومة ما بين السماء والأرض ... نظل كذلك حتى يطلع الفجر ، فتعود تلك الهالات الزرقاء لأماكنها في أجساد مشايخها ، لينتهي ذلك الاحتفال مع نهاية الفطور العظيم لتصعد عظام المـــــــــــــــــلائكة ويبقى معنا السيارون والحراس والطوافون يوميا ... .

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

أما أنا فكنت أجلس دوما بجانبي الخاص ، كنت أقوم على خدمتهم وإجابة طلباتهم ، ثم ترقبهم في صعودهم وهبوطهم حتى إذا جاء الفجر كنت أحضر لهم ماء الوضوء وبعض من شراب خفيف ثم أحضر الفطور مع أم " ياسين " حتى ينتهي الحفل ، وكثيرا ما كنت أراني مرتقيا لدرجات النقاء وعذوبة التواصل . . لكني كان دوما هناك ما يربطني بالسماء الدنيا فلم أستطع يوما الترقي لما يرتقون اليه ، لعله بعض مما شرف الله به الإنس ، أو لعله كما كان يقول "سيدي أبو العلا" "القلب هو مطية الروح ، فلا تثقله فتقعد بك " ... هل كان تعلقي ب" صفية " هو ما أثقلني ؟ ...

من هذه القمريات ، جاءت على ذهني تحديدا واحدة لا أنساها ، كان "سيدي أبو العلا" يومها مهموما حائرا من بعد لقاء رجل غريب لم أعرفه مر علينا بعد فجر هذا اليوم ، دخل مع "سيدي أبو العلا" غرفته ولم يخرج منها إلا قبيل صلاة الظهر ، وكنت قد اعتدت أن إذا منعني "سيدي أبو العلا" من لقاء شخص ما ، كنت أمتنع تماما عن الاقتراب منه حتى لا يتواصل قرينه معي فأكون قد عصيت أمر شيخي وسيدي ... فلم أر من ملامح هذا الغريب شيئا ولم أعرف عنه شيئا ...

كل ما حدث يومها أن "سيدي أبو العلا" دخل غرفته من بعد صلاة الظهر ونام قليلوته ليصحو فيأمر أم ياسين أن تصنع فطورا "أرديحي" ... سواءا كان إفطار الصائم أو فطور صباح القمرية ، عارضته السيدة الطيبة كثيرا لكنه كان حازما في تلك الليلة ، حتي ظننا أنه قد يلغي القمرية أو ربما سيكون بها ما يسوءه ... لكنه قبيل العصر فعل مثلما يفعل كل قمرية ، ذهب للطريق السريع لينتظر رفقاء الدرب ، وخلال سويعات وقبل الآذان كانوا قد اجتمعوا جميعا فوق سطح البيت ، بيد أن تسامرهم هذا اليوم كان غريبا ، كنت أسمعه وأنا أجلس على البعد بجوار الباب المفضى لقلب البيت من السطح ...

في هذه القمرية جلس المشايخ جلستهم المعتادة بوسط السطح فوق الحصر المفروشة وقد نظفتها جيدا ورششت حولها ماء الورد ووضعت بعضا من الأواني الفخارية وقد نبتت بداخلها الفل والياسمين وبعض من النعناع لزوم الشاي الساخن ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

جلس الجميع واجمون وقد هالهم وجوم الشيخ وبدا لهم ثقل همه ... حتى نطق الشيخ أخيرا ...

أبو العلا – قولولي يامشايخ ... شر وراه خير ... نقبله طمعا بخيره أم نرفضه ونتقي شره

شيخ 1– وهل ليك الاختيار في قبوله أو رفضه

أبو العلا – لينا الخيار دايما ...

شيخ 2 – ما الشر إلا وجه من وجوه الخير

أبو العلا – فإن كان الشر ضررا وعدوانا

شيخ 3 – الضرر حرمه ربنا علينا ، فكيف نقبله

أبو العلا – فإن كان خيره رحمة وهدى ؟

شيخ 4 – كيف يكون ضررا ينتهي برحمة وهدى ؟

أبو العلا – وهل كان ذبح الخليل لابنه إلا ضررا آخره رحمة وهدى ... وهل كان ابتلاء المصطفى بالطائف إلا ضررا آخره رحمة وهدى ؟ ...

شيخ 5 – فكيف هُدَاه مقرونا بِشَرِّه ؟

أبو العلا – هداه نورٌ عظيم يسري في نفوس عدة ، وشره ... قهر وظلم يمس أحبة أقرب للقلب من شريان الدم

شيخ 6 – حيرتنا معك يا شيخنا ...

أبو العلا – هذه متاهة ليس لها إلا توفيق من رب العالمين ، لذا ستكون قمرية الليلة يا سادة مختلفة عن كل مرة ... سنخلع الدنيا خلعا ، ونتبرأ منها كبراءة يوسف من غواية إمرأة العزيز ، ولنشحذ الهمم فاليوم سيكون ارتقاؤنا صعبا

شيخ 1 – نعم الرحلة ، لنعم المنتهى ... ومتى كان المرتقى هينا يا شيخ المرتقين ...

أبو العلا – من كان في قلبه مثقال ذرة من دنيا ، فليقعد عن الصعود ... فذرة الدنيا على حمل الروح ثقيل ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

شيخ 2 – توكل يا شيخ ، فوالله ما ارتقينا إلا وهو يحملنا ، وما عدنا إلا رحمة منه من صعوبة الارتقاء ... فهو الرافع وهو الخافض فما علونا إلا بِقَدَرِه وما هبطنا إلا بِقَدَرِه"

هنا تمتم أبو العلا فيما لم يسمعه أحد إلاي ...

"وهو الحبيب الذي لا يُفَارَقُ إلا بِقَدَرِه" .

مضت الليلة قاسية في أولها ، فكانت المذاكرة حول مجلد الزهد في كتاب "إحياء علوم الدين " للعلامة أبي حامد الغزالي ، ثم أتبعه "سيدي أبو العلا" بدراسة كتاب "التوهم" للعلامة الحارث المحاسبي وكانت كلها كتب تنزع الإنسي نزعا من دنياه ، وتعجبت كثيرا مما سمعته منهم مما درسوه وقرأوه ، وأشد ما أعجبني عندما قرأ "سيدي أبو العلا" قول المحاسبي ...

"المحبة... هي ميلك إلي المحبوب بكليتك ،

ثم إيثار[1] له علي نفسك وزوجك ومالك ،

ثم موافقتك له سراَ وجهراَ ،

ثم علمك بتقصيرك في حبه" ...

قالها "سيدي أبو العلا" ، ثم تنهد قائلا ...

"والله لقد كذبنا في حبه ... ولو صدقنا لما طابت لنا نفس في البعد عنه " ... عندها دمعت عيناه في خفوت وأُغلق عليه صوته فقام ليتوضأ لصلاة المغرب ...

بعد منتصف الليل ، انطفأت الأنوار من على البعد وخلد أهل القرية لمنامهم ، وصفت السماء ، وسبغ نور القمر ظلامها فبدا كعين سماوية تنظر لأولئك المتوهجين بحب لا يطال ولا ينتهي ... جلسوا متكومين على أنفسهم ... متفرقين ليسوا متحلقين ... كلهم قد توجه للقبلة بصدره . . بعضهم كان وجهه مكفيا على صدره ... وبعضهم كان وجهه متأملا في الأفق ... وكان "سيدي أبو العلا" آخرهم في الخلف وقد ارتكز بظهره على جدار غرفتي الأسمنتية بآخر

[1] تفضيل

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

السطح و احتضن ركبتيه بعضديه ... ونظر للسماء وعيناه تدمع في صمت ... فقمت أتسمع نجواهم ...

شيخ 1 ...

" يا من مسست بيدك طينا فجعلته بشرا ...

ثم أبدعت له الخلق فجعلت له نورا وحُسناً ...

ثم نفخت فيه من روحك القدسية ذات الجلال

فأعطيته من ذاتك سرا ...

ثم مهدت له الأرض فجعلتها مهدا ...

ثم نشرت له فيها رزقا ...

ثم رحمته ودللته وأضحكته وشفيته وأرضيته

وأجبته وأعطيته بدل الحسنة عشرا ...

ثم تنظر في عيني عبدك كل لحظة

فتجد فيهما طغيانا وكفرا ...

فسبحانك ... "

شيخ 2 ...

"يامن كان خلف العطايا ،

فأَسَرَتْنَا العطايا ونسينا العاطي ...

يامن يحكم برحمته قبل عدله

فذكرنا الحُكْمَ ونسينا القاضي ...

يامن يعطي بقلب المرض شفاه

فتعافينا ونكرنا الشافي ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

يامن نعيش بظل رحمته

فنفزع ونهرب من هنيئة ظله الوافي ...

أنت أنت الملك الذي عظم ملكوته ...

يتودد لعبده ...

والعبد بمذلته

يجافي[1] ...

فسبحانك ... "

شيخ 3

"يا ملكا متصرفا متلطفا بأقدار البشر ...

يامن في ملكوت السماء تنظر وتنتظر ...

والعبد كبرا يتيه بأرضه

وكأنه يملك ويأمر لا يؤتمر ...

ويظن ما به من قوة ...

هي قدرة ...

فيطغى حين يعلو ويقتدر ...

وأنت القوي

تقيم كونا بين الكاف والنون ...

وترحم وتغفر ما لا يغتفر ...

سبحانك ..."

وتعاقب المشايخ في وجدهم بمحبوبهم الناظر لهم من عليائه ، وبدت الهالات الزرقاء في التشكل والارتقاء ... وابيضت السماء ... كل ذاك وشيخي أبو العلا مازال متمتما ... ولم تبدو هالته الزرقاء بعد ... فتعجبت ... أبقلبه هذا الثقل الذي يربطه بدنيا الفانين فلم تطلق أسره

[1] من الجفاء ... أي يتنكر ويبتعد

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

بعد ... أم أنه يحمل هما أشاح بروحه عن محبوبه ... ياويل ذاك الشيخ المسكين بعدما يرى ضعفه قد أبعده عن محبوبه حين ارتقى الآخرون ... بدأ يساورني القلق عليه ، فلم أتمالك نفسي أن أقترب منه شيئا فشيئا لأتسمع ما يدندن به خوفا عليه وقلقا مما سيحاسب عليه نفسه حين تنقشع غيوم الهم ... وكان في العادة يحس بي حين أقترب فينهرني بنظرة حازمة من طرف عينه فأنسحب من فوري ... لكن هذه المرة لم يحس بي ولم ينتبه ... فعرفت أنه في غمرة الارتقاء ... فسكنت ... وسمعت طرفا من دندنته ...

" يا حبيبا ما انكشفت حجبه فيهدأ شوق حبيبه برؤياه ...

ولا جفا فانطفأت من القلب رغبة لقياه ...

ينادونك ملكا قادرا ...

وأناديك حبيبا حانيا ...

ينادونك واهبا عاطيا ...

وأناديك قريبا مناجيا ...

ينادونك قاضيا أو شافيا ...

وأناديك خليلا صافيا ...

يارب ...

بلغة اللسان نطقت والقلب لساه من قديم أخرس ...

هلك من البعد والتوهة ...

والعوزة للمسة رحمتك لا بتهدى ولا تخلص ...

طب ليه ...

طب ليه نفخت فيا من روحك وسبتني من البعد باتلظى[1] ...

وسبت نفختك جوايا تحن لك في الثانية واللحظة ...

---

[1] أحترق بعنف

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

وسلطت عليها جسد خسيس ماسك بعشب الأرض ومِتَبِّت ...

لا هو مسك في حاجة تثبته ...

ولا العشب من جوه صدرنا نَبِّت ...

حكمت عليا بإختبار الاختيار ...

والاختيار كان من قديم الأزل ...

لو تدلني ...

لو تدل روحك اللي نفختها جوايا بدل ما تِزِلّ في بير بعيد ...

الخير اللي حيتوسع للعبيد

ولا الشر اللي حيطول الأحبة ... ؟ ...

ولو كان القلب اتخلى ليك ما كان في القلب للبشر حبة ...

لكن لساه يا أصل الرحمة مش خالي ...

متكتف ف سابع أرض وحلمه ف السما عالي

مربوط باللي ربط خليلك ابراهيم لما اتأمر بذبح ضناه ...

و موسى لما اتوجس بخوفه قدام الخيول والجاه ...

وعبدك المصطفى لما بكى فقدان ضناه ...

وقال القلب يحزن ...

بس اللسان ... إياه

باحلف بيك وانت اللي بيتحلف بيك مفيش غيرك . .

ورحمتك وعزتك ما نفسي أكون في كل الكون مع غيرك ...

خلصني من زحمة ظنوني

ومسني برحمتك عشان ماليش غيرك ... .

مسني برحمتك ماليش غيرك ... .

مسني برحمتك ماليش غيرك ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

سبحانك "

ظل يتمتم بها "سيدي أبو العلا" وهو متقطع الصوت تأخذه العبرة[1] حتى أشفقت عليه . . فاقتربت منه أربت[2] عليه ، ففوجئت بجسده بارد كالثلج ، لا ينطق ولا يرد ... فزعت ... هززته بلطف فسقط جانبا ... اقتربت منه ... تسمعت قلبه ، فإذا به ينبض بهدوء تام ... لكنه كان جسدا مرتخيا ليس به أي علامة لحياة ... تصفحت في وجه السماء التي مازالت بيضاء ، لمحت الهالات الزرقاء للمشايخ ولم ألمح هالة "سيدي أبو العلا" ... كانت تلك ربما المرة الوحيدة التي مرقت فيها من صورتي الإنسية ، فرجعت لصورتي الأصلية وطرت بأقطار السماء أجوبها بحثا عن سيدي المفقودة روحه ... تخطيت السحب والأقمار حتى وصلت لأبواب السماء الدنيا ... لمحت الكثير من الهالات الزرقاء على مد الأفق فتمتمت في نفسي ...

"مريدينك كثر يارب العالمين ... كلهم آتوك فهل تمن عليهم بلحظة تجَلِّي ؟" ...

عندها فوجئت بأحد الحراس وقد وقف يعترضني بعنفوانه وجبروته الواضح ... تسمرت أمامه ناظرا له بعين الخوف والرهبة ، ثم تمالكت نفسي فمنذ أن علمني شيخي أنني الآن في فريقهم وأحبتهم ، فصرت أحبهم وأتودد إليهم ، إلا أنهم كانوا كما خلقهم رب العالمين ، غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ... فهممت أن أتخطاه ذلك الحارس العظيم لأكمل صعودي للسماء الدنيا ، فأوقفني بجناحه الصلب ولكزني فأطاح بي كما ذرة الغبار أمام هب الريح ، حتى رأيت أنوار الأرض ثانية ... فتمالكت نفسي بصعوبة وعاودت الصعود ... ففوجئت به أمامي ... وقال لي بلغة لا يفهمها إلا معشر الجن ...

الحارس – "أيها الناري . . لم تُمنح الإذن بالمرور " ...

أنا – سيدي ... أبحث عن شيخي أبو العلا ...

أجابني بحزم ...

الحارس – "روح بيد خالقها يفعل بها ما شاء " ...

---

[1] الدموع الخفيفة

[2] أطبطب

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

أجبته بلهفة ...

أنا – "هل ارتقى ؟" ...

رد بنفس الحزم ...

الحارس – "هو حيثما يريده مولاه " ...

أنا – "أجبني يا أيها الملك الكريم ، فإني وإياك من عباده أجمعين وما أردت شرا ولا رُمْتُ[1] محرما . . ما أردت إلا المعرفة " ...

أجابني بالحزم ذاته ...

الحارس – "قد عرفت أمر الملك الجبار وقضاؤه عليكم أهل النار ... فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا[2] ..." ...

كدت أيأس ، فتراجعت حزينا . . ثم تمتمت وانا التفت اليه بضعف ويأس ...

أنا – "هل هو بخير ؟" ...

فرد علي الحارس بعد صمت تعجبت منه ... بدا وكأن يأتيه أمرا ...

الحارس – "من كان مرغوبه الرحمن فلا يخشى عليه المرحومين ... " ...

تطلعت له بسعادة وعدت راضيا لمكاني فوق سطح البيت بجوار الجسد المثلج والمسجى فوق الأرض ومازالت الهالات الزرقاء سابحة في الأجواء ، فعرفت أن سيدي قد ارتقى مرتقاً صعباً ... لا يرتقيه إلا المقربين والأولياء الصالحين ... وظللت أساءل نفسي من وقتها ... ما الذي يفعله المخلوق لينال هذا الشرف من الخالق ...

فجأة أفاق ... وقام من رقدته ببطء وهو يتأمل ما حوله باستغراب وكأنه ما ظن أنه سيعود ... ظل يتطلع فيما حوله حتى تلاقت عينانا ، فنظرت له بتساؤل ، رد عليها بنظرة حزينة باكية ... وتمتم ...

---

[1] رام الشيء ، أي تطلع إلى الشئ وأراده بقوه

[2] سورة الجن آية ٩

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

" ... هو رجعني تاني ؟ ... مازال الشوق حكما بالفناء ... ولا حول ولا قوة إلا بالله ... ننتظر لأجل مسمى ... ننتظر لأجل مسمى ... "

وقام معتدلا فمسح عيناه وجبهته ، وهو يردد ما قاله "ننتظر لأجل مسمى" ... ووقف يصلي ...

لم أتجاسر يوما أن أسأله ما الذي حدث يومها ولا أين ذهب ... لكنه يوما ما بعدها بليالٍ عدة اقترب مني واحتضنني لأول مرة بحنان لم أر مثله ولم أفهمه يوما ... و قال ... "كنت عايز تيجي ورايا يابن نصيبين ؟ ... يابني لا احنا اللي بنروح ولا احنا اللي بنيجي ... لساك يا مسكين مش عارف تشوف ... "

في هذه القمرية ، وبعد صلاة الفجر بدا الشيخ راضيا متزنا مستقرا و قد قال للمشايخ ، "استقر الرأي يا مشايخ ..."

شيخ ١ – على ايه يا أبو العلا إن شاء الله ؟

أبو العلا– نختار الضرر القريب لخير بعيد إن شاء الله

شيخ ٢ – طب علمنا يا شيخ ... ليه اخترت ؟

أبو العلا – عشان الخير صاعد لرب الكون ، والضرر حيمس أحبة تعلق بيهم قلوبنا ... يعني الخير لله والضرر لأنفسنا ... فإذا صدقنا التوجه لله ... نتخلى مما في قلوبنا ... لنتحلى لما بأرواحنا ..."

عندها التفت الي قائلا ... "تعال يا عبمحسن" ... قمت اليه مسرعا ظانا منه أنه يريد ماءا أو شايا ... فأجلسني بجواره ووضع ذراعه على كتفي ... "أنا حاشوف الضرر ... بس مش حالحق الخير حاكون سبقت ، لكنك حتشوفه ...لما تشوفه أو تلقاه ... احمله بإذن ربك وكمل المشوار ... وخللي بالك ... لا الضرر بيخلص ولا الخير بينتهي ... "

تذكرت هذه اللحظة تحديدا وأنا ألمح بيت " ياسين " يبتعد ، وقد وقفت الست " زكية " في الشرفة حاملة الخير بيديها ... أقصد "" هدية "" ... فكانت هي الخير ، وكانت " زكية " هي

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

القريب الذي تضرر ، وكان " ياسين " ضررها ، أما الشيخ جابر أبو " زكية " فكان هو المجهول الذي زارنا يومها ... فأطلعهما الله على ما سيكون من حال " زكية " و" ياسين " ، فقبل الشيخان ما سيكون من حال ولديهما ... واحد سيكون ظالما وواحدة ستكون مظلومة وما أقساه من خيار ، في سبيل خير سيتسع للناس ... وهي " هدية " ... فكيف ستكون " هدية " هذا الخير ؟ ... هل قدر الله لها مصيرا غير ما ندركه نحن المخلوقين ؟ ...

سبحانك .

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

كشف المستور

على أبواب القاهرة بدأ الزحام ، بشر يتراصون خلف البشر ، ومن فوقهم عوالم تكتظ فوق عوالم ومخلوقات لايعلم آخرها سوى رب العالمين ، وأحداث تدور برحاها تطحن داخلها آمال وأحلام الكثيرين ، هذا الزحام الذي أصابني بالدوار من حيث أرى مالايرون ... حتى معشرنا نحن الجن ، كانوا لا يقلون جنونا عن أهل الإنس ، ليسوا أكثر ربما ، لكن كان المشهد كذلك عبارة عن دوامات متطايرة في الفضاء ، وكأنها أسراب من النحل تطير في حلقات فوق حقل من الزهور ...

كنت مازلت جالسا في مكاني متقرفصا بجوار سيدي وشيخي أتأمل في الطريق تارة ، وفي الموكب المرافق من الحراس الذين لا يراهم أحد سواي تارة أخرى ، بينما جلست أمامي " صفية " شاخصة بعينيها للأفق المتزاحم وبرأسها تدور كل حوارات الرحلة من قلق المستقبل إلى حزن الماضي ، كان حديثها صاخبا متداخلا ، غير أن قرينها أبلغني أنها ذكرت إسمي بذهنها عدة مرات فامتنعت عن سؤاله ، احتراما لها .

جلست بجوارها " فاطمة " ممسكة بعروس بلاستيكية مفككة الأذرع والأقدام لا أعلم من العبقري الذي علم الأطفال أن يقطعوا عرائسهم لأشلاء متلاعبين بكل جزء على حدة ، ... يا لعجب الإنس ...!!!

مضت " فاطمة " تلاعب نفسها كعادة الأطفال حين يستشعرون أنهم غير مرغوب في حديثهم أو تداخلاتهم ، بينما استلقى " ياسين " بالأمام على مقعده ملقيا رأسه للوراء وقد علا شخيره حتى ظننت أن "سيدي أبو العلا" في موته قد بدأ يتأذي منه ... غير أنني لاحظت أنه منذ ركبنا السيارة وهو يرمقني بنظرات حادة ، أظنها من جراء الموقف الحاد الذي أضطررت فيه لمواجهته بدون قصد أو غرض سوى أن أحفظ ل" صفية " و" زكية " و" فاطمة " بعضا من أمان وثقة يتزودون بها في هذه الرحلة القدرية .

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

كان " شنودة " هو الوحيد الذي بدا عليه القلق التام ، فقد كان عنيفا في قيادته ، مضى يسب ويلعن من يقف في طريقه وكأنه يريد أن يلحق بآخر أنفاسه في الحياة ... حتى أنه كاد أن يصطدم مرتين ، مرة بسيارة ميكروباص ومرة بموتوسيكل عابر بعنف ، حتى أنني تلفتت لأرى إن كان ملك الموت حاضرا خوفا على سائق الموتوسيكل ... فمضيت أتمتم بما علمنيه شيخي من أذكار الأمن والسلامة !!

وبرغم أنني لا يضرني ما يضر البشر ، إلا أنني مع الوقت بدأت أتعامل مع الأشياء مثلما يتعامل البشر ، بدأ الأمر بالإدعاء حتى لا أفضح بينهم ، ثم مع التكرار تحول الأمر لحقيقة فصرت أخاف من الكلاب ، وأخشى الوقوع من المرتفعات ، وأتعوذ من الشيطان وعين الحاسد وفي الضحكات العالية أتمتم "خير اللهم اجعله خير " رغم جهلي التام بما يقلق الإنس من كثرة الضحك ... وفي الواقع كان هذا الضحك هو أجمل ما عرفته فيهم ... هو أروع ما أبدع الله في الخلق ... أيا ماكان من قبح الإنسي ... أيا كان مما يكنه له المحيطون من كره وحنق ... أيا كان ما يتملك الإنسان من غضب أو يأس ... ما أن ترتسم الإبتسامة على وجه أحدهم حتى يتحول القبح لجمال مبدع ، والكره لِودّ ولطف ، والغضب واليأس لحالة انشراح يتسع معها الصدر ليحوي السموات السبع ... تملك البسمة مفتاح الكون ولا أعلم بعد لماذا لم يعتد البشر الابتسام؟...

فرملة عنيفة جعلتنا جميعا نلتصق بظهور المقاعد الأمامية حتى أن " فاطمة " سقطت من على المقعد ، واندفع التابوت الخشبي فاصطدم بمقعد " ياسين " من الخلف نافذا لعظام ظهره فصرخ وهو يسب " شنودة " والتوربيني والشارع والناس والكون ... نزل " شنودة " مسرعا ليفحص شيئا لا نراه أمام السيارة ، ثم عاد وهو ساخطا غاضبا ...

" شنودة " – حجر ابن حرام ضرب طرمبة الزيت من تحت ...

" ياسين " – يعني ايه ؟

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

" شنودة " – والله ياسي " ياسين " ماعرف ... أنا شفت قدامي دشمة ييجي طن ولا حجارة هرم خوفو ... حاولت أتفاداها كان جنبي توكتوك . . اترميت على الحجرة عديت من فوقيها يادوب عديت نصها وبوزها من ورا قام خابط في طرمبة الزيت غرقت الدنيا ...

" ياسين " – إنت حتحكيلي حواديت بروح أمك ... اترزي على كرسيك واتحرك ونبقي نشوفها بعدين

" شنودة " – ياسي " ياسين " لو اتحركت عشرة متر الموتور حيقفش

" ياسين " – والحل ايه يابو عضمة زرقا ...

" شنودة " – يعني أنا أعرف واحد هنا بتاع لحام ، يلحم العربية من تحت ونزود زيت وربنا يسهل ونتحرك

" ياسين " – وده ياخدله أد إيه ؟

" شنودة " – ييجي ساعة زمن بالكتير حضرتك والست " صفية " تريحوا في أيتها حتة ، وأنا حاروح بس الشيخ محسن بس يبقى معايا عشان الخشبة اللي معانا

نظر " ياسين " بطمع ل" صفية " التي سارعت بالتحدث ...

" صفية " – أنا حانزل عند الجامع أخش الدورة وأصلي الضهر والعصر ، وكمان عشان بطة

نظر لها " ياسين " بحنق وغيظ ، وتمتم

" ياسين " – بلاها . . كنت حاغديكي غدوة ملوكي بدل سدة النفس اللي عملتهولنا بنت جابر . . بس شكلك مالكيش ف الطيب نصيب

" صفية " – يدوم يا سي " ياسين " ... خيرك سابق ...

بعد جدل غير طويل نزل " ياسين " فجلس على قهوة ما ، بينما دخلت "صفية" و " فاطمة " لزاوية صغيرة متواضعة . وانطلقت التوربيني حاملة جرحها الزيتي نازفا ، أو هكذا ظننت فما أن ابتعدنا مسافة أمتار قليلة حتى أطلق " شنودة " ضحكة صاخبة ...

" شنودة " – إيه رأيك في الاشتغالة دي يا شيخ محسن ...؟

– اشتغالة ؟

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- طبعا ... يا عم الشيخ انت صدقت ... والله إنت راجل طيب ...
- يابني أنا ماتعوتش أكدب حد ... اللي بيقولوه الناس صدق لحد ما يبان العكس ...
- ماينفعش كده يا شيخ ... يعني واحد زي " ياسين " ده ينفع يقول صدق ف حياته ...
- يابني ماحنا مش حنشق قلوب الخلق ... ماهو لو عايز يخدعك عمرك ما تعرف الصدق م الكذب ...
- آه بس نحرص
- ولو حرصت ... يعني هو " ياسين " مع حرصه ده عرف إنت صادق ولا كداب؟ ... ولا انت تعرف هو واخدنا وواخد الشيخ على فين ، ولا حد يعرف الست " صفية " رايحة فين ... يابني ريح دماغك ...فيه حاجات تانية أهم تفكر فيها
- أهم إيه بس يا شيخ ... وهو أنا عارف أفكر ... موضوع كوثر ده متربن عقلي جايب له بارومة ...
- المقدر مكتوب وكله بحكمته
- طب ياللاه ... خلاص وصلنا ...
- وصلنا فين ؟
- بيت خالتي ... هي قاعدة عندها . .
- يابني بس مش كنت تقوللي ... لا اله إلا الله ...
- محمد رسول الله ، ... ياللا يا شيخنا ... والمسيح الحي لاحلي بؤك لو الموضوع ده اتحل على ايدك ...

نظرت من علي البعد ، فوجدت بيتا قديما من أربعة أدوار في شارع ضيق مكتظ بكل أنواع ما يسير على عجلات ... من أصحاب العجلتين والثلاث والأربع ... كان البيت يبدو حديثا لكنه غير معتنى به ... ملتصقا عن يمينه ويساره ببيوت أخرى ، مدخله ضيق ، به باب حديد مصمت ذو قفل ضخم ... على الباب الحديد ملصقات قديمة مقطوعة أطرافها ... دخلنا من

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

الباب الحديد ، نزلنا درجة صغيرة ، ثم سرنا بضعة خطوات في ساحة ضيقة يسمونها بير السلم ، لنصل لسلم ضيق ملتف ... عندها توقف " شنودة " والتف لي قائلا ... :

شنودة – لامؤاخذة يامولانا ... كنت عايز أقولك على حاجة ...

أنا – خير يابني ...

– أصل يعني كوثر ماتعرفش إنك جاي معايا ...

– يا خبر أبيض !!! ... طب ليه يابني ماقلتلهاش ؟

– ماهي ماكانتش حترضى ... دي ممكن ترمي نفسها م الشباك ...

قالها فاتحا عيناه فاغرا فاه وكأنه يشاهد أحد أعاجيب مخلوقات رب العالمين ... تمتمت "لاحول ولا قوة إلا بالله ... ربنا يقدرنا على الصعب ..."

كنت وأنا أصعد درجات السلم قد سلمت نفسي وأمري لرب العالمين ، فما كنت أخشاه أن تكون تلك الفتاة ملبوسة بجني كافر ، يُسِرّ لها بسري فانكشف وسط الجميع ...

سلمت أمري لربي وصعدت حتى وصلت لباب الشقة الكائنة في الدور الثالث و كان مكتوبا عليها لافتة نحاسية صغيرة "روفائيل خليل برسوم – محاسب" ... طرق " شنودة " الباب ، ففتحت الباب إمرأة في الخمسينات من العمر ، مرتدية فستانا نصف كم تحت الركبة بقليل بدون مساحيق تجميل ... قصيرة الشعر ... نظرت لي بابتسامة مصطنعة ، ثم أفسحت ل" شنودة " بما بدا أنها تعرف الكثير ... ومضى " شنودة " يعرفنا ...

– خالتي فاتن ... أحب خالاتي وأقربها ليا ...

رحبت السيدة ببشاشة بدأت ترفع من حرج اللحظة قليلا ...

– خش ياواد بلاش بكش ...

" شنودة " – الشيخ عبمحسن ... اللي كلمتك عنه ف التليفون ...

فاتن – إتفضل يا شيخ أهلا بيك ...

أنا – أهلا بيكي يا ست فاتن ... يارب يا ساتر ...

فاتن– ادخل يا شيخ ... ماتقلقش ... البيت ده دخله مشايخ أكتر ما دخله قساوسة ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

نظرت لها بتعجب ، فأجابني " شنودة " ...

" شنودة " – خالتي أصلها بتعمل إكسسوار فساتين الأفراح ... فكل عرايس الحتة بييجولها همة وقرايبهم وأصحابهم ... مسلمين أكتر من مسيحيين ... فالبيت ده عمران دايما

أنا – يعمر بالفرحة يارب دايما

فاتن – تسلم يا شيخ محسن

" شنودة " – عبد المحسن يا خالتي ماتوديناش ف داهية

فاتن – يووه ... ياخي وفيها ايه ... واحنا يعني غلطنا في البخاري ...

ضحكت بصفاء شديد بينما أحس " شنودة " بالحرج ، فأجبتها بنفس صفاءها ...

أنا – قوليلي اللي انتي عايزاه يا ست فاتن ... الأسماء ما بتلزقش . . المهم القلوب ...

فاتن – مش كده برضك يا شيخ ...

لحظات وفتح الباب لتظهر منه فتاتان في عمر العشرينات ... واحدة منهن مرتدية فستان يبدو أنه بيتي ، والأخرى مرتدية بنطلون جينز وبلوزة طويلة كحلية ... لم يكن من الصعب تخمين أنها كوثر التي جاءت لزيارة صديقتها ابنة الست "فاتن" ... خالة " شنودة " ...

" شنودة " – شادية بنت خالتي ... وكوثر ... صاحبتها ... و و ...

فاتن – و ايه يا واد ... وخطيبتك إن شاء الله

ابتسمت شادية بينما ظلت كوثر تحدق فيّ بقوة وبارتياب شديدين ... نطق "شنودة " ملطفا الجو ...

" شنودة " – خدتش بالك يا مولانا من فاتن وشادية دي

فاتن – يييه ... فضحتنا في كل حتة داهية تخيبك

" شنودة " – أنا أصلي جدي كان بيموت في السيما وبيعشق أفلام فاتن حمامة ، وكان نفسه يخلف بنتين ، فاتن وشادية ... بس ربنا رزقه ببنت واحدة وتلات ولاد ... فريد وشكري ونجيب ... وطبعا كلهم على أسماء الممثلين ... لما جت خالتي خلفت حلف عليها بالمسيح الحي لهي مسمية شادية ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

فاتن – خلاص . . فرحت كده ... شغلت دماغ الشيخ بحاجات مالهاش لازمة ...

هنا شهقت كوثر بقوة ... "شيخ !!!" ... ثم تراجعت خطوات حتى التصقت بالحائط وهي ترتعش ...

منذ أن دخلت كوثر وقد لاحظت أن قرينها صامت لا يتكلم ، جامد الملامح ... كان يحدق فيَّ بقوة لكنه يبدو عليه السكون ... ما أن رأي " شنودة " حال كوثر حتى اقترب منها بخفوت وامسكها بكلتا ذراعيها ومضى يتمتم بصوت خافت ...

" شنودة " – ماتخافيش يا حبيبتي ... إن شاء الله مشكلتنا حتتحل ، الشيخ محسن حيعرف يـ ...

قاطعته كوثر بصرخة حادة وازاحته بكلتا ذراعيها وتفلتت منه لتجري مسرعة نحو باب الشقة فأمسكتها فاتن واحتضنتها بكلتا يديها ومضت تهدئ منها وهي قابضة عليها بقبضة قوية ما ظننت أن إمرأة كهذه تملكها ، فبدت الفتاة بين ذراعيها وكأنها غزال بين ذراعي أسد هصور ، فمضت ترتعش وتتشنج وعينيها تغلقان وتفتحان في ارتعاشة عجيبة ... الغريب أنني لم أر حولها أي شيء من أي من مخلوقات الله ... لا جن ولا شيطان ولا حتى ملائكة ... نظرت لقرينها الذي ظل محدقا بي في صمت ... سألته بلغة الجن إن كانت بالفعل هذه الفتاة ملتبس بها أي من جنسنا ... وهو يحدث في بعض الأحيان ، لكنها أحيان نادرة جدا وغالبا ما تكون سحر أسود سلطه مشعوذ كافر والعياذ بالله على أحد البشر واستعان بأحد من قومنا لتنفيذ غرضه الأثيم ... غير ذلك ... لم أر ذلك التلبس الذي يعيش فيه البشر وكأنه من مستلزمات الحياة اليومية ... وهو على ما أعرف يبدو واضحا ، فالجن المتلبس يبدو بارزا من عيني الملبوس ... ملتفا حوله بساقيه واضعا ذيله –عفوا– في مؤخرته وقد عقد ذراعيه فوق صدره ... كوثر لم أر شيئا عليها سوى بعض التشنجات والإرتعاشات ... نظر الي " شنودة " باستنجاد واستغاثة ، و نادتني فاتن ...

"ماتشوفلك صرفة يا شيخ ... لو عليها عفريت مسلم اصرفه اللي يرضى عليك"

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

اقتربت شيئا فشيئا من كوثر ونظرت بعينيها بعمق شديد وكنت حقيقة أنظر بعيني قرينها ... الذي بقي على سكونه ... فنظرت ل" شنودة " وقلت له بحزم "شنودة " ... انزل استنانا تحت ... "

نظر لي متسائلا ... فأعدتها بحزم أشد ...

"انزل تحت ماتقلقش ..."

نظر لخالته الست "فاتن" التي نظرت له برقة وبعذوبة أُمّ طمأنته ، فخرج من البيت متردداً والهاً لاهفاً على حبيبته ...

ما أن خرج ، حتى نظرت لفاتن ثم أشرت إلى كوثر وقلت ...

"قعديها ياست فاتن ... "

في هدوء مفاجئ ، وقبل أن تتحرك "فاتن" ، جلست كوثر من نفسها وبدت إمرأة ناضجة شديدة الثبات شديدة الوثوق بنفسها ... جلست أمامها وتبادلنا نظرات ملؤها التحدي والندية ...

كوثر – إنت مين ؟

أنا – يهمك في ايه ؟

كوثر – جاي تخرج العفريت ؟

أنا – لو موجود يخرج

كوثر – مش حتعرف ...

أنا – صحيح ... معاكي حق فعلاً

هنا شهقت ست فاتن وضربت صدرها بعنف ... وسألتني

"يعني ايه يا شيخ . .مفيش أمل ؟"

أجبتها وعيناي مازالت مثبتتان على كوثر ...

– الأمل موجود يا ست فاتن ، بس الآنسة كوثر تسمح لنا بيه ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

– يعني ايه الكلام ده ... ماتنطقي يا كوثر ...

كوثر – يعني ايه يا شيخ ...

أنا – ليه يا كوثر مش عايزة تقولي ل" شنودة " إنك مش عايزاه ؟

شهقت فاتن مرة أخرى بينما نظرت كوثر لصديقتها الواقفة خلفي وبدت على عينيها دموع تكتمها بحرص وعنف شديدين ، فنطقت فاتن بخوف وهلع ... "ياحبيب خالته ده كان يروح فيها ... دا بيعد القرش فوق القرش لجل ما يتجوزوا ... ليه كده بس يا كوثر ؟ ..."

نظرت لي كوثر بغيظ شديدين ... فقلت لها ...

أنا – كوثر ... اعذريني . . لم أكذب في عمري قط ولم أعلم الكذب ينجي من أي مشكلة مثلما يفعل الصدق ...

كوثر – انت ما تعرفش حاجة ...

هنا ... وفي لحظة مفاجأة ... وجدت قرينها يحدثني بحديث كاد أن يشيب له رأسي الإنسي الصغير ... فنظرتُ لكوثر بعطف شديد ولم أتمالك نفسي أن تمتمت ...

"يااااه يا بنتي . . شايلة كل ده وساكتة" ...

نظرت كوثر لي باندهاش وذهول ، أتبعه تهدج بدأ يظهر عليها وعلى صوتها وكل خلجاتها ، حتى انهارت في بكاء عنيف اندفعت على إثره شادية فاحتضنتها بينما ظلت كوثر تهتز وكأنها مرجل يغلي من داخله ...

بين انهيار كوثر واحتضان شادية ، نظرت لي فاتن بذهول تام وعينين متساءلتين بعنف ... لكنني أدركت ما أوقعت نفسي فيه ، فلو حدثتها بما قاله القرين لكشفت سر كوثر وخالفت عهدي مع الشيخ ، ولو صمتت فسأوقعهم جميعا في دوامة اليأس الذي لا ينتهي ، ولو تحدثت كوثر ، فما ستقوله جدير بأن يصنع حربا لا تنتهي ...

الحقيقة التي لم يعلمها أحد ، أن كوثر كانت على علاقة مع مديرها بالعمل المسلم ، رب الأسرة والذي يسكن في العمارة المقابلة لهم ، لكنها بعد فترة أدركت استحالة الاستمرار ، فابتعدت عنه ، ثم التقت " شنودة " الشاب الشهم الذكي الطموح ، فأحبته وأحبها ، علم

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

المدير بهذا الحب الناشئ فاستدرجها ذات يوم في العمل معتديا عليها بوحشية مما أنتج عنه فقدانها لعذريتها ، الأمر الذي يفقد المرأة حياتها في مجتمع كهذا ، ولو تحدثت فلا شك أن هذا المدير ستكون نهايته القتل وما سينتج عنه من كارثة ستطال الكثيرون ومنهم أهلها أنفسهم بل و" شنودة " الذي تعشقه بعنف ... ولو سكتت وتزوجت فسيعرف " شنودة " المسكين ولن تستطيع أن تبرر له ، ومن ثم فستنتهي العلاقة بمأساة ...

لا أعلم لماذا أسرَّني قرينها بما يعرف لكن يبدو أنه لسبب ما رأي أنني أستطيع حل المشكلة ، ... الأمر الذي لم أعرفه أنا شخصيا ... !

ظللت أنظر لكوثر وهي تبكي بعنف ، وفاتن وهي تنتظر مني أي جملة ... وإذا بالباب يفتح فجأة عن " شنودة " الذي سمع صوت نحيب كوثر من الأسفل فأسرع لها منقذا حاميا ... فنظر له الجميع نظرة الغرقى من تحت صفحة الماء ... ، بينما نزل على ركبتيه أمامها متوسلا وراجيا أن يزيح عنها المسيح ما تراه من ألم وكرب ...

لأول مرة ألمح في عيني كوثر نظرة استعطاف ، أن أخرجها مما هي فيه بعدما احتدم الأمر ولم يعد فيه مخرج ...

كنت أظن أن قدراتي كجني لو استخدمت في عالم البشر قادرة أن تحل أي مشكلة أو تزيح أي أزمة لكنني تعلمت أن الأزمات في عالم البشر ليست بالضرورة تحل بمنطق القدرات الخارقة أو الكشف اللا محدود لأسرار البشر ، وإلا لكنت ساعدت " صفية " من زمن ... والآن وأنا أمام كوثر ، أدركت حجم عجزي التام ... فلا أنا قادر على حل المشكلة ولا أنا قادر حتى على تعريفهم بها ، حتى كوثر نفسها رغم أنها لا تفهم كيف عرفت إلا أنها تدرك تماما حجم عجزي على الحديث ... عندها جاءني خاطر ... لماذا عندما نعجز بقدراتنا المحدودة – مهما اتسعت – لماذا لا نلجأ لله إن عجزنا ... أليس هو الخالق . . أليس هو مالك هذه الهالة النورانية التي تسبح داخل كل مخلوقاته ؟ ... استأذنت منهم راجيا أن أصلي ركعتين في أي مكان ... أحس الجميع بالحرج فمضوا يزيلون صور المسيح والصلبان المتناثرة هنا وهناك ... فاستأذنتهم أنه لا داعي لذلك ... فسيكفي أن أتخذ ركنا بأي جانب ... فتقبل القوم مشكورين .

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

جلسوا صامتين منصتين لا أسمع من خلفي سوى نهنهة كوثر وتنهدات فاتن وهي تتمتم "كان مستخبيلنا فين ده بس ياربي ؟" ...

"الله أكبر" ... قلتها وأنا أعنيها من كل ذرة داخلي ... واستعدت صورة الهالات الزرقاء التي كانت تهيم بجلال الملك الخالق و تمنيت لو كان الشيخ حيا ... تمنيت لو كان أبي معي ... تمنيت لو ... يا ويحي ... حتى وأنا واقف بين يديه ألتمس عون الآخرين ... اللهم أنت أنت ... أنت المبتغى ... أنت المرتجى ... أنت منتهى الآمال ومستقر كل ترحال ... يا راحما عبيده ... أنزل رحماتك . . يا لطيفا بعباده ... الطف يارب العالمين ... الطف يارب العالمين ... وأنا أتمتم بدعائي ... لمحت أمامي كوثر وقد قامت من مكانها ووقفت أمام "شنودة " الذي نظر لها والهاً محطماً ، فأمسكت بخديه وظلت تتحدث بصوت خفيض متقطع من البكاء ...

" شنودة " ... يا أحب وأرق إنسان في الوجود ... سامحني الأول إني كدبت عليك ... الموضوع لا فيه عفاريت ولا أيتها حاجة ... "

حاول أن ينطق لكنها أسكتته بأصبعها على شفتيه برقة فصمت ...

كوثر – أنا بقالي سنتين هربانة لغاية ما تعبت ... تعبت من الهروب

" شنودة " – بتهربي مني أنا ؟

كوثر – باهرب منك وإنت روحي اللي باعيش بيها ... باهرب منك وإنت كل اللي نفسي فيه في الدنيا دي ... باهرب منك وإنت الحلم اللي فضلت أحلم بيه عمري كله ... باهرب منك وانت حبل نجاتي من الموت والقهر ...

" شنودة " – مش فاهم حاجة ... طب بتهربي ليه

كوثر – حاقولك بس اوعدني الأول ... بعد ما حاقولك اللي حاقولهولك ... مش حتعمـــــــــــــل حاجة غير لما أوافق عليها معاك ...

" شنودة " – مش فاهم يا كوثر ... هو فيه ايه خضتيني

كوثر – إوعدني بس أنا عارفة انك راجل وحتوفي بوعدك

" شنودة " – مانا مش حاقدر أوعد على حاجة ماعرفهاش ... افرضي ماقدرتش أوفي

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

كوثر – أنا ماطلبتش إنك تعمل أو ما تعملش ... أنا طلبت إنك توعدني مش حتعمل حاجة تخص اللي حاكلمك فيه غير لما أوافق عليها

" شنودة " – طيب أوعدك ...

أغمضت عيناي ومضيت أخلص في الدعاء بنفس لا تنتمي لهذا العالم ...

"يارب العالمين ... يامن خلقت الإنس والجن ووضعتهم بمحنة الاختبار ... وأصعب ما في الاختبار ... الاختيار ... فإن أسأنا الاختيار ... فلا تعاقبنا بإساءتنا وأنت الكريم ... فإن أحسنا الاختيار ... فنجنا من عواقبه وأنت الرحيم ... "

كوثر – من سنتين حصل لي حاجة فظيعة ماقدرتش أكلم فيها مخلوق غير شادية ... صاحبتي وأحب الناس ليا ...

هنا شهقت فاتن ، فبدا بوضوح أن الأبنة أسرت لأمها بما صارحته بها صديقتها ... ودون وعي قامت فاحتضنت كوثر بعنف ...

"ياقلب أمك يا بنتي ... " ... ب

ينما قام " شنودة " وجلس على أريكة الصالون غير متمالكا نفسه ، اقتلعت كوثر نفسها بلطف من حضن فاتن وعادت لتواجه " شنودة " فجلست علي ركبتيها أمامه فانحني عليها وقد تلاحقت أنفاسه واحمر وجهه وبدا عليه الارهاق الشديد ...

كوثر – انا اتعرضت لاعتداء ...

" شنودة " – اعتداء ايه ؟

كوثر – "بعدما ابتلعت ريقها بصعوبة ... مضت تكمل بثبات عجيب " ... إعتداء يا " شنودة "

" شنودة " وقد بدأ ينفعل بلهفة ويعلو صوته ...

" شنودة " – ايه اعتداء اعتداء ... اعتداء ايه يعني ، حد ضربك ... عورك ...

وكان " شنودة " مسكينا يحاول أن يهرب من المعنى الوحيد الواضح الذي تحمله الكلمة ...

كوثر – إعتداء يا " شنودة " ... الاعتداء اللي بيحصل لأي بنت غلبانة وما بتعرفش تنطق ولا تتكلم ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

تراجع " شنودة " في كرسيه وقد ابيض وجهه وبدت ملامحه أقرب للأموات ... وكنت قد أتممت صلاتي وجلست في مكاني صامتا ، فراعني مشهد "شنودة" فقمت له وئيدا ... وجلست بجواره على الأريكة المذهبة ... وأمسكت على يديه وقد بدت أقرب للوح الثلج ...

أنا – " شنودة " يابني ... الضحية بتتدبح مرة ... بلاش ندبحها مرتين ... كوثر يا بنتي ... الشرف مش حتة في جسمك ولا يافطة على باب بيتك ، الشرف قيمة ومعنى وخلق ...

خرج صوت " شنودة " من عمق سحيق ...

" شنودة " – مين ابن الكلب اللي عملها

كوثر – " شنودة " الموضوع بقاله سنتين ...

" شنودة " – الكلب كمال فودة مش كده ...

كوثر – " شنودة " ... افتكر وعدك ...

هب " شنودة " من على مقعده قائما فدفعها فوقعت وجرى وهو يصرخ ... "اعتبريني مُتّ ... أنا رايحله وحاطلع دين أمه "

صرخت كوثر ومن ورائها فاتن التي اندفعت تمسك ب" شنودة " بدون جدوى ، فجريت وراءه وهو ينزل السلم كالمجنون ، وهم بأن يفتح الباب الحديد فوضعت يدي عليه ، فلو كانت جبال الدنيا ما استطاعت فتحه ... نظر لي "شنودة " وبوجهه وهج أحمر مخيف نراه على البشر وقت الغضب ، بينما تراقصت فوق رأسه شياطين الغضب كأنها ذباب يطير في دوائر بسرعة هائلة يكاد يصمني أزيزها ...

أنا – " شنودة " ... كوثر لما كدبت عليك كنت حبيبها . . لما صدقت معاك حتسيبها ...

" شنودة " – أنا مش حاسيبها ... أنا حادبح الكلب ابن الكلب ده ف وسط مراته وولاده ...

أنا – وبعدين ...

" شنودة " – وبعديها ولا كلب حيستجري يمد ايده ...

– واللي حواليه حيسيبوك ...؟

– حاولع فيهم بجاز وسخ ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

– وهمة ...؟

– إنشاالله البلد كلها تولع ... دي اعراض ناس يا عم محسن ... هو فيه ايه ... هو انتوا مش ف دينكم كده برضك ولا هو الاعتداء ع المسيحيين حلال

– أعوذ بالله ... المعتدي كلب ويترجم لو عايز ... بس استنى نشوف حنعمل ايه وماتدبحش البنية اللي فوق دي ...

علا فجأة صريخ شادية من أعلى ...

شادية – الحقوا ... كوثر حتموت نفسها ...

عقب لحظة ذهول لم تأخذ سوى كسر الثواني كان " شنودة " يطير حتى وصل لباب الشقة ، وأنا وراءه أكاد أطير طيرا ... فما أن وصلنا حتى كانت الست فاتن جالسة على الأرض بجوار الحائط تحت شباك مفتوح محتضنة كوثر وهي تبكي ... بينما مضت كوثر تنتفض وتنتحب في حضنها ...

شادية – راحت ترمي نفسها م الشباك ولولا أمي مسكت ف رجليها كان زمانها تحت ستين حتة

نزل "شنودة " على الأرض بجوارها مستندا على ركبيته ... أمسك بيدها . . سحبت يديها بعنف وأدخلتها في حضن فاتن ... فتراجع " شنودة " بظهره واستند منهارا على الحائط جالسا على الأرض مغطيا وجهه ...

" شنودة " – طب عايزينّي اعمل ايه بس ... أسكت ... أطنش ... قولولي يا خلق هووو ... أعمل ايه ...

كوثر – روح وسيبني يا " شنودة " ... ضيع نفسك وضيعني ...

" شنودة " – طب قوللي انت يا شيخ ... اعمل ايه ... اسكت ؟ ... لو سكتت روحي حتطلع مني يا خلق ... نار والعة ف جتتي ... لو بلغت عنه لا حييجي حق ولا باطل والبت حتتفضح ... لو قتلته حيقولوا فتنة ويروح فيها رقاب الكل ... حد يقوللي أعمل ايه ...

أنا – حندفعه التمن وياخد جزاءه

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

نظر الجميع اليّ وهم محدقون بدهشة ...

" شنودة " – ازاي ؟ ...

– حننزل انا وانت دلوقتي نروحله ... وسيب الموضوع عليا ...

نظرت لي كوثر باستعطاف ، فهمست لها ...

– يابنت مريم وطهرها ... لا يستقيم الأمر على ظلم ولا يغلب الباطل على طهر ... استعيني بالله وسيكون لك حقك و وزوجك وحياتك ...

...

وقفت أمام الباب متقدما " شنودة " بخطوتين ... مكتوب على الباب كمال فودة المحامي ... فتح لنا شاب صغير يبدو نوبي ... دخلنا في هدوء ... كان شكلي يبدو عليه أمارات المشايخ ... مرتديا جلبابا أبيض و قلنسوة بيضاء "شبيكة" كما يسمونها كتلك التي يأتي بها الناس من الحجاز ، مرتديا شبشب جلد ... ويبدو طرف البنطلون الأبيض من تحت الجلباب ... نظر لي الشاب ، وسرعان ما قادنا لغرفة كمال فودة بعد طلبنا مقابلته

المكتب فقير متواضع ... امتلأ المكتب بالأوراق المتناثرة في كل جانب ، بينما على الحائط لوحات قرآنية ، كم أمقتها ، كم أمقت الإنس كيف استهانوا بكلام رب العالمين حتى صار شاهدا على خطاياهم العظيمة ... مضى " شنودة" يرمق الرجل بنظرات كانت كافية وحدها لاحراقه ... جلسنا أمام المكتب على مقعدين متقابلين بينما كان كمال جالسا خلف المكتب ... كهل في أواخر الأربعينات ، صابغ الشعر أسود بشكل فج ، متوسط البنية مرتديا جاكيت رمادي اللون على قميص حريري أسود مفتوح بفجاجة وبدت تحته سلسلة ذهبية ... كان السواد يكلل تحت عينيه بجيوب منتفخة وكأنها تحمل أوزار البشر ... وفمه أسودا مصفر الأسنان ... كان قرينه مثله ، ثرثارا ، شريرا ، من الجن الكافر فلم أتعجب كثيرا ...

كان كمال يتحدث بالتليفون بصوت أجش وهو يتعمد ألا يبدو ناظرا الينا ، كان نموذجا ل" ياسين " آخر ... الذي ما أن جال بخاطري حتى تذكرت " صفية" فأحسست قلقا عليها

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

وساءلت نفسي ماذا لو وقفت في موقف " شنودة " ، وكانت " صفية " هي ضحية " ياسين " ... وتساءلت ... ما هو أكثر أنواع عذاب البشر إيلاما ؟ ... اللهم أعذنا من شرور أنفسنا ...

كمال – تحت أمركم يا حضرات ...

هم " شنودة " بالكلام فأسكتته بيدي على يديه ناظرا له بحزم ...

أنا – حضرتك الأستاذ كمال فودة ...

كمال – نعم

أنا – من سنتين ، في يوم الخميس ١٣ يوليو الساعة ٧ مساءا ، كنت سيادتك في المكتب مع سكرتيرتك كوثر ...

كمال – كوثر ؟ آآآآ

قاطعه " شنودة " بعنف ... "إخرس يابن القحبة لحد ما سيدك يخلص ..."

بهت الرجل وهم بالتقاط التليفون ليتحدث ، فتعمدت أن أنظر له بعين لم يرها في حياته ، وقلت له بحزم ...

– مش تستنى وتسمع للآخر بدل ما تكلم حد تحط نفسك ف مصيبة ... فتجمد الرجل خوفا وترك تليفونه جانبا ... فأكملت بهدوء ...

– طلبت منك مرتبها اللي متأخر بقاله شهرين ... سيادتك اتكلمت معاها في إنك بتحبها وحتجيبلها اللي بتحلم بيه ، بس تصبر عليك شوية ، قالتلك إنها حتسيب الشغل ...

كمال – إنت عرفت ده كله منين

– كنت سيادتك ساعتها لابس قميص أبيض ساتان مقلم وبنطلون أزرق ... وكنت لابس ساعة تقليد رولكس ... اتسرقت منك بعديها بشهرين ... واللبس ده كله اتحرق لما وقعت جوه الشنطة بتاعتك ولعة من الشيشة من غير ما تاخد بالك ... بس في الحقيقة اللبس ده ولع من لعنة خطيئتك

– إنت مين ؟

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- يوميها انت اعتديت على الآنسة كوثر بأخس طريقة ممكنة وكنت عارف وضامن إنها مش حتتكلم ولا تنطق ...

بدأ كمال يتمالك نفسه بعد وصلة من الرعب التي تمكنت من كل أطرافه حتى أنني كنت أرى بوضوح أصابع قدميه ترتعش من داخل حذائه المصقول ...

كمال – هو حضراتكم جايين ليه دلوقتي ...

" شنودة " – أبدا ... جايين نطلع ميتين أمك ...

نظرت ل" شنودة " بحزم فأسكتته ثم التفتت إلى كمال ...

أنا – حاقولك شوية معلومات ... يمكن تنفعك ... إنت عندك قضية مخدرات موكلك فيها تاجر مخدرات كبير ، فحضرتك رحت اتفقت مع الظابط عليه بعد ما عرفت عنه كل حاجة فالراجل لبس مؤبد ورجالته لسة مش عارفين مين اللي فتن عليه ... تقريبا لو الموضوع اتعرف رجالة موكلك حيتصرفوا معاك

رجع كمال في مقعده مشدوها ... وكذلك فعل " شنودة " ... فأكملت ...

- ومراتك اللي بتصرف عليك واللي مخلفالك بنتك الوحيدة ، اتجوزت عليها رقاصة درجة تالتة ومعيشها في شقة في امبابة ، وهي حامل دلوقتي ف الولد اللي بتحلم بيه من عشر سنين ويوم ما عرفت إنه ولد سقيت الحارة كلها على حساب مراتك بنت الحاج سويلم تاجر المواشي اللي بيدبح عجلين كل يوم ، وبالمناسبة الولد اللي انت مستنيه ده مش ابنك ... لأن كله سلف ودين يا أستاذ كمال ...

بدأ كمال يصفر وجهه ويختنق ، ويتراجع للوراء

- وطبعا اللي بأة حضرتك ماتعرفوش إن عندك سرطان البروستاتا بقاله سنتين ... وتحديدا بدأ ينهش في جسمك بعد اعتداءك على كوثر بتلات ليالي ... وهو دلوقتي انتشر في جسمك كله ...

وقف كمال بعنف حتى وقع الكرسي من خلفه ، وعاد ليلتصف بالحائط ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- إحنا لو سبناك النهاردة ، يعني لا عملنا حاجة ، ولا بلغنا تاجر المخدرات ولا بلغنا مراتك بنت الحاج سويلم تاجر المواشي اللي بيدبح دبيحتين كل يوم وبالتأكيد ممكن يخليهم تلاتة بكره الصبح خصوصا لما يعرف موضوع كوثر كمان ... يعني لو ما عملناش أي حاجة تعجل بموتك ، فإنت لوحدك رايح بالتوربيني بحد قبرك ...

ابتسم " شنودة " في سره من المفارقة بينما سكت كمال تماما ، وفي الحقيقة كان " شنودة " قد بدأ هو الآخر في دوامة من الدهشة والحيرة أسكتته هو الآخر ... فأكملت بنفس النبرة العميقة الهادئة

أنا – طب الحل ايه بأة يا أستاذ كمال ...؟

رد بلهفة وهو يمسك بآخر آماله في النجاة من الهاوية التي وجد نفسه قد انحدر فيها بلا مقدمات ...

- ايه ؟

في هدوء رددت عليه متعمدا أن أسقطه في دوامة اليأس ...

- للأسف مفيش حل ... إحنا بس حبينا إنك تعيش لحظات الرعب اللي حتقطع في جتتك وتخليك تمشي تكلم نفسك الأيام اللي جاية من عمرك ... إحنا حنطلع من عندك تلات مشاوير ... مشوار للسيد عادل عبد الجواد ابن عبد الجواد رزة تاجر المخدرات اللي محبوس على ذمة القضية ٣١٧٦ جنايات ، وبعديها مشوار للحاج سويلم مع عنوان شقة امبابة ، وبعديها ... مشوار كمان للترب نستناك هناك ... في الحقيقة ماحدش حيزعل عليك اوي ، ولا حتى بنتك الوحيدة اللي روحك فيها ، لانها بعد ما تعرف كل دة مش حتطيق تبص ف وشك حتـي بعد ما تموت ... نستأذن إحنا يا أستاذ كمال ...

هم " شنودة " بمعارضتي ، لكنني أسكتته فقام ونظر شزرا لكمال وانصرف معي على غير رضا ... ما أن وصلنا لأرض الشارع ، وكنا نسير معا وكان " شنودة " يسير بعنف وغضب ... فاستوقفني غاضبا ...

" شنودة " – ايه يا عم محسن ... إحنا حنروح؟ ... أنا مش ماشي من هنا

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

أنا – ولا أنا كمان

" شنودة " – يعني ايه ...

أنا – حنستنى هنا خمسة ... حيكلم مراته اللي في امبابة ... حيتأكد منها ان اللي قلتهوله صحيح . . وبعدين اعمل اللي عايز تعمله ...

بعد خمس دقائق ، فوجئت الحارة جميعا بصوت ارتطام شديد ضرب أرض الحارة ، وسط صراخ امرأة شهدت المشهد عن قرب ، بينما تناثرت أشلاء كمال فودة على أرض الحارة عدا عيناه التي ظلت باقية في رأسه وقد بدا عليها الفزع الشديد ربما من هول مارأي وهو يسلم روحه الدنسة ...

ونحن نودع كوثر وفاتن وشادية من على باب الشقة ، بدا للجميع أن القدر على عُنْفِهِ و حِدّتِهِ كان رحيما بالجميع ، فقد هدأ بال " شنودة " لما رأي من مشهد كمال على الأرض ، وارتاحت كوثر من حملها الذي يثقل الجبال ، حتى كمال نجا من خزي الدنيا ليقابل خزي الآخرة ... علا صوت " شنودة " من خلفي ... "ياللا يا شيخ محسن ... انت نسيت " ياسين " ولا ايه ؟ " ... .

اقتربت مني كوثر وهمست في أذني ...

كوثر – على فكرة أنا عارفة

– عارفة ؟؟

– عارفة وحاسة . . ماعرفش ازاي . . بس حاسة

– الله يكرمك ويكملك

– متشكرة يا شيخ محسن ...

– الشكر لله . . مش ليا

– أنا صليت كتير ... كتير أوي ... بس كل شيء بأوان

– إنتي صدقتي الله فصدقك ... والله غالب على أمره ... ويقدر أجل كل منا في كتاب من قبل الخلق ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

– ونعم بالله ...

اتخذت مكاني بجوار التابوت الخشبي مستشعرا نظرات " شنودة " المترددة بيني وبين المرآة وقد بدا أنه قد أدرك جيدا أنني لا أنتمي للعالم الذي يعرفه فلم يسأل حتى رغم حجم علامات الاستفهام داخله ، ومن خلفي مازال موكب الحراس محيطا بنا

كنت لا أدري هل خالفت عهدي مع الله ومع شيخي وخرقت قوانين الكون ... أم ناصرت حقا وأبطلت باطلا بما وهبه لي رب العالمين ... حقا لم أدر ... كل ما علمته أنني حين تخيلت أن نفس الأمر جرى مع " صفية " فأحسست بغضب الكون ، وعندما تساءلت أي العذاب أقسي لبني البشر ، أجبت بما فعلت مع كمال فودة ... أقسي ما يعذب بني البشر ، أن يوقنون بأن الغد الآتي سيسلبهم ما استماتوا للحصول عليه ... عندها سيفعلون المستحيل حتى لا يأتي هذا الغد ... أبداً .

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

المشهد العظيم

بعدما راحت السكرة من نفس " شنودة " ، بدا طول الرحلة ينظر لي بخوف وهلع شديدين وبدا صامتا طول الوقت ، لم أكن أود بأي حال من الأحوال أن أقوم بأي ما يكشف هيئتي وطبيعتي أمام رفاق الرحلة إلا أن ما حدث وما عرفت وما رأيت لم يترك أمامي سوى ما قمت به ولم أر له بديلا ، وظللت طوال الرحلة أتعجب من ذلك الذي زرعه الله في نفوس مخلوقاته ... ويسميه الناس "الحب" ... ولا أظنه إلا من صفات الله العليا ، فالله ذاته يحب ، ويختار من يحبهم ، وجعل من أجمل ما يقدمه العبد له ... "الحب" . . وما رأيت عطاءا غير مشروطا غير محددا إلا وكان منبعه الحب ... الحب هو ذاك الذي حرك الدمع بعيني " شنودة " الشاب البسيط المسيحي وهو الذي حرك الدمع بعيني شيخي العجوز العلامة المحبوب والمقرب إلى خالقه ... وهو الحب الذي يجعلني أجلس القرفصاء فوق أرضية صلبة قذرة لا لشئ إلا لأن هذه الأرض المتحركة تحتي تحمل اثنان هما أحب من لي في هذا الكون ... شيخا علمني ... وروحا أسرتني .

في زحام الطريق ظل " ياسين " يتحدث في التليفون مع العديد من البشر ، ما فهمنا منه أن هناك ترتيبات عدة يجري ترتيبها في المكان الذي نحن بصدد الوصول اليه والذي لا نعرفه بعد ، كان يتذلل تارة وينهر تارة ، يتشاجر تارة ويتناغم تارة ... وكم من الأكاذيب يتراوح بين فكيه كأنها علكة يتشدق بها

أما " صفية " فقد بدأ يساورها التوتر والقلق بعدما تلقت مكالمة من أبيها الحاج " معروف " ، فنهرها وسبها وهددها بكل ما يهدد الأب به ابنته ، وتلقت هي كل ذلك في صمت ودموع ، حسبما أخبرني قرينها ... وظلت كل حين وآخر تتنهد وتتمتم بدعاء أو بشكوى لله ، ولو رأت " صفية " كم من ملك طيار كان يتسابق لحمل دعواتها وشكاواها وتأوهاتها لانقلب حزنها فرحا وشكواها زغاريدا وغناءا ... حتى أنني وجدت عددا من الملائكة يتسابق لحمل دعوة اجتهدت أن أتسمعها جيدا ، حين قالت ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

"يارب . .

مالقيتش اللي يحملني وأنا لا حول ليا ولا قوة

لا جوز ولا أب ...

مابقاش ليا غير اللي خلقني ...

احملني إنت يا حنين على الولايا يا أصل الحول والقوة " ...

أقسم أنني رأيت قرابة المائتين يتلقفونها نورا ذهبيا يخرج من بين شفتيها فيحملونها معا للسماء ... ملت عليها ... همست لها ...

أنا – بالراحة على نفسك يا ست " صفية " ... كله حيتحل بإذن رب العالمين

" صفية " –يتحل بأة ولا ما يتحلش ... أهه الأمر أمره ...

ثم التفتت فجأة وعينيها تلمعان وكأنها تذكرت وجودي ...

" صفية " – إلا قوللي يا خويا ... هو لمؤاخذة ايه اللي صابك واحنا ف بيت الست " زكية "

أنا – إيه اللي صابني ؟

" صفية " – ياخويا أول ما دخلت أوضة الحاج أبوها لقيتك بتبص كده في السقف وعينيك بتدور راحة جاية وكأنها يعني ماتأخذنيش شايف حاجة كده اللهم احفظنا ...

لمحت عيني " شنودة " تنظر في المرآة وملؤها كل المشاعر الإنسانية التي خلقها رب العالمين ... من خوف وقلق وترقب وامتنان ورغبة في الإجابة ربما أكثر من " صفية " ذاتها ...

أنا – يا ست " صفية " ... اتعلمنا في حضرة الطيبين نسلم على أهل المكان ... دي وصية سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام

" صفية " – عليه الصلاة والسلام ... بس انت ماكنتش بتسلم ، إنت كأنك يعني بسم الله الرحمن الرحيم كنت بتتفرج على حاجة ...

أنا – نور الصالحين يا ست " صفية " بركة

" صفية " – ييه بأة ... مش حاخد حاجة أنا من كلام المشايخ ده

يئست ورجعت برأسها مرة أخرى غير أن عيني " شنودة " ظلت مسلطة علي بتركيز شديد ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

كنا قد أصبحنا بوسط القاهرة وقد مالت الشمس للمغيب وبدا شكلنا غريبا وسط الشوارع ، فليس من عادة البشر أن يدفنوا موتاهم ليلا ، بينما لا ندفن نحن الجن موتانا إلا ليلا ، فكأن الله قد قسم الكون بين الجنسين موضع إختباره وهو رب العالمين ، غرابة شكلنا دعت اللجان المرورية أن توقفنا مرارا وتراجع تصريح الدفن وتجادل " ياسين " مرات ، وتنظر في وجوهنا مرات مرات

ولعل وجوهنا كانت هي ما يسمح للموكب بالعبور ، فوجود إمرأة وطفل وشيخ بالإضافة لمسيحي رغم كونه مثار تعجب إلا أنه كان ضمان مرور " ياسين " ف أكثر من مرة وإلا لاضطر في هيئته وعدم وجود أية أوراق معه أن يفتح التابوت ويؤكد ثقله وإمتلاءه ... ومضى كل شيء يزداد في غموضه و حيرته إلى أن نطق " ياسين " أخيرا بعبارة تحمل دلالة مفهومة أثارت داخلي العديد من الشجون ، حين قال ل" شنودة " "إطلع بينا ع المقطم " ... نظر له الجميع باستغراب وقلق ... زاد حين قال ... "إحنا حندفن في المقطم" .

المقطم ... هذا الجبل العظيم الذي يمثل كونا في ذاته ... أعرف فيه كل شبر وكل حجر ، كل كهف وكل مطلع وكل منزل ... شهدت فيه أحداثا عظاما للجن أو للإنس ، شهدت فيه صالحين وطالحين ... شاهدت فيه مطارحة غرام ونجوى إلهية وحروب جنية ومطاردات إنسية ... جبل المقطم لكثير من بني جنسنا بقعة مباركة طاهرة يجتمع فيها العديد منهم من كثرة ما شاهدوا من بركات الصالحين ...

التفتت " صفية " تنظر الي باستنجاد وهمست ...

" صفية " – هو احنا مش حندفن في الصعيد ؟

أنا – علمي علمك يا ست " صفية "

نظرت لي بعينيها الواسعتين المحددتين بالسواد وكأنهما بئري ماء تفجرا في السماء الزرقاء ... همست لها ...

أنا – إنتي ليكي مين يا ست " صفية " ف الصعيد ؟

" صفية " – عايز الحق ؟ ... أنا رايحة ورزقي على الله

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- يعني ايه ... مالكيش حد هناك ؟
- ليا بنت خالة أمي ... علاقتنا مقطوعة من ييجي عشر سنين ، بصراحة اتكسفت أكلمها وما اعرفش هي فين ، حية ولا ميتة ، قاعدة في عنوانها اللي كنت أعرفه ولا غيرته ...
- طب هو حد يروح يرمي نفسه كده في الخلا ؟
- قسمتي بأة . .
- طب بأقولك ايه يا ست " صفية " ... أنا حآجي معاكي
- تيجي معايا فين يا سي محسن ؟
- آجي معاكي مطرح ما تروحي ... أوصلك لأيتها حتة حتروحيها ، أتطمن عليكي وعلى "فاطمة" ، إنتي عارفة إني مابقاليش مطرح بعد ما " ياسين " حياخد البيت ، يعني بقيت زيي زيك على باب الله

في دلال يجيد صناعة الأجنحة أغمضت عينيها نصف إغماضة فاقترب الجفنين المكحلين من المنتصف فكأن السماء على وشك أن تمطر عسلا وشهدا ...

- وهو إنت يعني عدم المؤاخذة حتسافر معايا بصفتك ايه ؟

سكتت حائرا ثوان معدودات تخطت عمر الكون ... مما تعلمت من سلوك الخلائق أن خطاب النساء يسير على مستويين ، مستوى ظاهري يحمل المعنى الواضح الذي لا يحمل عليهن أي ملامة أو يؤخذ عليهن منه أية لفظ ... وهو عادة ليس هو المقصد ، بل المقصد منه غالبا حمل المعنى الباطني الذي يسبح في الأسفل في المستوى الثاني ، وهو غالبا ما يحمل كل المؤاخذات وكل ما يحسب عليها لو أسئ التعامل معه ... فلو تعرضت للمؤاخذة تلجأ فورا للمعنى السطحي الظاهر الذي لا يمكن تجاهله ، ويصلح تماما كحجة ، ولو كنت ذكيا سريع البديهة فستدرك الرسالة بدون عتب أو ملامة ... نظرت لها واجماً ... لم أجد ردا ... سوى ...

"ياست " صفية " وهو مين حيسأل " ...

نظرت لي بمنتهى الإحباط ثم أعادت وجهها للطريق مرة أخرى وهي تتمتم ...

"عندك حق ... لا حد بيسأل ولا حد بيهمه بلوة حد" ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

دخلت بنا السيارة مطلع المقطم الحلزوني المتعرج ، وبدا لي كل مواضع لعبي وتنقلي ، ولمحت تلك الصخرة العالية التي تحمل فوقها جبلا هائلا واقفة في شموخ ... لكن كان ما هالني هو وقوف قومي جميعهم على حافة الجبل من أعلى ناظرين إلينا ... وقد انضم معهم جموع غفيرة من الملائكة ، ولمحت الحراس من خلفي وقد زاد عددهم ... شيء ما سيحدث في هذا المكان ... وصلنا في النهاية لبيت في الهضبة الوسطى يبدو عليه مخزن لمواد بناء ... ما أن اقتربنا حتى فتحت بوابة حديد من الداخل ... دخلنا لنجد أنفسنا في حوش واسع به العديد من شكاير الأسمنت متراصة بشكلها المعتاد ، من خلفهم مبنى صغير ، خرج منه رجل متوسط القامة مرتديا بذلة كحلية اللون وربطة عنق كحلية مقلم وفوقها عباءة بنية تعطي انطباعا بالعظمة يعوض إحساس عميقا بالنقص والخوف والتكشف ... كان يبدو عليه هو ذاك الحاج الذي تحدث معه " ياسين " مرارا ، فهو يبدو كبيرهم ... ومن حوله خرج العديد من الرجال ، لايبدو على أحد فيهم سمة شبه إنسية ... نزل الرجل وسلم على " ياسين " بهدوء وكبر شديد ... بينما كان " ياسين " يحتفي به بشدة ...

" ياسين " – بسم الله ما شاء الله يا حاج . . لو الواحد صحته بتيجي كده ع الجواز كان اتجوز من زمان ...

الحاج – قريب حتتجوز بس انت اعقل ...

نظرنا لبعضنا البعض متعجبين لماذا يخفي " ياسين " خبر زواجه من " زكية " ...

الحاج – إنما مين كل دول ؟

ونظر الينا في داخل السيارة بنفس النظرة المتكبرة ولم يكلف نفسه بالابتسامة حتى

" ياسين " – دول يعني طالعين معانا معزة لأبويا الله يرحمه

نظر له الحاج شزرا ... ثم قبض على ساعده وشده جانبا ... وبدا أنهم يتجادلان بشدة لم يسمع من صوتهما سوى بعض كلمات متطايرة ... "إنت إزاي ... والله ما تخاف يا حاج ... الدفنة ... الصندوق ... الطريق ... "

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

كان الوضع برمته غريبا إلى درجة الإذهال ... المكان لا يبدو عليه مكان سكني لأقرباء الشيخ أو أي شخص ، الأشخاص لا يبدو عليهم الحزن لموت الشيخ ، ولا استعدادهم للدفن ، نظراتهم لنا غريبة وتعطي الإحساس أنهم قد افتضحوا ... بالأمر شيء مريب لم أفهمه حتى لحظتها ... الأغرب هو تدافع مواكب السماء الذي لم ينتهي حتى بدت قمم المقطم وكأنها مدرجات مكتظة في ملعب لكرة القدم ... في السيارة كانت " صفية " تبدو في غاية التوتر وهي تتمتم بآيات قرآنية ويدها فوق جبهة " فاطمة " النائمة على حجرها في خفوت وسكون لا يتناسب مع حرج ما نحن فيه ... ، بينما " شنودة " ظل جالسا خلف مقود سيارته ناظرا للجمع بتركيز شديد محاولا تسمع ما يقولون ...

بعد فترة وجيزة انصرف الحاج منفعلا وقد أعطى أوامر محددة لبعض الرجال الذين اندفعوا نحو سيارة دفع رباعي بيضاء ، بينما عاد " ياسين " مسرعا للسيارة وهو يقول ل" شنودة " "اطلع ورا العربية دي " ...

اندفعت السيارة البيضاء بسرعة شديدة ، وتبعها " شنودة " بدون أن يردد كلمة واحدة ، كان همنا جميعا الخروج من هذا المكان الذي لا يبدو عليه أي أمارة إطمئنان ... تلوت السيارتان بين طرق ودهاليز الهضبة الوسطى بالمقطم حتى وصلنا لسفح منعزل تحوطه تلال مرتفعة من كافة الجوانب بينما الأرض في وسطه ليست سوى مساحة رملية منخفضة متسعة ويحوطها عدة أحجار ... بدأ الليل ينزل على المكان وبدا القمر منيرا في وسط السماء ، والمواكب الواقفة فوق التلال قد تلألأت فصارت كعنقود من الآلئ يطوق عنق الجبل ... في نظرة خافتة لمحت أبي وسطهم ... هل جاء كل هذا الجمع لتوديع الشيخ ؟ أم ماذا ... وتذكرت قول الشيخ في آخر حديثه معي ...

" ... ادفنوني في أي أرض بس ما يبقاش فيها معصية ولا ضلالة ولا غل ولا غلول ... لا عايز حد يزورني ولا حد يعرفلي سكة ... عايز اللي يستدل عليا يستدل عليا بقلبه وعقله مش بعينه ورجليه "

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

نظرت للمكان حولي ، للأرض المنبسطة . . تلك الأرض كثيرا ما شهدت حلقات ذكر صالحينا ... نظرت للتلال من حولي فوجدتها مرصعة بعظيم مخلوقات الله ، نظرت للمساء فوجدت القمر متعامدا علينا كأنه ينير له الطريق ... هذا المكان لا يستطيع مخلوق أن يستدل عليه ... فقط من جاءه بقلبه وعقله ... رحمك الله يا شيخي ... من أكرمه ربه ... ملك الدنيا وما حولها ...

وقفت السيارة البيضاء ... خرج منها الرجال ومعهم معاول ومصابيح ، وقفنا وراءهم فنزل " ياسين " مصدرا أوامره لنا ... "الرجالة ينزلوا ... حندفن هنا " ... نظر له " شنودة " باستغراب . . "هنا؟ ، ... مش حنروح الترب ؟ " ... لم يتوقف " ياسين " ... رد عليه وهو يسير مسرعا نحو الرجال ... "الدنيا كلها ترب" ...

بدأ الحفر بقوة وبسرعة غريبة وبتوتر شديد ... كان أربعة من الرجال يحفرون وواحد وقف مراقبا للطريق ... كان الأمر غير مفهوما بالمرة ، لماذا ندفن الشيخ خفية ؟ . . ومضيت أحفر معهم و" شنودة " كذلك وهو ينظر لي كل حين وآخر نظرة توجس وريبة وكأنه يطلب مني عمل شيء ... وبقيت " صفية " مشدوهة بالسيارة ... وقد علا صوتها بالقرآن ...

انتهى الحفر ، فتوقف الرجال ونظروا ل" ياسين " الذي نظر الينا آمرا ... "هاتوا الجتة ياللا ..." ... عدت أنا و" شنودة " ومعنا اثنين من الرجال لنخرج الخشبة من السيارة ، فإذا بالمواكب المتلألئة تنساب من فوق القمم كسيول من الفضة اللامعة لتملأ المكان حولنا ، وإذا بالحراس يتقدمون لحمل الخشبة ، فلم تحتج منا لمجهود يذكر لحملها ... توقفنا بجوار الحفرة الكبيرة ، وفتحنا الخشبة ، فأخرجنا الشيخ منها ملفوفا في جدائله القطنية ... نظرت لأيادي الرجال الذي اصطحبهم " ياسين " معه فإذا بأياديهم يكللها السواد ، فتوقفت ... وأحزنني أن يدفن الشيخ بمثل هذا الأيادي النجسة ... فقلت ل" ياسين " بحزم

- ياسي " ياسين " ... أنا عايز أدفن الشيخ لوحدي ...
- اشمعنى ... احنا عايزين نخلص ...
- الرجالة دي ايديها مش نضيفة ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

نظر لي ثم للرجال الذين كانوا ينظرون لي شزرا ...

- نعم يا خويا ... لهو إنت كنت عايزهم يغسلوا ايديهم قبل ما يدفنوا ... همة حياكلوا... ياللا يابا

- اللي حيمد ايده على الشيخ ، حتولع وهو واقف ... الشيخ جسمه طاهر وما يمسوش غير الطهرة ... العيال دي ايديهم نجسة ...

فوجئ " ياسين " والرجال بما أقول ، توقف " شنودة " وبهت وظل يحول نظراته بيني وبين " ياسين " ، وكانت المواكب قد تراصت حولنا يتقدمهم الحراس الذي كانوا على استعداد لحرق كل من في المكان لو امتدت يد للجسد الطاهر ...

- عايز مين يعني ...

- أنا و" شنودة " بس اللي حندفن ...

من خلفي خرج صوتها قريبا وكانت قد خرجت من السيارة ...

" صفية " - وأنا معاكم ...

نظرت لها فبدا في عيني الخوف عليها ، لكنها نظرت لي بقوة ... وقالت

"ده كان سيدي وسندي وضهري ... مارميهوش في حتة مقطوعة وامشي ... "

حملنا الشيخ نحن الثلاثة معا ... موكب وسطه جسد الشيخ قائدا ودليلا ، يحمله مسيحي وإمرأة وجني ... وكان أمامنا الحراس وقد تقدموا أمامنا بتوقير شديد ، ومن وراءنا جموع متراصة تتقدم ويتقدم من وراءهم جموع غفيرة من الجن والملائكة ، ويقف حولنا حاملين للجسد مايقرب من المئتين من مخلوقات رب العالمين فصار النعش كما غيمة تسبح في سماء صيفية ... حتى أن " شنودة " و" صفية " تعجبا وقالت " صفية "

"سبحان الله ... يحملنا رب العالمين حملتك يا سيدي الشيخ " ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

سَجَّيْنا[1] الشيخ في الحفرة التي صنعها الرجال ، وهم لا يرون سوى حفرة مظلمة مترين في متر ... لكنني نظرت لها فإذا بها نافذة تفتح على عالم مبهر مضيء يخرج ضوءه من الحفرة فأنار السماء ... والجموع من حولنا وقفت مطرقة في إجلال رهيب ...

أهال الرجال التراب على الجسد النوراني بينما تفلتت أشعة الضياء من حبات الرمل حتى ملأ الرمل الحفرة ، حمل الرجال الخشبة الخالية فوضعوها بالسيارة وهم الرجال بالسير ، لكنني و" صفية " و" شنودة " كنا واقفين لم نتحرك ... نظر " ياسين " لنا بتعجب ... "يالا يا بهوات " ... نظر " شنودة " و" صفية " لي ، لكنني وقفت جامدا لم أتحرك وأنا أتلوا آيات رب العالمين وأدعو للشيخ هامسا وكانت الجموع النورانية تردد من خلفي "آمين" ...

التفت " ياسين " للرجال معه ... فأمرهم بركوب السيارة حتى يحضرنا ... أطفأت كل الأنوار فبدت الأرض مضيئة تحت نور القمر ، والجموع قد جلست في دوائر مستديرة حول القبر لا يراهم غيري ... واقترب منا " ياسين " ...

" ياسين " – شوفوا بأة يا بهوات ... إحنا عندنا شغلانة مهمة ونصيبكم وقدركم حطها ف طريقكم

هنا وفي شجاعة غريبة تحدثت " صفية " ...

" صفية " – حتعبي الخشبة بلا أزرق من الأرف بتاعك وحتوديها الصعيد ...

نظرنا لها جميعا في هلع ، بينما ظل " شنودة " يحول نظراته بيني وبين "صفية" التي كانت واقفة تتحدث في ثبات عجيب ...

" صفية " – وطبعا محتاجلنا معاك عشان تغطي ع اللعبة ...

" شنودة " – ايه الكلام ده يا سي " ياسين " ... ؟

" ياسين " – يعني البت فهمتها وانت لسة مخك تخين ... زي ماقالت كده تمام ... بس تغيير صغير ... إحنا مش طالعين ع الصعيد ... إحنا رايحين الواحات ...

---

[1] أرقدناه

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

لم أتخيل حجم الدناءة الإنسية المتجسدة في هذا المسخ البشري ، وتساءلت لماذا دائما لا يتوقف البشر عند حد معين في الهبوط ، لماذا إذا هبطوا ، يأخذون المنحدر لآخره ، فيستحيل معه الصعود ... لماذا إذا أمسكوا كأس الخطيئة تجرعوها ، وإذا أتتهم ماء الطاعة تذوقوها ... ما الذي يفجر عندهم الهمة في السقوط ، وينزعها منهم عند التوقف أو الصعود ... كنا واقفين في ساحة جبل يحوطنا مئات الآلاف من المخلوقات النورانية كلهم جميعا أعظم من أعظم ملوك الأرض ، لكنهم جميعا يدينون بالولاء للإنسان ... هذا الكائن المخلوق الذي أمرهم الله بالسجود له ، فيدورون بدورته ويتحركون بحركته ويجمعهم ساحة جبل مقفرة تبجيلا لواحد منهم إختار الله طواعية بينما هم جميعا خلقوا للعبادة قدرا مكتوبا ... إنها معجزة الإرادة الحرة ، والإنسان ... هو الكائن الوحيد في الكون الذي وهبه الله نعمة الإرادة الحرة ... أن يختار رب العالمين بإرادته الحرة الواعية ، وللسخرية ... وسط كل مخلوقات الكون ... هو الوحيد أيضاً في هذا المكان الآن الذي يجاهر الخالق بالجحود ... نظرت ل" ياسين " ...

أنا – ماحدش مننا حيشارك معاك في النجاسة دي

للاستغراب الشديد . . نظرت لي "صفية "

" صفية " – حنروح ونرجع معاه يا سي محسن ...

تعجبت منها ، حتى هو تعجب منها ... فنظرت له وكأنها ملكة تحدث واحدا من الرعاع ...

" صفية " – خطة زي دي ما كانش حيعرضها إنها تفركش عشان تلاتة مايساووش عنده تلاتة جنيه ... إحنا يا حنوافق يا حنندفن جنب الشيخ هنا

" شنودة " – ماحنا ممكن نوافق هنا ونهد الدنيا لما نمشي قدام أي لجنة

اقتربت مني "صفية" بنظرة تمنع البكاء بصعوبة وتحاول الحفاظ على رباطة جأشها ...

" صفية " – لو حس إننا حنغدر حيأذي " فاطمة " ياسي محسن ... ومش عايزاه ياخدها مني لجل ما يضمن نتخرس ...

هنا تدفق القبح من فم " ياسين " ...

" ياسين " – كده كده " فاطمة " حتفضل هنا يا بنت " معروف " لحد ما نرجع الطريق ومش ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

قبل أن يكمل ، التفت له " صفية " وبقوة تقهر ذاك الجبل الذي نقف تحته ...

" صفية " – يمين باللي خلق الخلق من فوق سبع سموات ، اللي حيلمس شعراية منها لأ نهشه بضروسي ماسيبله ضفر على لحم ... واياكش نندفن هنا أنا وهي ... بس بنتي ماتبعدش عني يا " ياسين " ...

كانت لهجتها حادة ، قوية ، ونبرتها تحمل حزنا وقهرا تكتمه لكنها كانت تضع في كلماتها آخر قوتها في الحياة ، ومن داخلي تمنيت أن أخذها هي و فاطمة و" شنودة " فأطير بهم من فوق هذا الجبل وأترك هؤلاء الأنجاس لقبيلتي تنهشهم نهشا ... لكن العهد وعد ... ولا يرد

إلتَفَّت وسارت نحو السيارة بثبات وجلال ملكي ،أجبر ياسين على الصمت ثم نظر بعدها ل" شنودة " الذي سار وراءها في صمت ... بينما توقفت أتأمل المشهد الرهيب في السفح الممتلئ وقد جلست كل الجموع أسمع همهمتهم بتسبيحات وترنيمات من لغات شتى وبكلمات شتى ... بينما وقف الحراس حول الحفرة في صمت ... لكنني تعجبت ، حينما كنت أبتعد ... نظر لي أحدهم بقوة وكأنه يتفحص ملامحي ... لم أنسى شكله ... ولم أنس تلك اللمعة الذهبية التي بدت منه وهو يشير نحوي بجناحه الملكي ، إشارة لم أفهمها إلا بعد حين ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

الجِنِّيُّ العاشق

كان الرجال يحملون نجاساتهم داخل صندوق خشبي فقد عذريته منذ قليل ، وكأني أسمع أخشابه تصرخ عناء الإغتصاب ... بينما وقف ثلاثتنا جانبا واحتضنت "صفية" ابنتها في قوة وتصميم وقد بدا من على البعد عمود النور مازال قائما وأفواج المعزين تتدافع صعودا وهبوطا ... سبحان الله ، إن كان ذلك لرجل صالح من عباده ، فماذا يكون من شأن الأنبياء والمرسلين . . اللهم أحسن خواتيمنا يا رب العالمين ...

اقترب مني " شنودة " في حذر وترقب ... وتحدث خافضا صوته محاولا ألا يسمع " صفية " التي وقفت بجمود كتمثال نهضة مصر القابع على ضفاف النيل ...

" شنودة " – حنعمل ايه يا شيخ ؟

أنا – العمل عمل ربنا يا " شنودة "

- إنت مش حتعمل حاجة ؟
- عايزني أعمل ايه يا " شنودة " ...
- أنا عارف ؟!! ... تعمل اللي بتعرف تعمله ... اللي عملته مع "ياسين" عند الست " زكية " ، ولا عند منال ولا عند ابن الكلب اللي اتحرق ف ستين داهية ... اعمل اللي بتعرف تعمله . . أنا عارف إنت بتعمل ايه ولا بتعمله إزاي ولا انت مين أصلا ولا إنت إيه ...
- كلنا عبيده يا " شنودة " ...
- ياعم وهو انا كنت قلت حاجة ... ماحنا كلنا عبيده ... ماهو ابليس من عبيده ...
- بس أنا مش ابليس يا " شنودة "
- أمال ايه ... ؟

سادت لحظة صمت قطعتها " صفية " وقد أنقذتني بذكاءها الذي ما زال يذهلني كلما ازددت منها قربا ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

" صفية " – سيبه يا" شنودة " ... مايقدرع القدرة غير اللي خلقها ... ربنا يسلمنا ونخرج منها علي خير

" شنودة " – على خير إزاي بس يا ست "صفية" ، هو انتي فاكرة " ياسين " حيسيبنا بعد ما شفنا اللي عمله ؟ . . ما حنا فاهمين التيتة ... غرضه نغطي عليه لحد ما نوصل اللي عايزنا نوصله ... وبعديها ...

" صفية " – واحنا ف السكة نشوفلها تصريفة ، بينا وبين الواحات ييجي خمس ساعات سفر ... يكون ربك خلق كون تاني ...

تذكرت ما ذكره " ياسين " من توجهنا للواحات وتعجبت من عجيب أقدار الله ، مازالت ترن في أذني كلمات سيدي وأبي عن الأكرمين الذي سكنوا الواحات و " عبد القادر طوليد " الذي كنت قد اتخذته محطتي القادمة ... هل يا ترى حَدَّدْتُ مساراتي أم أنه قد تم تحديدها قبلا وأنا بها سائرٌ ...

كان واضحا على " صفية " الغضب المكتوم مني ، فمنذ أن بدأت الرحلة وهي تتلقى الصدمات وأنا لا أملك إلا مواساتها والترنم بكلمات التخفيف والتهوين وكأنني من صديقاتها أو صديقات أمها ، وأنا لا أملك من نفسي ولا منها شيئا ، فلقد علمت منذ البدء أنه العشق المستحيل ، وأنه حمل علي القلب ثقيل ، حمل ينوء به عن الترحال في آفاق السموات كما أنه عهد بيني وبين ربي ألا أفصم الرابطة بين كونين قدر الله فصلهما من فوق سبع سموات ... أعلم تماما ما بها ، ها هي تنظر لي في عتب ... أسمعها تعاتبني أني لا أفهم ما بها ... أني لا أقدر على حمايتها وحماية طفلتها البريئة المتطلعة لكون أكثر بريقا مما نراه ... وبقلبها جرح قديم تطمع مني أن أداويه ... ولو تعلم ما هو بقلب لم أعلم وجوده إلا برؤيتها ... لو تعلم ما يجول بي مما لا أعلم ولم أتعلم ... لم أظن الحب قبلا إلا من سمات الإنس ، كنت أسمع نجوى العاشقين ليلا فأتعجب من ذلك الذي يلم بهم فيهيمون في غياهب الليل كأنهم جنادب[1] تدور

[1] فراشات

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

حول نار موقدة ... وما كنت أظن الحب إلا لرب العالمين ... من خلق ومن رزق ومن أحيا ومن أمات ... فإذا بمرأى " صفية " يجلجل قلبي من قواعده ويقتلعه كجذر نبات تقطعت أطرافه ... لم أنتبه وأنا بخواطري أنني قد أطلت النظر اليها وكأن حوارا يدور بيننا في مخيلتي ، حتى فوجئت بها تنظر لي في ثبات واستغراب ... ذهبت لها خطوات ...

- ست " صفية " ... إنتي فيه ف نفسك حاجة مني ؟
- وأنا يبقى ف نفسي حاجة حاجة منك ليه يا شيخ محسن ... إنت عملت حاجة يا خويا . . دانت بلسم ؟
- ست " صفية " ...
- نعم يا شيخ ...
- واللي خلق الخلق بأمره بين الكاف والنون ... لانتي عندي أغلى من النَفَس اللي طالع ولا عارف حيرجع ولا لأ ... بس سامحيني يا بنت الناس على اللي مابقدرش أبوح بيه ولا أتكلم ... ويمكن ف يوم يقدر الملك فينا قدره وتعرفي اللي حايشني عنك بالقدر والوعد ...

لا أعرف كيف خرجت هذه الكلمات ، لكنني رأيت نظرة عينيها المذهولة وكأنها رأت جنيا عاشقا (ليتها رأته) ... وقد تخللت نظرتها عذوبة ورضا وفرحة من وجد بغيته ... عندها خفت قبضتها على " فاطمة " ولانت وقفتها وابتسمت كما القَدَر حين يطيب ...

- يوه ... مانا عارفة ... بس همة الرجالة كده ... ييجوا عند النسوان وعقولهم تبقى زي السمسمة ... تقف الكلمة ف حلوقهم زي معلقة العسل الابيض ، مع انه لو بلعها حتبقى زي الشهد
- صبرك عليا ... و اللي خلق الخلق أعلم بيهم ... "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير"[1] ...
- ماشي يا عبمحسن ... نصبر يا خويا ... قالك ايه اللي أمر من الصبر ، قالك الصبر عليه ...

[1] سورة الملك

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

يحكي أبي عن أجدادا لنا رافقوا شعراء العرب بالصحراء ... حيث الساحة ممتدة امتداد الأفق والسماء تطل بمعطفها الملكي الأسود فتسبغه على الجميع ، ويصبح المساء مليكا مسيطرا على خيالات العاشقين ... كان عندها يروي لي أن أجدادنا كانوا يطوفون بالأحرف والعبارات فينسجونها نسجاً ، ويُملونها على رفقاءهم من عشاق الشعراء ، فيتلونه في المواسم والأعياد فينبهر الناس ، وكان أجدادنا يجيدون صنع القصائد من أعاجيب الكلمات حتى أن بعضهم كان ينفث في الأحرف بعضا من تعاويذ العشق ، فتحملها الحروف للمعشوقة فتميل بنعومة كما الغصن الأخضر وقت الربيع ، حتى أن شعراء الإنس كانوا إذا أبدعوا يقولون "قد جاءني شيطان شعري" ... وكنت أساءل نفسي ، ما الذي يأتي بهذا النسج المبدع ، هل للجن قلوب منذ الأزل يعشقون بها عشق البشر ، ولماذا لم أسمع عن عشاق الجن مثلما نسمع عن قيس وليلى العامرية ؟... واتاني هذا الخاطر وأنا أحس بشيء من كلمات تدور بخاطري وكأنها طيور تبغي الفكاك ... ولو أسمعتها " صفية " ربما ما فهمتها ... لكن للقول ذاته نشوى أثارتها السماء المنبسطة في ليل المقطم الهادئ ...

هاج قلبيَ بالهوى فمن ذا يطيب خاطري
يا من عشقتك بالنوي وترتضين هواجري
يابنة الإِنْسِ إِنَّ الأُنْسَ بالعشاق مرحمة
وإني بأسرك عاشق فكوني أرحم آسرِ
سم لي كيف المنال لرشفةٍ شهد الرضا
ولو كان العمر ثمناً ، وعينيك سأشتري ...

قطعنا صوت " ياسين " وهو ينادينا وقد أتم تحميل المخدرات في النعش الذي كان طاهرا منذ قليل ، فركبنا السيارة واتجهنا هبوطا من المقطم لقلب لمدينة الصاخب متلألئ الأنوار وقد بدا من خلفنا المقطم عظيما شاهدا على الحياة بتاريخها الممتد من بدء الخليقة ، راح بصري لموضع الدفن فرأيت عمود النور وقد بدأ يخفت رويدا رويدا وبدا أن المواكب قد بدأت في المغادرة ،

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

ويبقى القبر مجهولا لا يعرفه سوى أصحاب القلوب النقية والأنفس التواقة لَمسٍّ من الرحمن يسري ...

ودعت أبي بإيماءة مني عرف فيها توجهي لما دفعني إليه ، أومأ لي وكأن في إيماءته الرضا ، لكن ما أثار استغرابي حقيقة ، هو الحارس الذي رمقني في لحظة الدفن بلمعته الذهبية ، فقد كان الحارس حولنا يطوف حول الركب وكأنه غيمة تظلله ، ومن حين لآخر يلقي لي نظرة أحيانا ما كانت تثير في قلبي الرهبة والقلق .

ظللت جالسا في مجلسي ، وقد بدت " صفية " أكثر حنانا وأكثر ودا من ذي قبل ، فَمَنَّت عليَّ بقطعة من فطير أخرجته من حقيبتها ، فهان علي أن أشاركها زادها وهي الأكثر حاجة له ، وما كنت لأرفض طلبها ، فانتظرت قليلا حتى غاب البصر عني ، وبلمحة البصر خرجت من مكمني بالشنطة الخلفية وجلت قليلا بالعالم المحيط لأعود ومعي بعض عناقيد من عنب وبضعة تفاحات وبرتقال وتمر ، ولم أنس " فاطمة " في المانجو فأحضرت لها قنينة عصير طازجة ... أخفت " صفية " ابتسامتها المعجزة خلف تنكر مقنع عندما أعطيتها الفاكهة غير منتبهة أن هذه الفاكهة لا تجتمع بأرض واحدة في موسم واحد قط ، كان هناك من الرضا ما يخفي أي دهشة أو يلهي عن أي غريب ، غير أنه لم يفت على " شنودة " الذي ظل متطلعا الي طول الطريق ، وما أثار قلقي هو مكالمات كان يجريها بين الحين والآخر بتمتمة سمعت منها ما يفيد أنه يتحدث عني ... كان " ياسين " قلقا متوترا ، ينظر لنا بين الحين والآخر ، ويرمق " فاطمة " بنظرة خاصة يعقبها بابتسامة ل" صفية " في رسالة ذات مغزى أنها هي ضمان أمننا وأمنه ...

اقتربت السيارة من أول لجنة وكان ذلك أول اختبار ... وفي قوة ، نظر " ياسين " ل" صفية " ... "هاتي البت جنبي هنا " ... وعندما همت " صفية " بالممانعة أظهر " ياسين " لها بخفية من جيبه الخلفي مطواة حادة أفزعتنا جميعا لكن لم ترها " فاطمة " ، فقالت لها " صفية " وهي تكتم كلماتها ...

"روحي يا بطة أقعدي عند عمك " ياسين " قدام عشان تتفرجي علي مصر"...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

تخطت " فاطمة " ظهر المقعد لتجلس بجوار " ياسين " محاطة بنظراتنا جميعا ... أوقفنا الضابط ونظر في وجوهنا متشككا ... ثم نظر للنعش

الضابط – البقاء لله يا بهوات ... على فين العزم

" ياسين " – البقية في حياتك يا باشا ... طالعين ع البدرشين

الضابط – في الليل كده

"ياسين" – وهو اللي بيموت ليه ليل ولا صبح ...

نظر الضابط ل" شنودة " ولمح الصليب معلق في المرآة ، فأعاد النظر اليه وهو يتأمل في الرخصة التي سلمها له " شنودة "

الضابط – وانت معاهم ؟

" شنودة " – أنا سواق على باب الله يابيه ...

" ياسين " – " شنودة " برسوم سلامة ده حبيبنا وأخونا لزم ... ع الحلوة والمرة

أعاد الضابط النظر للرخصة فتأكد من صحة الاسم الثلاثي الذي ذكره "ياسين" والذي لم يكن يبغي منه شئ سوى إثبات رفقة " شنودة " معنا برضا وقناعة فلا يحاول التفلت أو التنصل .

أمر لنا الضابط بالمرور بعدما أعطى الرخصة ل" شنودة " الذي بدا ساخطا وهو ينظر لي بالمرآة وكأنني مسئول عن كل ما يجري منذ خرجنا من القرية ...

بعد مرورنا من الكمين ، أعاد " ياسين " " فاطمة " ل" صفية " ، وبينما هي تعبر الفاصل بين المقعدين ، إذا ب" ياسين " في حركة غريبة وعجيبة ، يمد يده بالمطواة فيجرح " شنودة " في ساعده الأيمن جرحا طويلا قاسيا ، فيصرخ "شنودة " بينما بحركة تلقائية مدت " صفية " يدها وغمت عيني " فاطمة " ... بينما نطق " ياسين " بصوت عميق يأتي من قبر أجوف ...

"ده بس عشان ما تقلش عقلك ... قال سواق على باب الله قال ... " ...

ظل " شنودة " يتأوه في صمت مكتوم وقد أمسك بساعده الأيمن وهو ينظر ل" ياسين " بغل شديد ...

" شنودة " – طب وانا أسوق إزاي دلوقتي

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

" ياسين " – تحب أخليك تسوق بايد واحدة

" شنودة " – دي آخرتها برضك ياسي " ياسين "

" ياسين " – مانا قلتلك حاحلي بؤك في آخر المتمة مش عاجبك ... قلت أقنعك بطريقتي ... مد " شنودة " يده فأخرج من التابلوه قطعة قماش قديمة فلفها على ذراعه ونظر لي في المرآة نظرة ملؤها الغضب والغيظ ، وانطلق بالسيارة وهو صامت مكبوت ... على بعد أمتار ، أوقف " شنودة " السيارة جانبا متأوها متألما ... ونظر ل" ياسين " ...

" شنودة " – فيه كنيسة هنا حاروح أغسل الجرح وألفه بحاجة نضيفة ...

" ياسين " – والنبي يا روح أمك ... فاكرني بريالة يالة ...

" شنودة " – ياسي " ياسين " حاسوق ازاي بس وهو أنا قادر أرفع ايدي ...

" ياسين " – طب خد الشيخ معاك

" شنودة " – ليه ...

" ياسين " – لأنه حيخاف على البطوط الصغير ... فمش حيخليك تعمل حاجة مجنونة ... مش كده يا شيخنا ... لحسن الوزة الكبيرة تاخد على خاطرها ...

" صفية " – اختشي يا " ياسين " مش كده

" ياسين " – لهو انتي فاكراني جاي من ورا الجاموسة زيكم ... الوشوشة اللي سامعها من أول الطريق واشي فطير على فاكهة راحة جاية وكأننا رايحين القناطر ، ماتتلمي يا بنت " معروف " لو عندك خشا ...

" صفية " – جرى ايه يا " ياسين "

" ياسين " – بس اخرسي يا بت ... وافتحي للشيخ ينزل يروح مع " شنودة " وييجوا ...و باقولكم كلكم اهه ، لو الشغلانة باظت ، يمين بالله ماحد فيكم حيبات له واحد قريب في سريره ... اللي ليه أم و لا أخت ولا حتى بنت خالة عم أبوه ، حتتجاب من محاشمها قدام طوب الأرض ، خلاص يا مشايخ منك له له لها ... ياللاه اخلص ورانا مشوار ياما ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

داخل الكنيسة كان الموقف أغرب مما يمكن وصفه ... فأي صفة لي لا تصلح للتواجد في هذا المكان ، خطواتي كانت معدودة من قبل كل من ينظر لي ، من جنس البشر أو من بني جنسنا الذين كانوا منتشرين في المداخل والمخارج البعض منهم يصلي والبعض يسبح والبعض منهم يجلس في سكون يترقب الداخلين ... بأحد الجوانب كانت هناك دورة مياة ، دخلها " شنودة " وهو صامت ساخط ، وقفت على الباب وقد لمحته واقفا يغسل ساعده وهو يئن في ألم ، مر بنا أحد القساوسة فلمح " شنودة " وهو يغسل ساعده فتوقف للحظة ثم ناداه ... اقترب منه " شنودة " وهو ينظر الي بعمق ... بدا أنهم يعرفون بعضهم البعض ، أو كأن هذا القس هو من كان يحادث " شنودة " هاتفيا منذ قليل ... سأله القسيس عما أصابه فأجابه أنه جرح أثناء تغيير عجلة السيارة ، نظر لي القس في استغراب شديد متأملا شكل لحيتي النابتة يتخللها البياض وجلبابي الأبيض المترب من الدفن ...

القس – ماتتفضل يا شيخ تريح وتشرب شاي ... إحنا أهل أصول برضه

أنا – تعيش ... إحنا حنمشي علطول ولا ايه يا " شنودة " ...

اقترب مني القس متوغلا في عيني بقوة ... ثم أعاد النظر ل" شنودة " ، وهمهم له ...

"طب استنانا انت على جنب يا " شنودة " ... "

انتحى " شنودة " جانبا بجوار الباب حريصا ألا يراه " ياسين " حتى لا يظن أننا وشينا به ... واقترب مني القس هامسا ...

- إسم الكريم إيه ؟
- عبد المحسن
- إيه اللي جابك نواحينا يا عبد المحسن
- " شنودة " كان آآآ ...
- عبد المحسن ... إنت عارف أنا قصدي ايه ...

نظرت من حولي فإذا بني جنسي قد التفوا حولي وامتلأ بهم المكان وهو ينظرون لي بفضول وتربص ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- رحالة والهمة من عند الله
- جنسك ايه وملتك ايه ؟
- مسلم وموحد ... من جن السودان
- دول اللي في المقطم
- مظبوط
- قاللي عليهم القمص سمعان بدير سمعان الخراز بالمقطم ... طبعا عارفه
- عارفه ...
- وأكيد شهدت معجزة نقل المقطم بما إنك عشت هناك ...
- كانت قبل ما تولد ، سمعت عنها زي ما سمعتم ...
- سمعت عنها ولسة مش عايز تقبل الخلاص على ايد يسوع

اقتربت منه في تركيز شديد ...

- أيها القس التقي ... أيهما أهم ... الطريق أم الوجهة ؟
- إن ضاع الطريق ضاعت الوجهة
- فلو كانت الوجهة هي الله ... فكيف تضيع ؟

نظر لي القس ثم بدأ يتمتم بكلمات عرفت فيها تعويذة مسيحية لصرف الجن ، التف على إثرها عدد غير قليل من بني جنسي من حولي ... غير أنه في لحظة عجيبة انفض الجمع فجأة ، على إثر اقتراب الحارس ذو اللمعة الذهبية ، عندها التفتتُ إلى " شنودة " وهممت بالانصراف ، فسمعت القس من خلفي ينادي ...

القس – عبد المحسن ...

التفتت له في صمت ، فأضاف ...

القس – منذ قديم لم أشهد ذلك ... أسأل الله آن يحملك لوجهتك في سلام

فرددت قائلا ...

"إن توحدت الوجهة ، التقى المسافرون ... لعلنا نلتقي مرة أخرى أيها القس الكريم ... " ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

أجابني رافعا يده في سلام ... "سنلتقي يا عبد المحسن . . سنلتقي"

انصرفت ووراءي " شنودة " مشدوها ، وقد بدا له أنني خارج قدراته العقلية ، حتى أن قرينه بدا متهربا مني متحيرا ... دخلنا السيارة وكان يبدو واضحا أن حوارا ما كان يدور في السيارة بين " ياسين " و" صفية " ، حيث كان واضحا الدمع بعيني " صفية " ، بحثت عن " فاطمة " فوجدتها مكانها بجوارها ، بينما كان " ياسين " يلف سيجارة يبدو واضحا فيها مخدرا عطنا يمتزج بأوراقها كثعبان وحية يتعانقان ... "تعال جنبي هنا يا شيخ" . . قالها لي وفتح باب السيارة ونزل كأنه يوسع لي داخلها ... نظرت ل" صفية " ، فقد كان مجلسي بجواره يحرمني من القرب منها ... لكن كان رب العالمين رحيما بي ، حيث كانت صورتها في المرآة لصيقة بعيني طول الطريق ...

جلست مكاني بين " ياسين " و" شنودة " وأمامي مرآة عريضة تبدو بها صورة " صفية " حتى صارت المرآة نافذة على عالمي الآخر ... ومن حين لآخر كانت " صفية " تلتفت لي في المرآة فتتلاقى الأعين فيرتعش القلب ارتعاشته المعهودة التي اعتدت عليها منذ عرفت عينيها ...

القلب ... ذاك الشيء الفائق الإحساس ... ما هو ؟ ... كيف يعمل ؟ ... هل هو قطعة اللحم التي تكمن في أجساد الإنس ولا أعلم أهي بنا أم لا ؟ ... أم هي شيئ آخر يذوب بدمائنا فيتخلل كل أعظمنا ويسكن فيها ... حتى إذا وقعت أعيننا على مرأى من نحب انتفضت كل جوارحنا ... وصارت كألف عين ماء تفجرت في لحظة ... وعندها فاجأني السؤال الذي أفزعني ... والذي كنت أهرب منه منذ خرجنا في هذه الرحلة العجيبة ... هل مازال في قلبك مكان لحب رب العالمين ؟ ... فزعت ، فمنذ خرجت وارتحلت وقد كنت أنتوي فقط مرافقة شيخي المبارك ، ثم تحول الترحال للأكرمين و" عبد القادر طوليد " لاستكمال مسيرة الوصول لرب العالمين ، أما الآن فأنا فقط أتوق لصحبتها ولو ذهبت لأقصى الأرض ... كنت وأنا في أول الطريق لا أسكن عن الذكر ولا يتوقف اللسان للحظة عن الترنم باسمه ، والآن أنا بالكاد أقوم بالفرائض وبعض الأذكار الرتيبة ... يا إلهي ... هل هذه فتنتك التي أصبتني بها ... هل هذا

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

الذي أصابني هو ما سيبعدني عنك ؟ ... هل تكون " صفية " هي هلاكي ... يا رب . . يا واصل المنقطعين أوصلني إليك ...

كانت نظراتها في المرآة مختلفة ، ففي هذه المرة كان بها ما يشبه الاستغاثة أو الاستنجاد ، حاولت أن أعرف من قرينها ما يجري لكنه امتنع ، كانت رغبتها في الكتمان أقوى من قرينها المرافق لها كظلها ... نظرت ل" ياسين " رأيت على وجهه علامات الاطمئنان والهدوء وكأنه حاز نصرا قريبا ...

وصلنا لأطراف مدينة ٦ أكتوبر حسبما تقول اللافتات لنبدأ طريق الواحات ، وقد هبطت علينا الظلمة وتخطينا العشاء ، توقفنا لملء السيارة بالوقود حسبما قال " شنودة " حيث أن الطريق ليس به إلا محطة واحدة بعد حوالي ٣٠٠ كم ... ثم توقفنا مرة أخرى أمام كافيتريا لنتناول طعام العشاء ... حيث جلس " ياسين " على مائدة وحده ، و" شنودة " كذلك جلس على مائدة وحده متأوها منعزلا عنا جميعا ، وجلست مع " صفية " و" فاطمة " على مائدة واحدة ... كانت " صفية " واهمة واجمة يبدو واضحا من أثر حديث " ياسين " ، و عقلي متصارعا ما بين قلقي عليها وما بين هاجسي بأن يكون حبي ل" صفية " هو فتنتي ... بعد فترة صمت سألتها ...

أنا – مالك يا ست " صفية "

" صفية " – ماليش يا شيخ محسن

- من ساعة ما طلعنا م الكنيسة وانتي مش انت
- سيبني في اللي انا فيه يا شيخ الله يباركلك
- ماقدرش يا ست " صفية " وانتي عارفة
- تقدر يا شيخ ... وما تزودش عليا أحمالي
- بس قولي يمكن أقدر أشيل معاكي ...

نظرت في عيني في صمت ... ثم قالت

- تتجوزني يا شيخ محسن ... ؟

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

لم أفهم قبلا معنى أن يقف الإنسان متسمرا مذهولا أمام شيء ما وكنت أعزيه لضعف بهم فرضته عليهم طبيعتهم الإنسية ، حتى تسمرت – وأنا الجني فائق القوة بالنسبة لهم – أمام قولها ونظرة عينيها وهي تصرخ مستنجدة أمامي ... هاهي ... من عشقتها في صمت بضع وعشرون عاما ... وأنا أترقب خطوتها وحركتها ونظرتها ... وأنا لا أطيق أن يمر يوم بدون مرآها ... وأنا أصارع نفسي بين حبي لها وحبي لربي وأستغفره من جرأة اللفظ والتقرين بين حبه وحب آخر ... هذه المرأة الان جالسة أمامي تنظر بعيني في منتهى الضعف ، تستنجد وتستغيث وتطلب مني أن أكون زوجها ... رفيق عمرها ... مالكها ومملوكها ... طوال العمر ... وليس لي خيار سوى الرفض !!! . .

لم تكن حيرتي في كنه الرد ، كانت حيرتي في طريقته وأسلوبه ... والثواني تمر أعواما ثقال ... ومازالت نظرتها المستنجدة تمسك بتلابيب عيني كغريق يمسك بأغصان شجرة متدلية ... سبحانك يارب العالمين ... هل إيماني وصل لهذا الحد من الابتلاء أم أن الشيطان يحكم على عقدته الأخيرة ... وقبل أن أكمل تفكيري وردي أدركت أن مهلتي قد انتهت حين قامت من فورها ساحبة طفلتها بعنف وتهرع خارجة من المطعم ، ليجري ورائها " ياسين " وقد ألقى جهازه المحمول من يديه وأحس بالفزع ... وقف " ياسين " أمامها فوقفت أمامه بتحد من يلقى بورقته الأخيرة ...

" صفية " – حل عني يا سي " ياسين " خليني أمشي من هنا ، أنا لا ليا في الشغلانة دي ولا يتخاف مني ... أنا ليا أهل أخاف عليهم وإنت لسة قايل ... اللي عنده حد بيحبه يخاف عليه

" ياسين " – وأنا ليه يبقى ابني على كتفي وأدور عليه ... نروح ونرجع يا بنت الناس ... والطريق سكتنا وسكتك

" صفية " – مااتفقناش على كده يا سي " ياسين " ... أنا كنت عايزة أروح الصعيد ... وإنا واخد مني دبلة بالشيئ الفلاني ، خدها يا سيدي حلال عليك بس سيبني أروح ...

" ياسين " – واتفاقنا يا بت " معروف " ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

نظرت لي بحدة وكأنها تحملني مسئولية اتفاق لا أعلم عنه شيئا ، لكنني فهمت أنها بصدد السقوط بنفسها في نفق مظلم ... عندها وبدون وعي مني قمت فجأة وبسرعة لم يعيها أحد بالمكان كنت قد أصبحت بجوارها وبمواجهته

أنا – سي " ياسين " ... أنا والست " صفية " متجوزين

بين دهشة " صفية " وغضبة " ياسين " وذهول " شنودة " وقفت مثبتا ناظري لعيني " ياسين " بقوة وبتركيز

" ياسين " – نعم يا روح أمك ...

أنا – متجوزين بقالنا سنة ونص ، بعد طلاقها بسنة ... بس ماكناش عايزين نقول عشان إبن أبو يوسف ما ياخدش البت ... وأول ما الشيخ اتوفى اتفقنا نطلع على الصعيد ونعيش هناك ...

تردد " ياسين " للحظة حتى تصاعد الغضب باديا في وجنتيه المظلمتين فتضرجا إحمرارا ...

" ياسين " – بأة كده ، طب بروح امكم انتوا الجوز ماحد حيخطي برجله برة العربية دي لحد ما نوصل ونسلم ونرجع ... لما نشوف بأة شغل الحلمنتيشي بتاع المشايخ حيمشي ولا شغل برتيتة أبوحباجة ... ياللا فز يا " شنودة " خلينا نتحرك

قالها وخرج كالسهم المحترق ينفث ناره من كافة جنباته بينما وقفت بين الجميع أتلقى كافة أنواع النظرات من " صفية " ومن " شنودة " ... كانت " صفية " تنظر لي بمزيج من الامتنان والحنان والشكر ، وقليل من الود الذي بدأت أعتاده من عينيها الدافئتين دوما ، وهو ما زاد صراعي مع نفسي المتفلتة ، أما " شنودة " فقد بدا مذهولا ، فقد تشتت أفكاره وتباعدت أخيلته وكل ما كان قد استقر عليه في نفسه ... غير أنه يبدو قد عاند نفسه وقرر الاستقرار على ما استقر في ذهنه وربما ما صارحه به القس الذي التقينا به فإذا ب" شنودة " ينفخ حانقا ويتركنا ويسير مسرعا للسيارة وهو يتمتم "أعوذ بالله ... أعوذ بالله " ... تجاهلته " صفية " تماما ونظرت لي بعينين تذيبان كوكب المشترى ...

" صفية " – كدبة بيضا دي يا شيخ عبمحسن ... ؟

أنا – دي إجابة سؤالك يا ست " صفية "

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

" صفية " – ماتخافش مش حاقلبها جد ... حنفضل زي ماحنا لحد ما نرجع ، بس أبأة ف حماية راجل ... مع إن ربك هو الحامي

أنا – دي مش كدبة يا ست " صفية " ... أنا عرضت عليكي الجواز وانتي رضيتي وفيه اتنين شهود ... يعني دة جواز شرعي مش ناقصه غير ورقة مأذون

" صفية " – يعني ايه يا خويا ؟

– يعني انتي اللي لو عايزة ترجعي يا ست " صفية " ... أنا رديت سؤالك ... وربنا شاهد ع اللي بيني وبينك ...

بدلال قاهر ... التفت خارجة وهي تبتسم في خفية ظاهرة كما الشمس حين تبدو من خلف غلالة الفجر

– أنا ؟ ... وأنا حارجع ليه ... ؟

... ...

...

أيها العاق ... أيها الكاذب ... أيها المارق ... يا لعنة الله على أرضه ... يا بن ابليس الذي أنجبه بنشوة مدنسة ... ما الذي تفعله يا خائن العهد ؟ ... أنت تتزوج " صفية " ؟ ... هل تعدها بما تملك أم بما لا تستطيع ؟ ... هل ستصارحها أم ستدلس عليها كما الأنذال من الإنس ؟ ... هل ستعقد عليها عقد شرعيا على شرع رب عليك غاضب؟ ... وسنة نبي نهى عما أنت فاعله؟ ... هل ستضاجعها في ليلة الزفاف باحليلك شبيه الثعبان ، أم ستعاود التشكل برجال الأرض ... أنت يا من تزعم الارتحال لرب يكره الخوانين ويلقيهم بآخر الدركات ... أنت يا من قضيت أعواما تزعم إخلاصا مزعوما أيها المنافق معلوم النفاق ، هذا نتاج تفلت قلب لم يخلق بجوفك إلا لعلمه جلا وعلا بضعفك وخورك أيها المسخ مجهول الهوية ... تائه بين كونين ... بين عالمين ، ولربما تسقط بينهما في أسفل هاوية ...

كاذب ...

كاذب أنت منذ الخليقة ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

حتى صار الكذب في نفسك حقيقة ...

فارتحت له وظننته صدقا ...

وأنت إن رأيت وجهك بجدول صاف ...

فلن تطيقه ...

قبعت بمكاني بجوار " ياسين " ، أتحاشى النظر بوجه " صفية " وقد كان منتهى أملي أن تبيت عيني على راحة جفنيها ، لكن لو كانت لي القدرة على البكاء كما الإنس ... لسبح اهل البلدة في بحيرتي المتدفقة ... فأخفيت في صدري همي وغمي ... ومضيت أتحاشى حتى الذكر خجلا ، أما الحارس الذي مازلت أراه بلمعته الذهبية ، فما أظنه إلا متعقبي وحارقي ... ومن لم يُحْرَق بالعِشْقِ ..... حُرِقَ بِغَيْرِه ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

العودة

الحياة ... قد تصبح أحيانا أكثر تعقيدا مما نتخيل ، وقد تكون أبسط من لعب الأطفال في سن الرضاع ، يتوقف الأمر على زاوية رؤيتك التي تضيق وتتسع حسبما الموقف والزمان والمكان ... فالبعض يراها في مستوياتها الدنيا سباقاً محموماً يشوبه اللهاث الساخن وراء كَمّ مـــــــــــــــن المشتهيات والمرغوبات التي لا تنتهي ، والتي غالبا ما تنتقل من الرغبة فقط إلى الاحتياج ثم إلى حتمية الحصول عليها ... وتتصاعد أهمية مشتهيات الإنسان بسبب تصاعد رغبته فيها وليس بازدياد أهميتها ، ثم تتعالى النظرة قليلا ، فيتحول الأمر ... إلى مجرد صراع دنيوي عام مجرد ما بين رغبات وإمكانيات ... ولو تعالينا قليلا ، لرأيناها وهماً يصارعه وهمٌ ويقهره أوهام ... وعندما تصل للحقيقة المطلقة ، لا ترى الحياة إلا لحظة تغييب مارقة ، تماما كراكب سيارة مسرعة متأملا في جنان وحقول وأنهار وألوان شتى ، ثم يعترضه فجأة بيت يقوم وحده بجانب الطريق ، فيحجب عنه الرؤية مسافة ما يمر منه ، ثم تنتهي لحظة الاحتجاب ليمر الراكب مكملا متعته بالجنان المترامية الأطراف ، فما الحياة كلها ، بكل ما فيها إلا هذه اللحظة التي احتجب فيها النظر ... كان شيخي يعلمني أن شوقنا إلى الله ونزوعنا له ليس إلا رجوعا لما كنا عليه قبل الحياة ، كالمسافر المغترب الذي يحن لوطنه ، والذي لا يشتاق يتوه ويغترب كمن ليس له وطنا ، والأفدح حين يتخذ العبد من إغترابه وطنا فيخسر جذوره وتاريخه وكينونته ... يخسر نفسه ... "نسوا الله فأنساهم أنفسهم" ...

هذا الاشتياق وهذا الحنين ، حنين العودة ، ليس فقط العودة الجسدية لما كنا عليه قبل الخلق بمعية الله وكنفه وجواره القدسي ، بل هي عودة روحية ، حينما نزيغ بعيدا عن رضاه ومبتغاه ، فيأخذنا الحنين ، فجفاء المحبين أقسى أنواع الإغتراب ... ورب العالمين ... هو أغلى من نحب

وأنا في خضم ضرب السياط النحاسية فوق جسدي الناري أعادتني ذاكرتي ليوم مع شيخي وسيدي "أبو العلا" ، وقد كنا في زيارة لأحد السادة الكرام رفقاء الشيخ في بلدة قريبة من

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

طنطا ، ومررنا في طريقنا بمسجد "السيد البدوي" الشاهق ، فصلينا الظهر ، ثم خرجنا نتسوق هدية الزيارة من محال الحلويات القريبة من المسجد ، فما تعود شيخي أن يقدم على أحباءه إلا وهو يحمل لهم ما يحلي لهم أفواههم ، صلينا الظهر ، وبينما نحن خروج من المسجد إذا بإمرأة منقبة تعترض طريق الشيخ عنوة وهي تنادي ...

"يا شيخ . . يا شيخ " ...

ولم يكن "سيدي أبو العلا" يحب مطاردة الشحاذون وعوارض الطريق من باعة وغيرهم ، وخاصة النساء منهم ، فكان يعرض عنهم بسرعة ولربما نالهم منه من التوبيخ والتعنيف ما يكرهون وما لا يعيدهم مرة أخرى ، فأعرض عنها الشيخ وقمت بدوري الطبيعي في نهر المرأة وابعادها عن طريقه ، إلا أنها تفلتت مني ومضت تطارده ، وهي تنادي بإصرار ... "يا شيخ ... يا شيخ " ... التفت اليها الشيخ ناهرا بقوة ...

"عايزة ايه يا ولية ... ماعناش ... ماتتهدوا ف بيوتكم بأة ...ماعناش ..."

توقفت المرأة و واجهته بقوة ، فأسرعتُ بدوري حتى وقفت بجوار الشيخ فنظرت لها فإذا بها تبدو حاجبة لحسن باهر لم يخف النقاب إلا أهونه ، بينما بدت العين من شق النقاب واسعة مستديرة بلون عسلي فاتح أقرب للإخضرار مكحلة طبيعيا بدون ريشة أو سواد وبنظرة طفولية تحمل دهشة الأطفال وبرائتهم الصافية ... بينما بدا أعلى وجنتيها شاهق البياض مشرب بحمرة ينم عن واحدة من حور الدنيا إن حل لحور الجنة أن ينجبن ... وما زاد الأمر قهرا وزاد طعنها حدة . هو ما شاب عينيها الطفوليتين من إحمرار يبدو مقدمة دموع تأتي كغيمة في الأفق قادمة ...

"الله يسامحك يا شيخ ويستر على ولاياك ... مانيش عايزة منك لا أحمر ولا أسود ..."

صمت "سيدي أبو العلا " لوهلة لا أدري هل أصابه ذلك الغزو الهائل من جيش السحر المحشود بعينيها أم أنه صمت تهدئة لخاطره من أنه أساء بها الظن فاستشعر الحرج ، نظرت لعينيه فوجدتهما مغلقتين ، فتمتمت :

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

"حصن نفسه ذلك المتمرس على حفظ جوارحه"

"سيدي أبو العلا" – خير يا ست ...

المرأة – لو تقدر تصلي العصر معانا هنا يا شيخ

- ليه يا ست خير إن شاء الله ...
- خير ... إنت بس قضي مشوارك وتعال ينوبك ثواب
- ياست آجي ليه بس أنا مش فاضيلك
- أمانة حتوصلها
- أمانة ؟!!! ... يا ست وهو أنا أعرفك ولا تعرفيني ، أمانة إيه وحاوصلها لمين ؟
- تعرفني يا شيخ ، وتعرف صاحب الأمانة وحتوصلها بإذن المولى ، بس صلي العصر معانا .

قالتها وانصرفت بسرعة ، تاركة كل منا يسبح في بحر من الحيرة ليس له قاع ولا سماء ... وقف الشيخ مذهولا متعجبا يتمتم ...

"يخرب بيت شيطانك با بعيدة ... قلبتي كياننا وهربتي زي حية لدعت وجريت ... مين دي وعايزة إيه ؟" ...

كان بمقدور الشيخ لو أراد المعرفة أن يأمرني فعرفت من قرينها كل أسرارها لكن عهدي معه وعهده معي وعهدنا مع ربنا قد أنهى هذه الشبهة من قديم ... فسار وهو يضرب كفا بكف وقد أُسرِ بالُهُ في لحظة وشُدَّ وثاقُهُ حتى بدت علامات قيده على عينيه ووجهه .

قضينا قرابة الساعتين عند الصديق الرفيق ، وقد بدا على الشيخ شدة الحيرة والضيق ، حكى لصديقه المشهد بكامله فرد عليه :

الصديق – يا مولانا تلاقيها شحاتة بس بطريقة جديدة ... دول عفاريت ، بيطلعولك كل يوم قصة ورواية ... إشي معيش فلوس أسافر ، على ابني ف المستشفى ، على جوزي عيان وعايزة الدوا ... تلاقيها عايزة تحكيلك قصة تاخد من ورواها قرشين

"سيدي أبو العلا" – طب وهي ليه تستنى للعصر ، ماكانت حكت وخلصت وخادت اللي فيه القسمة

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

الصديق – عيب يا شيخ ، دي لعبتها صح ، شغلت بالك وخضتك ، لو رجعت حتبقى الخية اتحبكت وحتطلعلها كل اللي ف جيبك ولو ما رجعتش أهي حتلاقي غيرك ... تلاقيها قايلة لعشرة زيك الكلام ده

الشيخ – لا ماظنش ، ما شفتش ف وشها دلائل النصب والاحتيال

الصديق – إنت شفت وشها يا أبو العلا ؟ ... صابك السهم يابو " ياسين " ...

نظرت لوجه "سيدي أبو العلا" فوجدت فيه احمرارا بدا فيه واضحا أثار طعنات عيني المرأة فبدا أن كلام الصديق فتح جروح العين وألم القلب ... فأطرق الشيخ رأسه مغمغما ... "لا حول ولا قوة إلا بالله ... "

خرجنا للطريق لا أعلم إلى أين سنتجه ، إلى الموقف حيث نستقل السيارة راجعين أم إلى مسجد " السيد البدوي" حيث نذهب لموعد المرأة المنقبة جارحة العينين ... بيد أن الشيخ في مساره بدا وكأنه يتجه للموقف رأسا ، وقد أسرع الخطا حتى أنني كنت أمد الخطو بجواره ... هممت أن أسأله عن موعد المرأة ، فهالني ما رأيته على وجهه من هم ... فسكتت ... كان يتمتم في سره وكأنه يدفع عن نفسه وسواساً لازمه ، ولولا ما كان بيني وبينه من عهد لأخبرته عن ذلك الشيطان الذي كان يدور حول رأسه كغراب بيدين وقدمين وستة أجنحة مهترئة كأجنحة الذباب أكاد أسمع طنينه في أذني ... فخشيت على سيدي وشيخي لكن هكذا قدر الله منذ الأزل "إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم" ... كان يجادل نفسه بقوة وحزم ...

" أكيد شحاتة ونصابة ... انت كده خلقتك فقرية بيفتكروك مجذوب ... مانت لو سمعت كلام أم " ياسين " واشتريتلك جبة وقفطان ... ماكانش اتلم عليك كلاب السكك ... "...

سمعت شيطانه وقد لزم أعلى كتفه الأيسر ومضى يهمس في أذنه اليسرى بصوت لا يختلف عن صوته ذرة حتى أنني ذهلت من جرأة هذا الملعون ألا يخاف من الاحتراق ، وتمنيت أن يتعوذ الشيخ لكن كان صوت الشيطان أقرب ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

الشيطان – كده برضك يا أبو العلا ، ... بتقول ع الست من كلاب السكك وانت ماتعرفهاش أصلا ... وافترض كان صاحبة حاجة ولا هو يعني أصحاب الحوايج لازم يخبطوا على بابك ... توقف فجأة ، عاد بنظره في اتجاه المسجد الشاهقة مآذنه ، وهم بالرجوع ... فغالبت نفسي وحدثته ، فصار حديثنا ثلاثيا ... هو وأنا وشيطانه ...

أنا – حنتأخر يا سيدي ع الست أم " ياسين "

نظر لي الشيطان نظرة حادة يشوبها احمرار الغضب وكأنني لمحت آخرين يسبحون في الأفق قادمين لكنهم ابتعدوا بنظرة الشيطان الذي بدا أنه من كبراءهم الملعونين ... كنت أشمئز منهم بأجنحتهم المهترئة وكنا نتحاشاهم فهم غلاظ ماكرين يجيدون نسج السوء وصنع الكيد ، وكم خطفوا العديد منا وألقوه بغيابات لا يعلمها إلا الله ... عاود الشيطان همسه بهدوء ...

الشيطان – وهو من إمتى الستات بيخبطوا على ابواب المشايخ ...

أبو العلا – (استدار في اتجاه الموقف) لأ بيخبطوا ... مش مهم لوعايزاني تجيلي

الشيطان – الشيخ أبو العلا اللي بيجوله من كل ناحية

توقف مرة أخرى ...

أبو العلا – الله يلعنك عبد سو ... عايز الولية تسعالك

أنا – يا مولانا العربية حتطلع واللي بعديها كمان ساعة

الشيطان – دا البنية كانت عينيها حمرا م البكا ...

أبو العلا – (عاد ببصره للمسجد مرة أخرى) . .كانت شايلة هم ما يتلم

الشيطان – وشكلها صغيرة ع الهم ده

أبو العلا – وتلاقيها لا تعرفله سكة ولا حل

الشيطان – وبصراحة عينيها كانت ... ياللا راحت لحالها ...

توقف وبدأ ينظر للجامع وبدت في عينيه نظرة أعرفها جيدا ... لقد إستطاع الملعون أن يستعيد صورتها بعيني الشيخ فأطلق سهمه المسموم بقلبه

الشيطان – تلاقيها مستنية ... غالبا حتيأس بعد شوية ... طب ممكن نروح ونمشي علطول

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

أنا – العربية يا سيدنا

الشيطان – أو أروح من غير ما أبصلها أصلا ...

أبو العلا – توكلنا على الله

سار الشيخ حثيثا نحو المسجد ، وهو يتنفس بصعوبة ومضى يدعو في سره بكافة أدعية الحفظ ، لكنها كانت جميعا بلا فائدة ، حتى أنه ألقى التعوذ المانع الجامع الذي تعوده لكنه لم يعمل ، كان القلب في واد آخر ، وكنا نسير وحولنا موكب من الشياطين المواكبة لنا وقد ركب أحدهم فوق كتف سيدي الأيسر ومازال يهمس له ، وأنا أعتصر ألما ألا أستطيع له شيئا ...

وقفنا على بوابة المسجد نتلفت يمنة ويسرة وقد بدا على الشيخ لهفته ، ومضيت في صمت أبحث أنا الآخر داعيا في قلبي أن تنتهي هذه التجربة على خير ...

من على البعد بدت بنقابها وبقامتها المتوسطة ، قادمة في اتجاهها ، فانشرح وجه الشيخ وبدت عليه علامات السرور ، لكنها ما ان اقتربت حتى اكتشفنا أنها ليست هي التي ننتظرها ... فبدا على وجهه الإحباط ... ما تعجبت له هو ذاك الشيطان الذي بدا راكبا على كتفها هي الأخرى ، ونظرت من حولي ففوجئت بأننا محاطين باحتفالية من الشياطين فوق أكتاف النساء وكلهم يتعمدون توجيههن أمام عيني الشيخ ، فعرفت خطتهم الملعونة ، إنهم يريدون إثارة لهفته الساخنة فيزيدون من تعلقه ، لقد كانوا يتلاعبون به كما الكرة بين أقدام الأطفال في الحفل المجاور لبيتنا ، لم أستطع البقاء صامتا وشيخي بدا حائرا هائما ينظر بعيني كل إمرأة تصادفه ، فتنهمر السهام على قلبه أمطارا ... فتحركت من فوري نحو أحد الباعة الذين يجلسون أمام المسجد ، فسألته عن تلك المنقبة وشرحت له حالها ، فضحك حتى استلقى راجعا للخلف ...

البائع – هي عملتها معاكم بنت الأبالسة

أنا – مين دي ؟

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

البائع – البت دوسة ... عارف عيونها تهوس بنت الكلب ، بس مافهاش غير العيون دي ، وهي عارفة إنها بتسطل اللي بيشوفها ، وخصوصا لما تطلع فحل البصل وتدشه ف وشها قبل ما تتحرك ، وتعمل الشويتين بتوع تعالالي ع العصر مش كده ...

نظرت للشيخ من خلفي الذي وقف يتسمع كلام البائع ، فنظر لي نظرة حزن وانكسار هائلة تبعها بإطراقة ثم تحرك في اتجاه الموقف راجعا للقرية ...

كانت هذه الليلة مقدمة لليالٍ سوداء من ليالي الحزن ، عندما عاد سيدي لبيته دخل حجرته وأغلق بابه وظللت أسمع نهنهته طوال النهار لا يسمعها غيري ...

ومما زاد الطين بلة حينما نام بعد العشاء ، فصحا وقت الفجر وقد فاته قيام الليل ... فقام على صوت الآذان منزعجا ، كنت في حجرتي بالسطح أتأمل في نجوم السماء حين سمعته يلعن ويسب نفسه وذاته الملعونة التي ألقت عليه النوم حتى الفجر ... فارتعدت وجريت له مسرعا ... كان قد لبس ملابسه وانطلق يعدو في الطريق الخلفية التي التقيته فيها المرة الأولى ... رآني ولمحت عينيه مجهدة محمرة ... فمضى يخطو مسرعا وهو يلملم عبائته التي تفلتت خلفه من سرعته وأكاد أسمع ضربات قلبه المخنوق تخترق صدره وهو يتحدث مخنوق الصوت متهدج العبرات يهتز صوته مع تتابع خطواته وأنفاسه

"ربك جافاني يابن نصيبين ...

القلب ... القلب فلت مني ف لحظة ومش عارف يرجع ...

قلب كداب منافق يابن نصيبين ...

إتعلم هي قلوب البشر كده ...

قلب بيتقلب زي الساقية ...

ربك جافاني يابن نصيبين ... ومعاه حق ...

المحبوب اللي يتطلع على قلب محبوبه يلقاه متعلق بالدنايا ...

مايستاهلش وصاله ... "

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

هنا توقف فجأة ... هبط مقرفصا وكأن قدميه ماعادتا تحملانه واستند بيمناه على الأرض وهو يبكي وحده

"ربك جافاني يابن نصيبين ...

حبيبي جافاني يابن نصيبين ...

حبيبي زعلان ...

الملك بعدني عن ملكوته ...

هلكت وهلكت روحي يابن نصيبين ..."

أنا – ماتقولشي كده ياسيدنا ... ربنا غفور رحيم

نطق بدون أن ينظر الي وهو مازال مستندا بذراعه اليمني على الأرض يحاول النهوض ولايستطيع ...

- عارف إنه حيغفر ... بس مين الحبيب اللي بيدورع المغفرة ... الحبيب بيدورع الوصال ...
- وربنا ما بيقطعش وصاله يا سيدنا إنت اللي قلتلي كده ...
- الوصال ده حبل ما بين ربك وقلبك ... ربك عمره ما بيرمي طرفه ... بس القلب لو رمى ينقطع الوصل ... وأنا قلبي رمى يابن نصيبين ...
- ماتقولش كده يا سيدي

قام فجأة والتفت الي وقد احمرت عيناه من الدمع ... رد ثائرا وكأنه ثي يورته علي ، يفزغ ثورته على نفسه التي عصته وعاندته ...

- ماصحانيش ... مش عايزني ... مش عايز يقابلني ... ٤٠ سنة ... ٤٠ سنة يابن نصيبين باصحي أقابله كل ليلة قبل الفجر ... يمسني بمس من رحمته مايحلالي النوم من غيره ... ٤٠ سنة لا عمر صحاني حد ولا منبه ولا حتى صوت ديك ف وسط الليل ، ٤٠ سنة باصحى لما يريد يرد فيا الروح لجل ما التقيه ... النهاردة مارضيش ... مش عايز يشوفني ... مش عايز القلب الوسخ المدنس يقف قدامه ... طب حاقوله ايه ... اقوله بعت وصالك بعيون بنت أد ولادي ... عيون رشقت قلبي بسهم مش عايز يطلع ... أقوله لسايا متعلق

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

بالأرض بعد ما كنت بايع الدنيا وما فيها ؟ ... أقوله جلالك وجمالك وقربك و ودك ... ماساواش عيون مَرَة من خلقك ؟ ... ربك بيغير على قلب عبده يا بن نصيبين ... ربك غيور يا بن نصيبين ... وأنا قلبي خانه ... ربك جافاني يابن نصيبين ... ربك جافاني يابن نصيبين ...

التفت وهو مطأطئ الرأس حزين ... ومضى يكررها وهو يتخبط في مشيه كالسكران ... ولم أدر ماذا أفعل سوى أنني تبعته ودعوت له من داخلي أن يرحمه ربه ...

مضت الليالي التاليات بنفس الوتيرة ... الشيخ يصحو فجرا ولا يصلي القيام ، فيصحو على بكاء كاد منه أن يفقد عيناه من القهر ، وامتنع عن الطعام والشراب حتى أن أم " ياسين " أبدت قلقها على صحته ، أما هو فكأنه كان يعاقب نفسه ، فلم يأكل أياما سوى خبزات جافات لا يستسغها حيوان هائم جائع ، وشربات من الماء ، حتى هزل جسمه ومضى يتهاوى شيئا فشيئا ... هجر الأصدقاء واهل القرية جميعهم ... أوقف القمرية الخاص بهذا الشهر ... لم يعد قادرا أن يلتقي أحدا ... كانه لا يعيش معنا ... يقضي النهار بين قراءة القرآن وهو بالكاد لا ينطق حرفين إلا ويخونه صوته وعبراته ... ثم يخرج هائما وحده في الزرع المحيط بالبيت حتى قبيل المغرب ... فيجلس وحيدا بعيدا يتلو أذكار المساء وقد حرمني أن أرافقه كما اعتدنا ... يسير في كل صلاة للمسجد مترنحا هائما كأنه مجذوب فقد عقله ... ثم يعود ليجلس فوق السطح حتى يهبط الليل فيخونه جسده فيسقط متهاويا ... فأسنده أنا وأم ياسين حتي يهبط لغرفته ... استبدل فراشه بالأرض حتى لا يأخذه النوم ... لكن هيهات ... عرضت عليه يوما أن ينام بجواري وسأوقظه بنفسي ، لكنه رفض بغضب وبكاء عارم ...

" يا قليل العقل والقلب ، ... وانتي فكرك لو مش عايزني ... حيفرق مين يصحيني ومين لأ ... أَكَم من بشر بيقفوله بالليل والنهار وصلواتهم تتلف في خرقة وسخة وتترمي ف عينيهم ... يابن نصيبين ... أنا مش باقف عشان أقضيهم ركعات علي وأنام ... يابن نصيبين أنا غرضي الوصال ... " ... وانصرف عني وهو يتمتم باكيا ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

"شفت يا ابو العلا إزاي هنت عليه ... جه اليوم اللي بيزقوك عشان تروحله ... جه اليوم اللي بيعرض عليك عبد من عبيده إنه ياخد بايدك ليه ... أد كده جافاك ... يااه ... دانت كنت وحش أوي يا عبد السو ... وحش أوي ... " ظل يكررها وهو يبكي بحرقة حتى تمنيت أني لم أقلها ...

استمرت المأساة ، والشيخ أمامنا يذوي كشمعة محترقة لم يعد فيها ما يغري بالاشتعال ... حتى أتت ليلة ، كنت جالسا فيها فوق السطوح ... أتأمل في السماء قبل الفجر بسويعات ، حين رأيته صاعدا وقد ذبلت عيناه حتى صارتا كحبتين عنب متكرمشتين وقد بدا تحتهما أكياس سوداء ... مضى وجلس فوق السطوح ووراءه أم ياسين ... فعلمت منها أنه قرر ألا ينام من هذه الليلة انتظارا للقيام الذي حرم منه قرابة الخمس ليال ... سار حتى وقف بوسط السطح ... ثم كبر للصلاة ... ولم ينطق بأي شيء ... فقط أرخى يديه بجواره ... وأغمض عينيه وأطرق برأسه ... ظل واقفا على هذه الحال قرابة ربع الساعة ... ثم قرأ "قل هو الله أحد " ثم أكمل الركعة الأولى ... ثم فعل في الثانية مثلما فعل في الأولى . . وقفة طويلة لمدة ربع ساعة لا ينطق فيها ... ثم يقرأ "قل هو الله أحد" ... ثم يكمل الركعة الثانية ... حتى أنهى الصلاة مع آذان الفجر ... ومضينا للإجتماع اليومي في صلاة الفجر بالمسجد لا يتكلم ولا يتحدث ... جامد الوجه جامد الدمع في الأحداق ...

تكررت هذه الليلة أسبوعين كاملين ... بنفس طقوسها ... في آخرها سقط الشيخ مريضاً ... حتى اضطررنا لاستدعاء الطبيب الذي أمر له بأدوية تقويه وعلق له محاليل بعد أن رفض الطعام مرارا ...

ما أن تحسن قليلا ، عاد لنفس الطقس مرة أخرى ... بدون تغيير يذكر سوى بعض النهنهات من حين لآخر ... ... ورفض حتى النوم ... كان كلما غلبته عيناه يذهب لإناء به ماء مثلج وضعه بجواره ، فيغرق وجهه بالماء حتى يذهب عنه النوم ... وكنا بمنتصف الشتاء ، فكانت برودة الماء أقسى من برودة الليل القارص ... بيد أن قلبا متوهجا يذوب اشتعالا كان كفيلا أن يفجر الثلج لو مسه .

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

مضى علينا في هذه الحال شهر وعشرة أيام ... وفي العشر الليال الأخيرة كان يصعد مستندا على أم " ياسين " التي أصبحت تسنده كل ليلة بعدما أصبح عاجزا عن الصعود وحده ، ويجلس على مقعد وضعناه له بوسط السطح ... وقد أقر الجميع أن الشيخ لم يعد أمامه على قيد الحياة سوى أياما معدودة بعدما بدأ يذوي ويذوب كما الشمعة المحترقة ... فتتركه الست أم " ياسين " على مقعده ، وهي تمصمص شفتيها باكية ... وتهبط ، إلى أن يؤذن للفجر فأقوم له وأسنده للذهاب للمسجد ... في الليلة الأخيرة من بعد العشر من بعد الشهر ... كان سيدي جالسا على مقعده ... قمت اليه قبل صلاته ... همست له بخفوت ...

- ياسيدنا قتل النفس حرام

همس بإعياء وبصوت يكاد يخرج مغمغما من بين شفتيه وبدون أن ينظر إلي ...

- النفس ماتت من زمان يابن نصيبين
- ياسيدنا القنوط من رحمته كبيرة
- يابن نصيبين ... أنا واقف ببابه ما غادرتوش ... (فجأة بكى بحرقة وانكسر صوته) بس يفتحلي ... (التفت إلى فهالني وجهه الذي صار لـــــــــــــلأموات أقرب) ... عايز أرجع يابن نصيبين ... عايز أرجع ومش عارف ... القلب مابقاش فيه غيره ... طهرته من كل حاجة غيره ... مابقاش يفرق عندي أكل ولا شرب ولا أيتها عازة من أي صنف مخلوق ... ولسة مجافيني يابن نصيبين ... مالقيتش غيره ألجأله ... لو كان فيه حد غيره كنت رحتله ، بس هو الله أحد ... طب أروح لمين ؟ ... (التفت ناظراً للسماء وكأنه يخاطبه أمامه) ... أروح لمين يارب بس ؟ ... باحلف بعزتك ماحامشى من مكاني ... يا ترضي يا اجيلك ... قسما بجمالك اللي ماغاب عني يوم ... لانا قاعد على بابك مش ماشي ... مش ماشي ... وانت اللي بايديك الأمر يا صاحب الأمر ... روح انت يابن نصيبين ... ابعت لعم " معروف " ... قوله يجيب الكفن وييجي ... مانيش نازل لغاية ما يحن ... ماليش غيره ... حاتشفع له بذاته ... حاستعين بيه على جفاه ... حاطلبه جل جلاله يتوسطلي عنده ... مانا ماليش غيره ... و يا يجيلي ... ياروحله" ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

نظرت له بفزع ... وتراجعت خطوات ... وهممت بالنزول حتى توقفت حين رأيت فجأة السماء تتغير معالمها ، فإذا بنقاط نورانية تتجمع في دوائر حتى صنعت دوامة نورانية نزلت حتى أحاطت بالشيخ فصار في مركزها ... وهي تدور حوله بقوة ... اشتدت الريح بالمكان وكنا في الشتاء فبدا الجو قارصا ... اشتدت دوامة النور حوله ولها أزيز ... بينما تصاعد صوت الشيخ قويا متصاعدا فوق الإعصار النوراني الدوار حوله ... وقد وقف مجاهدا ضعفه متحاملا ترتعش ساقاه ... وتطاير الشال الصوفي من فوق جسده فسقط على الأرض حوله ... وتطاير جلبابه من شدة الريح ودوران الإعصار الذي لا يراه غيري ... ومضى يرفع صوته بأعلى ما فيه وسط صرير الريح الشديد وهو ناظر للسماء وكأنه يرى الإعصار الممتد لأعلى ...

"مش ماشي ... واقف على بابك ... خد الجسد مني و ارميني جذع أجوف لا يسمع ولا يشوف ... خد العين واحبس الصوت واجعلني جماد أخرس ... مش ماشي ... نشف القلب يصبح حجر صوان مش منحوت فيه غيرك ... مش ماشي ... حاستنى ... ولو اديتني سنين عمر نوح ... حاقفهم على بابك ومش ماشي ... القلب فلت مني ف لحظة ضعف؟ ... مانت اللي خلقتني ضعيف القلب ... وانت اللي خلقت سهام العين ... ومهما بعدت بارجعلك ... مانا أنت ... روحي نفختك ... حياتي نعمتك ... شكلي من صنعك ... علمتني كلمتك ... لو حتعتب عليا بضعفي ... حاطالبك برحمتك ... لو حتعتب عليا بشهوتي ... حاطالبـــــــــــــــــك بعصمتك ... ومهما بعدتني عنك ... حافضل أرجعلك لحد ما تيجلي ... ياأوصلك ... مش ماشي ... وعزتك مانا ماشي ... ورحمتك وجلالك مانا ماشي ... "

ظل يكررها حتى هدأ الإعصار وتحول لعمود نوراني أبيض ذو هالة زرقاء هادئة متناغمة بأسفله دائرة النور الهادئة تتسع وكأن العمود يصب النور صبا فينسال ويتسع وينتشر في المحيط حتى أصبح يسيل على السطح ومنه على الأرض ... رأيت الشيخ يترنح فأسرعت اليه فأسندته قبل السقوط ... فنظر لي بعينين دامعتين محمرتين وهو يبتسم وتحدث متهالكا ... "فتحلي يابن نصيبين ... فتحلي " ... قالها ثم أغمض عينيه ونام بين يدي مبتسما كطفل صغير ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

كانت هذه الليلة هي نهاية الجفوة بين حبيبين ... ومن بعدها عاد الشيخ لصحوه التلقائي قبيل الفجر ، وعاد رونقه وبهاءه وضحكاته المعتادة ونغزه ولمزه لي الذي افتقدته ، أربعين ليلة عاشها في عذاب لم أشهد مثله . . لنظرة مارقة أصابت لب قلبه ... فأبعدته عن رب حبيب غيور يغار على قلب عبده الذي أقر له بالحب وحده لا شريك له ... أربعين ليلة جافاه ربه من أجل نظرة ... فما بالك يابن الأبالسة بمن دلس وكذب ونافق وخان ... هلكت يابن الأبالسة وما عادت لك عودة ...

نظرت للسماء وأنا في طريقي للسيارة وتمتمت ... "مش ماشي" .

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

ابن النار

اقتربت لأفتح باب السيارة بجوار " ياسين " فإذا ب" صفية " ترفع صوتها متعمدة أن تسمع " ياسين " بقوة ...

"تعال جنبي هنا يا سي محسن ... ماخلاص الدِرا مابقالوش عازة " ...

نظر الي " ياسين " بقوة وبغيظ ، فتركته مسرعا ودلفت للسيارة بجوار " صفية " واضعا " فاطمة " بيننا ، بينما عن يميني كان الكرسي مطويا وفوقه امتداد الخشبة طوليا ... نظرت للست " صفية " فردت علي بنظرة ملؤها السعادة والرضا ، ما لو كانت في ظرف آخر وفي وقت آخر لرأى الجميع ألوانا تتلألأ وموسيقى تصدح داخل السيارة ، لكن كان القلب مطحونا تحت وطأة الذنب العظيم ...

كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل عندما شارفنا مدينة تبدو مأهولة على طريق الواحات وهي "البويطي" ... كان النخل الكثيف متناثرا هنا وهناك على مد البصر مع امتداد الطريق الطويل المخترق البلدة وعلى جانبيه بيوت ومتاجر لا تتعدي الدور أو الدورين يغلب عليها البياض مع رسومات للحجاج وتماثيل جبسية ، وبالطبع كان كل شيئ مغلقا وإلإضاءة خافتة إلا من مصابيح متاثرة على امتداد الطريق ، وبضعة مقاهي تناثرت على امتداد الطريق ... كانت المدينة نائمة حابسة في بيوتها أسرارها ... بينما كانت السماء والأجواء بها العديد من جنسنا ، يتحركون بسرعة وخفة غير أنهم بدوا مختلفين عنا في شكلهم وهيئتهم ، كانوا أكثر رقيا وأبهى رونقا ووقارا ... حتى أنني قد طمعت أن أكون قد وصلت وجهتي حيث الأكرمين و زعيمهم الذي ما نسيت إسمه "" عبد القادر طوليد "" ...

كانت " صفية " نائمة مستلقية متدلية رأسها يمنة ويسرة مع السيارة ، وكانت المرة الأولى التي تغفو فيها بهذا العمق والاستسلام ، فأذهلني إحتياج المرأة للأمن والسلام لهذا الحد ، فقبل ساعات مضت كانت مقلتيها تدور في أحداقها كنمر حبيس ... وبمجرد أن أحست أن هناك من يقوم عليها وعلى أمنها وسلامتها ، أسلمت عينيها لرقاد آمن سكنت به مقلتيها كطفل وديع

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

... كنت أتأملها ما بين الحين الآخر فألمح أحيانا طيف ابتسامة ... أخبرني قرينها أنها كانت تحلم ب" فاطمة " تلاعبها على شاطئ ميامي بالإسكندرية ، فظهرت أنا في صورة بائع الفريسكا فطلبت "بطة" فريسكا ، فأعطيتها إياها بيضاء تقطر عسلا ... فقطمت منها " فاطمة " قطمة ثم أعطتها لأمها التي ارتشفت العسل وأعطت البقية ل" فاطمة " ... غير أن " فاطمة " لم تكن " فاطمة " . . لم تكن بهيئتها وشكلها ... كانت الروح روح "" فاطمة "" والهيئة هيئة "" هدية "" ... !!! ... تلك الطفلة التي أدركت أن هناك قدرا ما يربطني بها ، غير أنني لم أعرفه بعد ، ولعمري كم خبأت لي الأقدار في هذه الرحلة ، وقد أمضيت عمرا بكنف الشيخ لا أغادر حدود القرية إلا قليلا ... في حياة هادئة وادعة بين الأذكار والصلاة وخدمة أهل الله المقربين ... وكأن وفاة الشيخ كانت لحظة تخرجي من مدرسة أبو العلا لأبدأ مشوار حياة ... الحياة ... ذلك السر العجيب الذي وضعه الله في هذا الكون ... لا أدري كيف كان الكون قبلا ... لكنني أظنه كان ميتاً ... كما قال الله رب العالمين ... "هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا " ... فقدم ذكر الموت على ذكر الحياة ... كان الموت هو السائد ، ثم خلق الله الحياة ، فتوهج الوجود ... عندما وضع الله من ذاته العليا على الكون فأحياه ، فتحول جسد الأرض لحجر يُسبِّح وزهر يتلون والطين الساكن المتلبد لحيوان يمرح وحيتان تسبح وطيور تصدح ... وإنسان يعمر الأرض ... وتحولت النار لجان يجول في أنحاء الفضاء ... عدا واحدا مضى يرتحل في رحلة بين عالمين ... الحياة ... كأنما خلقها الله من ذات النفخة التي خلق منها المرأة ... جميلة إن طابت ... متقلبة إن تمردت ... ندر أن تستقر على حال ... أو يتوقف عندها ترحال ... لا يغرك ظاهرها إلا لو فهمت باطنها ... تتزين أياما وتتبتل أيام ... وحين تظن أنك إمتلكتها ، تكون هي قد وثقت صك عبوديتك ... الحياة هي المرأة ... و" صفية " هي الحياة في أروع صورها ...

كان " شنودة " يرمقني بين الحين والآخر ... حتى أنه نطق فجأة ...

" شنودة " – هو انت ماتنامش ليه يا شيخ محسن ...

أنا – يعني هو انت نمت يا " شنودة " ؟

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

" شنودة " – أنا سايق ...

أنا – وأنا منساق ...

" شنودة " – لو أنا نمت حنلبس في حيطة

أنا – وأنا لو نمت أتوه

" شنودة " – ماتقلقش يا شيخ ... أنا عارف السكة

أنا – أنا وانت مش عارفين السكة ...

صمت ونظر لي بغيظ واضعا يده على الضمادة الملتفة حول ذراعه ...

أنا – صدقني ولا " ياسين " ...

التفت ل" ياسين " بضيق ثم ناداه بصوت منخفض ...

" شنودة " – عم " ياسين " ... يا عم " ياسين " ... يا باشا ...

صحا " ياسين " مغمغما من نومة ثقيلة كنوم البهائم ...

" ياسين " – ايه خير ؟

" شنودة " – دخلنا البويطي

– مش قلتلك تقوللي قبليها يا زفت الطين

– إنت قلتلي لما نوصل البويطي صحيني ...

أمسك تليفونه وفي مكالمة قصيرة أبلغ أحدهم بوصولنا ، ثم اعتدل في جلسته وهو يصف طرق جانبية ل" شنودة " الذي ما أن دخل فيها حتى صحت " صفية " على إنحناءات السيارة المتعرجة . .

" صفية " – إحنا فين ؟

أنا – في البويطي ...

" ياسين " – شوفوا با بهوات ... إحنا حنبيت هنا الليلة . .

" صفية " – حنبيت فين ؟

" ياسين " – بيت واحد من حبايبنا ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

" صفية " – حنبيت إزاي يعني ؟

" ياسين " – زي الناس ... إنتي وجوزك و" فاطمة " ف أوضة وأنا و" شنودة " في أوضة ... (ثم نظر لها بفحش دنئ) ولو عايزة آخد " فاطمة " عندي ماعنديش مانع أنا برضه كلي نظر ...

" صفية " – اتحشم يا" ياسين " ... بنتي ف حضني ماتبعدش عني ...

" ياسين " – (بضحكة فاحشة) ليلتك سودة يا عبمحسن ... شكلك فقري ...

توقفنا أمام بيت من بيوت أهل المدينة انتهت اليه تعرجات " شنودة " الجانبية ، وكان بيت بين من طابق واحد ، بين بيوت عديدة من طابق واحد على أرض رملية وكلها مسورة من الخارج ... كان البيت له ساحة خارجية مكسية أرضيتها ببلاط أبيض وعلى المحيط أحواض زرع صغيرة زرعت بها نبتات عطرية من نعناع وياسمين وبالركن شجيرة ليمون ... على باب البيت المرتفع درجتين استقبلنا "غازي" ... بدوي يرتدي جلباب وفوقه جاكيت صوفي قديم ... رحب بنا ترحيبا بالغا وفي خلال سويعات معدودات ، جمعتني مع " صفية " غرفة صغيرة بها سرير واحد ... بينما ظل " ياسين " بالخارج مع غازي وذهب " شنودة " ليغطي السيارة ، فبالتأكيد لن يرحب أحد بسيارة تحوى خشبة ميت واقفة من الليل للصباح ... ما أن أغلق علينا الباب ، حتى وضعت " فاطمة " النائمة على السرير وكنت أحملها على كتفي ... ثم التفتت لأرى " صفية " جالسة على الأرض وقد أخرجت فطيرتين مخبوزتين وقطعة جبن بورقة وقليل من الخيار والفلفل والطماطم ... ثم ابتسمت في دلال

" صفية " – طبختلك العشا أهه عشان ماتقولش عليا زوجة فاشلة

جلست أمامها مترددا ... تدور في ذهني كل الإحتمالات المجهدة ، القاتلة ، سائلا الله أن تنتهي هذه الليلة بلا كارثة أو خطيئة أو حتي لحظة ألم

" صفية " – مد إيدك يا خويا بسم الله

أنا – بالهنا انتي يا ست " صفية " ... ماتعودتش آكل بالليل

" صفية " – لهو انت صدقت إني طابخة ولا ايه ... دي جبنة بخيار يا راجل

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

أنا – اللقمة معاكي يا ست " صفية " أطعم من كيلو الكباب ... بس اعفيني الله يرضى عليكي

" صفية " – خلاص . . وانا كمان مش واكلة

أنا – ليه بس يا ست ... لا حول ولا قوة إلا بالله

" صفية " – قوللي الحق يا سي عبمحسن ... هو إحنا كده يا خويا متجوزين ؟

أنا – شوفي يا ست " صفية " ... شرع الله هو الايجاب والقبول والإشهار باتنين شهود ... بس الأصول أصول يابنت الناس لابد من معرفة الأهل والمعارف

لمت الورقة سريعا ... بغضب وكأنها تذكرت ألماً قديما ...

" صفية " – وهو الأهل والمعارف كانوا فين لما إبن أبو يوسف خلع كتفي ولا شوى ضهري بحزامه أبو توكة حديد ... انسى يا شيخ مابقاش فيه أهل ولا معارف ... وتفتكر لو كنا في البلد كنت حاعرف اتجوز جنس مخلوق ؟ ... وهو ابن أبو يوسف سابلي نفس يخش ولا يطلع من غير ما يحاسبني عليه ... ولا لما كان بيهددني إنه حياخد بطة لو شم نفس نتفة راجل حواليا

- طب أبوكي يا بنت الناس
- أبويا قلتله أول ما ركبنا التوربيني
- قلتيله ؟؟؟ وقالك ايه
- باركلي وإطمن عليا ... وقاللي شيخ محسن سيد الناس ...
- ع البركة
- يعني كده بأة متجوزين ؟
- متجوزين ...
- طب وإيه ؟
- إيه ؟
- حتخللي دخلتي حكاوي ع البلاط ولا ايه يا سيد الرجالة ؟

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

صمتت للحظات دار فيها الكون من حولي ... لم أدرك قبلا إشتعال الرغبة في قلب البشر ، وكنت أتعجب من لهثانهم خلف جسد المرأة التي دارت حوله الحروب منذ بدء الخليقة ، منذ خلق رب العالمين جدهم آدم الكريم المكرم ، لم أعرف أن الرغبة قد تعصف بقلب الجان حتى هذه اللحظة ، وأدركت أن الرغبة في القلب الصافي المطهر لا تلوح إلا لمن أحب ... عندها تتفجر كبركان ثائر يعصف بكافة أرجاء الجسد أيا كانت خلقته وكأن الدماء صارت حمما والأنفاس دخاناً يبخر الرأس الرزين ... لم تمهلني " صفية " ...

- يالهو بالي ... يا ميلة بختك يا " صفية " ... لهو انت مالكش في النسوان يا خويا ...
- نعم ؟؟؟
- قول يا خويا أنا سترك وغطاك ... مايغركش شقاوتي ومناكفتي ... ساعة الجدعنة أنا ولا بميت راجل
- وأجدع من ألف راجل يا ست الكل ...
- أمال ايه بس ... يكونش يعني عشان آآآ ... أنا عارفة إني كبرت والخلفة شقت عودي زي النخلة المعشرة ... بس صدقني ... مافي زي حلاوة تمرها
- مش اللي في دماغك يا ست " صفية " ...

في لحظة أنثوية ... غير مفهومة كالعادة ... قامت فجأة ولملمت ثيابها حولها وقد زمت شفتيها في استياء

- مفيش حاجة بتيجي بالجبر يا سي محسن ... إنت وشوقك يا خويا

لم أتمالك نفسي وهي تقف منتصبة تمر من جانبي وقد هفهف على وجهي جانب من جلبابها المعطر برائحتها الزكية إلا وقد أمسكت بيديها وجذبتها فنزلت على ركبتيها أمامي ناظرة في عيني وقد تدفق الدلال من عينيها بئرا من الخمر المعتق ... اقترب مني وجهها حتى أحسست بحَرِّ أنفاسها ، فهمست لها بما تبقى لدي من صوت أكاد أفقد بشريته ...

أنا – يمين بالله يا أحب خلق الله ليا ، ما مانعني عنك لا قلة الشوقة ولا عجز الجسد ولا الجبر ... ما مانعني عنك غير سر مايساعنيش أكشفه غير لما يريد المولى ... فيا ترحميني وتمهليني ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

يا تقتليني بنظرة العتب اللي ماليش عليها قدرة ... ويمين بالله يا صفية يا بنت معروف ... التراب اللي بتمشي عليه أغلى عندي م الدنيا ومافيها ... بس العهد وعد ... ولا ليا فيه اختيار ... سامحيني يا صفية ...

- ياقلبك يا عيون صفية ... للدرجة دي حملك تقيل يا عبمحسن ... معلش يا خويا ... سامحني على قلة عقلي ... عقل نسوان بأة ... استناك يا خويا ... أستناك ... وكفاية عليا نظرة عينيك اللي خلعت قلبي من صدري .

وفي لحظة خاطفة طبعت قبلة على جبيني ثم قامت لتنام بجوار بطة وقد أسدلت على نفسها الغطاء وكأنها تستر عريها الأنثوي الذي هَتَكْتُه رغما عني ، ... أما أنا فأظنني أمضيت أعواما في لحظة القبلة الخاطفة التي حملت من الإحساس ما لو سال على جبل المقطم لأذابه ...

مضيت ساكنا في مكاني الذي بقيت جالسا فيه أتأمل لون السماء من النافذة المشرعة أمامي وبداخلي كل أسئلة الكون ، يتصدرها سؤال حول ذاك الشعور الذي انتابني حين اقتربت مني " صفية " وحين لفحني حر أنفاسها ، وحين طبعت تلك القبلة ... هل هذا هو الذي ينتاب البشر حين يقتربون ممن يحبون ... هل هذه الرغبة هي نارهم التي تشعلهم فينتفضون منها انتفاضة الملدوغ ... حين يحترق الطين يصير جامدا متماسكا ، فما الذي يحدث حين تشتعل النار ؟ ... يزداد لهيبها ... يصير وهجها أزرق ... تصير ألسنتها كحراب ذات أسنة ... ويصير قلبها أبيضاً كالثلج ... فهل أحرقتني " صفية " وأنا ابن النار ... ؟

انتهزت لحظة نومها الساكنة في حضن ابنتها الوادعة ، فأرقدت جسدي البشري وغادرتـــــــــــــه منطلقا في الفضاء بحثا في هذا الكون عن محطة ترحالي ...

ما أن غادرت المنزل لأروقة السماء حتى رأيت بني جنسي سابحين في الفضاء بنعومة وهدوء لا أجد مثلها في أهل المدينة ، ولمحت من على البعد الحارس يتبعني بنظراته الجامدة ، شيء لا أعرفه يربطني بهذا الحارس العظيم ، وددت لو اقتربت منه وسألته عن سبب ملاحقتي لكن مازالت رهبة الحراس تأسرني فامتنعت ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

لمحت قريبا مني فوق بيت غير مأهول ، واحدا من قبيلة الجن الساكنة هذا المكان ، كان جالسا القرفصاء ، مسدلا على رأسه غطاءا أبيض منسدلا على جانبي وجهه المختفي تحت ستر الغطاء فلا ألمح من فرجة الغطاء إلا ظلمة الله أعلم ما بداخلها ... اقتربت منه في نعومة ، ملقيا عليه السلام ...

- السلام عليكم يا أهل هذا المكان ...

خرج صوته من بين فرجة الغطاء المنسدل على وجهه وكأنه قادم من عمق سحيق بدون أن يحرك رأسه إلىّ ...

- وعليك السلام أيها المرتحل الغريب ...
- الغربة تتطلب وطنا ... ولا وطن لي
- الغربة غربة الروح وليست غربة المكان ...
- فأين وطنها ؟
- حين يستقر الترحال ...
- فإن تاه الطريق
- نسأل ونستدل
- فهل تدلني ؟
- كنت أنتظرك
- وتعلم عني؟
- أعلم ما قدر لي أن أعلم ؟
- وما هو ؟
- أنك قادم
- ثم ؟
- سل
- أسأل على " عبد القادر طوليد "

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

ولأول مرة يلتفت لي فألمح من داخل الغطاء عينين برقتا بضوء أبيض وهو يتمتم بهدوء ...

- هل تبحث عن " عبد القادر طوليد " أم ... " السيد " ؟
- فليكن هو " السيد "" ...
- بالعمق يسكن
- أي عمق ... عمق الصحراء ؟
- لا يؤتي اليه إلا بإذن
- ممن الإذن ؟
- من صاحب بوابة الدخول ... عند بزوغ الصحراء البيضاء خلف بحر الرمال ... بعدما تمر على عين الزوادة
- وكيف الطريق اليها ؟
- سيأخذك الطريق اليها
- لكني لا أعرف طريقي
- هو يعرفك فلا تشغل نفسك بما قدر لك ...
- فمتى إذن ؟
- حين تشتعل النار
- وهل ...

فاجأني فاختفي في لحظة فتهاوى الرداء كأنه كان مسجى فوق الهواء مع لمحة أخري لامعة من عينيه البراقتين من داخل ظلمة غطاءه ... "حين تشتعل النار؟ " تساءلت هل يقصد ما حدث بيني وبين " صفية " أم يقصد شيئا آخر ؟...

نظرت حولي فإذا بالسماء تستعد لاجتماع الفجر ، فلملمت نفسي وعدت مسرعا لجسدي البشري الملقى على الأرض كحقيبة سفر ... لألحق بصلاة الفجر ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

راعني ما رأيت ، كانت " صفية " جالسة بجوار الجسد تحاول إيقاظه بعنف ، بينما جلست "بطة" على السرير مذعورة ، تلبست جسدي سريعا وفتحت عيناي ، فهالني نظرة الرعب على عيون " صفية " ... حاولت طمأنتها لكنها كانت لسان غضب مندفع كتدفق بخار حار ...

- خير يا ست " صفية "
- (بغضب وعصبية شديدين) خير إيه يا خويا ، دانت طلعت البلا على جتتي ... إنت ايه بتموت وتحيا ؟
- خير بس ايه اللي حصل ؟
- الزفت " ياسين " عمال يصرخ بقاله ييجي ساعة عايز يمشي وأنا باحاول أصحي فيك لحد ما ظنيت إنك بعد الشر بعد الشر حصلك حاجة ...
- معلش يا ست " صفية " حقك عليا
- انت ايه اللي بيصيبك يا سي محسن ... ؟
- مفيش يا ست
- يا أخي ما تتكلم بأة طهقتني ... كل كلامك ألغاز وحواديت مش فاهمة منها حاجة ... ما تقول يا أخي إنت عامل عملة ولا هربان ولا حاجة ...
- ست " صفية " ...
- بلا " صفية " بأة بلا زفت ... بقالي ساعة باصحي في جسم ميت لو كان تور كان صحي ... لا قلب بيدق ولا نفس بيطلع ... دانا غرزت دبوس طرحتي في دراعك لحد ما جابت دم ولا اتحركت فيك شعرة ...

نظرت لذراعي فوجدتها تقطر دما وحولها زرقان واضح ...

- يا ست " صفية " أنا !!!!
- (بدأ صوتها يتعالى فصار صراخا) إنت إيه بأة قول وخلص أمي ...
- ست " صفية " ... أنا ملبوس ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

فتحت عينيها بصدمة ماحقة وحدقت فيّ بمزيج من الدهشة والرعب والخوف ، ثم ابتعدت سريعا واحتضنت ابنتها وهي تتمتم ...

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ...أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ... قل أعوذ برب الفلق ... قل أعوذ برب الناس ... حل عنا الله يرضي عليك ...

ثم مضت تبكي صوت مكتوم حتى لا تسمع من بالخارج وهي تلطم بكفيها على وجهها و" فاطمة " تحتها تبكي وتصرخ ...

- يالهوي . . ياخرابي ... يا ميلة بختك يا صفية ... يا خراب بيتك يا صفية ... ياربي رحمتك بأة أنا تعبت ... آه والله تعبت ... تعبت وغلاوة المصطفى ... تعبت بأة ارحمني يارب انشالله تاخدني ... خدني يارب ... خدني بأة يارب ...
- ياست " صفية " اهدي بس الله يهديكي
- (نظرت لي بفزع) حاهدي يا خويا حاهدي ... بس ابعد إنت أبوس إيدك
- ماحدش بينضر ولا حد بيحصله حاجة ... انا اللي معايا مؤمن وموحد وما بيأذيش حد ...
- مؤمن وموحد ؟ ... هو فيه منهم مؤمنين وموحدين كمان اللهم احفظنا
- طبعا وفيه منهم اللي بيحب وبيكره
- يابن الناس حل عني ... إياكش يكون فيه منهم أنبيا ... أنا ماليش في السكة دي أنا عندي بت عايزة أربيها ... إعتقني يابن الناس ...
- خلاص يا ست " صفية " ... خلاص ... حابعد عنك
- يابن الناس ... لو اللي بينا ده جواز ... طلقني يا عبمحسن ... ولو أي حاجة تانية أنا من سكة ياخويا وانت من سكة
- اللي تشوفيه يا ست " صفية " ... أنا حاقوم أصلي الفجر ، وأوعدك ما حاقرب ناحيتك تاني
- روح يا خويا صللي ... روح ربنا الشافي ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

خرجت من غرفتها لأجد " شنودة " واقفا أمام الباب ناظرا لي بغضب ماحق ... تركته وانصرفت واجما ... الآن عرفت كيف تنطفئ النار ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

عين الزوادة

مع بزوغ أول خيوط النور ، تحركت بنا السيارة خارجة من البويطي نحو المصير المجهول الذي لا يعرفه إلا الله ، ثم " ياسين " ... والوجوم والصمت مسيطر على السيارة ، التزمت " صفية " الصمت تماما ولم تحك شيئا مما جرى ، لا أدري هل من قبيل "الجدعنة" أم رغبة في استمرار ستار الحماية التي يسبغها عليها كونها زوجة وليست مطلقة ... جلست صامتة و وضعت " فاطمة " بجوارها بعيدا عني بجوار الشباك ، ثم وضعت بيني وبينها حقيبتين فوق بعضهما البعض ووضعت فوقها مصحفا ، بينما ظلت تتمتم طوال المسير بكافة الأدعية والمعوذات ، بينما جَلَسْتُ بجانبها كصخرة جامدة ، متجمد الظاهر والباطن ، كحجر بركاني تجمد بعدما انصهر وذاب ... بينما ظلت نظرات " شنودة " ترمقني وتلاحقني وكأنه يطاردني بعينيه ... أما " ياسين " فقد بدا مرتاحا متناغما وقد قاربت المهمة على الانتهاء بدون مشاكل أو إزعاج من أي نوع فاستلقى على ظهر مقعده مسلما نفسه الخشنة لسبات عميق ... كانت السيارة تعبر عن حال عجيب ، فبعدما كانت تحمل ميتا يصحبه أحياء ... هي الان تحمل أحياءا أقرب للموت منهم للحياة ... الوحيدة التي كانت تعطي للحياة معنى ولون وطعم كانت " فاطمة " ، ولعمري ، كم كنت أتعجب من تلك التغيرات التي تطرأ على البشر حين يكبرون ، ففي الصغر يكون القلب نقيا نظيفا خاليا من الشوائب حتى أننا معشر الجن نكاد نلمح دواخل الإنسان من خارجه وكأنه صندوق بلوري يحوي شمعة نور متقدة ... وكلما كبر الإنسان ، تزداد الغشاوة علي البلور النقي وتصعب رؤية الشمعة التي تذوي رويدا رويدا حتى يحبس النور داخل الصدر المعتم ...

كانت " فاطمة " هي الجوهرة النقية المشعة داخل سيارة الموتى المارة داخل مجاهل الصحراء وقد بدأ النور يبسط ردائه الأبيض فوق الرمال الصفراء الممتدة على الأفق ، بينما على الجانبين قطع أراضي مقسمة مربعات بحذاء الطريق ، يبدو عليها أنها قيد الإستصلاح ، وقد وضعت لافتة على كل أرض تعلن إسم صاحبها ، يغتر البشر كثيرا بما يملكونه من رمل الأرض ولا

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

يعلمون أنه من يملكهم وليس العكس ، فهم منه يخلقون ، وعلى سطحه يعيشون لا يغادرونه ولا يبتعدون عنه ، فهم يعيشون في أسره كالخدم في بيت سيدهم ، حتى إذا انتهى بهم مشوار الحياة ، فتح لهم ذراعيه فيدخلون بينهما كوليد يلتجئ لحضن أمه ... لو كانت الحياة هي سر ذاك الكون ، فالأرض هى حامل ذاك السر .

رحمة الله بنا أن انقطع ارسال اجهزة التليفون المحمولة فنجانا الله من صوت "ياسين " الأجش المزعج الذي يسكب في أسماعنا بكل ما نكره ، وعدا تمتمات " صفية " التي لم تنقطع ، لم يكن هناك صوت ... فبدا علي " فاطمة " الانزعاج الشديد ... وتململت وبادئتني بالكلام لعلمها بذكائها الفطري أنني ربما الوحيد الذي سيرد عليها ...

" فاطمة " – يا عم محسن ... هيه الأرض هنا كلها عفرة كده ...؟

ابتسمت رغما عني ...

محسن – اسمها صحرا يا بطة

" فاطمة " – صحرا زي بتاعة بكار كده

– الله يفتح عليكي يا بطة ... هي زي بتاعة بكار كده

– والصحرا دي بأة فيه ايه بعديها

– كون الله يا بطة ... مابيخلصش

– ياسلام يا عم محسن ... ابقى خدني نلف في كون الله دة شوية

– من عينيا يا بطة

هنا تدخلت " صفية " ولكزت بطة بذراعها حتى آلمتها ...

" صفية " – ماتتهدي بأة يابت دوشتينا ...

بطة – دوشتكوا ايه ، دانتوا بقالكو ياما ما حد طلع نفس ولا حس ...

" صفية " – خلاص طلعتي النفس والحس ؟ ... اتهدي بأة ناميلك حبة لحد ما الداهية اللي احنا فيها دي تخلص على خير ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

ساد الصمت مرة أخرى ... حتى قطعته بطة فجأة بدون مقدمات وهي تصرخ ... "فسية العفريت ... . فسية العفريت !!!" ... لم أتمالك نفسي من الضحك ، ونادرا ما كان الضحك يمس وجهي البشري ، لكن المفارقة أضحكتني خاصة مما رأيته من ردود الأفعال من حولي حيث نظر لي " شنودة " برعب في المرآة بينما نهرت " صفية " " فاطمة " بعنف شديد ، ثم عادت الي بنظرها وكأنها تعتذر لي من إساءة بطة وقد بدأوا يتعاملون معي جميعا أنني عفريت ، رغم أن جُلَّ ما يعلمونه أنني ملبوس ... لكن لا يبدو أن الأمر فارق يختلف كثيرا عند البشر ... نظرت لي " صفية " بقلق وتوتر معتذرة

" صفية " – لا مؤاخذة ...

أنا – لمؤاخذة ايه يا ست " صفية "

" صفية " – انت عارف بطة عيلة ومش فاهمة حاجة ...

أنا – بطة دي انا اللي مربيها

" صفية " – يالهوي ... يعني ايه ؟

أنا – يعني عارفها زيي زيك ...

" صفية " – بس هي يعني كويسة مافهاش حاجة . . صح؟

أنا – صح يا ست " صفية " وربنا يخليهالك

ساد الصمت مرة أخرى وانغمست " فاطمة " في تأمل عمود الرمال الملتف حلزونيا للسماء ، وما لم تره " فاطمة " ، هم أولئك الصغار من الجن الذين يهوون اللعب بالرمال فيلتفون حولها حتى تتصاعد في دوائر رملية ، كنت أهوى اللعب بهذه الرمال في سفح المقطم ، حتى رآني بعض البشر ، وعندها سمعت لأول مرة هذا التعبير الفكاهي "فسية العفريت " ... عندها ضحكت كثيرا وأدركت محدودية تفكير البشر في هذا الكون ، حين يلقون ما يجهلون فما يكون منهم إلا أن ينسبوه لما تفهمه ذاتهم البشرية وكأن ما في الكون إن هو إلا بهم ولهم ... ولا يعلمون كم في هذا الكون من مخلوقات يشاركونهم الأرض والماء ... بل والأحلام ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

ساعات صامتة مضت حتى ظهرت فجأة الصحراء البيضاء من خلف تلال متناثرة ... كان مشهدا بديعا ... أرض على مد البصر . . تغمرها الرمال البيضاء وكأنها بحر من اللبن هادئ الأمواج ... تقف داخلها متناثرة هنا وهناك تشكيلات حجرية وكأنها منحوتة بيد فنان خبير ، تعجبت منها ، وأدركت أنني اقتربت من بغيتي ، فهذا العالم العجيب بجماله وبكارته ، لا يصلح أن يسكنه آدمي ممن إعتادوا إفساد الكون

عند علامة مميزة ، وبناءا على أمر " ياسين " ، انحرف " شنودة " يمينا داخل الصحراء بين طرقات ودروب شبه ممهدة ، خفقتنا داخل السيارة بعنف وكأننا في قارب تتقاذفه أمواج بحر هائج ... نتمايل ونتبعثر ونتطاير فنمد أيادينا لنتشبث بأي ما تقع عليه أناملنا الحائرة ، وفي لحظة تلامست أيادينا ... أنا و" صفية " ... هالتني برودة أناملها ، فأبعدت يديها بعنف وخوف ناظرة لي بألم وترقب ... كانت فاطمة " تضحك في بهجة شديدة بينما ظل " شنودة " يلعن أبو الأرض وما فيها ... وكأنني ألمح الأرض غَضْبَي من سبابه ، فلا تمهلنا حتى تلقينا يمنة ويسرة في غضب هائل ... حتى أنني هممت أن أطالبه بالتوقف عن سبابها غير أنني أحسست بوجوب الاكتفاء برعبهم مني فلا داعي لزيادته بالحديث عن غضب الأرض وهم بالكاد لا يعرفون عنها إلا أنها موضع أقدامهم الأكثر ثبوتا ...

استمر سير السيارة فوق جبين الأرض الغاضبة ، حتى لمحنا من على البعد مجموعات من النخل على تبة مرتفعة قليلا ... نخلات باسقات عاليات متناثرة ملتفة دائرياً في تناسق عجيب سبحان من سواه ، ولا يبدو من كثافتها ما تحميه وسطها بيد أنه يبدو أنها تحمي عزيزا ... ولم يكن من الصعب أن أفهم أننا قد وصلنا لمحطتي التالية ... "عين الزوادة " ...

خلف التبة ذات النخيل دارت التوربيني ببطء لنرى موكب سيارات بيضاء من اللاتي اعتدن خوض الصحراء ... وقد وقف أمامهن مجموعة من البدو بينما جلس آخرين ملتفين على بساط أسود ... كانت الشمس متوسطة السماء قبيل عصر اليوم ... والضوء الهادئ يملأ المكان ... اقتربنا من التبة وبدت أكثر وضوحا ، وبدت تضج بالحياة الرائعة ، فالنخل الملتف بدا واضحا أنه يحوط عين ماء فوق التبة دل عليها تلك القنوات المائية التي تشق التبة نزولا

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

للسفح كأنها عروق تنبض بماء الحياة ... تصب القنوات أسفل التبة حيث حوض مبني بحجر ، وقد إمتلأ بالماء حتى زاد فانساب من جنباته لينزل على الأرض للقاء الرمال كعاشق يتسلل في هدوء ... بجوار الحوض جلس رجل عجوز أسمر الوجه ملتحف برداء أبيض وبجواره دلو خشبي وكلب راقد يبدو عليه ارهاق الشمس وصهد الصحراء ...

توقفنا ، وخرجنا من السيارة بعد معاناة الخفق المتواصل ، فلفحت وجوهنا نسمات باردة ذات رائحة منعشة ... توقفنا قليلا ، وبدأ الركاب يفردون أجسادهم من جراء ألم الخفق ، بينما اندفعت " فاطمة " نحو حوض الماء ، بين نهر أمها وابتسامة " ياسين " الساخرة ...

" ياسين " – سيبيها يا بنت " معروف " ... الدنيا أمان ميتخافش منها ... دي مية عين الزوادة تشفي العليل ...

" صفية " – وهو فيه عليل بيشفى ياسي " ياسين " ...

" ياسين " – يخرب بيت كآبتك يا شيخة ... روحي با بطة استحمي يا بت ... استنوا هنا خمسة وجاى ... عم مكرم ... (التفت العجوز اليه ببطء وهدوء) ...اسقينا وحياة والدك لحسن حلقي ناشف ...

لم ينظر العجوز إلى " ياسين " ولم يتحرك له جفن ... وكأن " ياسين " كان يعرف الإجابة مسبقا فسار للحوض ومضي يغسل وجهه ...

" ياسين " – آآعم مكرم ... مش ناوي تسقينا بأة مرة من نفسك

رفع مكرم يده وكأنه يهش حشرة في الهواء ، ثم مد يده للماء فرش بعضا منه على كلبه الراقد بجواره فاهتز بانتعاش وعاد لرقدته ...

" ياسين " – لولاش بس غلاوتك عند الشيخ " حسان " لا كنت سكتلك ولا طلع عليك نهار ... (التفت الينا يبدو محرجا) ... عم مكرم دا أصله بركة . . زي مجاذيب البلد عندنا كده ... حتعزه أوي يا شيخ محسن ...

اقترب واحدا من الرجال حاملا طبق به بعض الطعام ... لحم وخضروات ممزوجة بعضها ببعض ، ووضعها أمام مكرم وانصرف سريعا ، فأخذ مكرم الطبق ووضعه أمام الكلب الذي

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

قام من فوره نشطا ومضى يلتهم الطعام التهاما مبتدئا باللحم ... نظرنا جميعا باستغراب لاحظه " ياسين " ... وبينما مضى "ياسين" يسير في اتجاه رفاقه المنتظرين بجوار السيارات ، مر من جانبي وهو يهمس (... ماتدقش عليه ... عقله خافف ومش داري باللي حواليه ...)

انصرف " ياسين " وهو ينادي على رفاقه بصوته الأجش المختنق وجلس بجوارهم يأكل بنهم شديد ... وبدون أن ينظر الينا نادي بلا مبالاة (الي عايز يطفح يشرفنا ... أحسن من الفطير الناشف بتاع بنت " معروف " ...) قالها وهو يغمز بعينيه ل" صفية " التي أطرقت أرضا وقد انسل منا كثعبان يخنس لرفاقه ، وقام عم مكرم بتثاقل حاملا دلوه الفارغ من الماء وصاعدا ليملؤه من منبع الماء بأعلى الربوة ... و لم أفهم لماذا لا يملأ الماء من الحوض بجواره ... كاد الكلب يقوم خلفه فأجلسه مكرم بنظرة منه فخنس الكلب راجعا وكأنه يقرأ عيون مكرم ... سارت " صفية " لحوض الماء خلف " فاطمة " التي بدأت تلهو بالماء فتنثره على الأرض وعلى شعرها ووجهها ، " فاطمة " حياة لم تتلوث بأوزار البشر ... بينما جلس " شنودة " في ظل التوربيني وقد أخرج كتيبا صغيرا به صلوات قبطية ومضى يقرأ فيه ، أما أنا فقد مضيت خلف مكرم أصعد التبة على درجات حجرية بدائية الصنع يبدو أن البدو صنعوها من قديم ... كنت أبغي أن أختلي بنفسي لحيظات فوق العالم ... في نهاية التبة وجدت ساحة صغيرة دائرية وسط النخل أرضيتها عشب أخضر ناصع بينما بدت فتحات متعددة من قلب الأرض يخرج منها الماء ليصب في القنوات منسابا في رفق وعذوبة ... جلس مكرم بجوارها القرفصاء يملأ دلوه وجلست أنا في هدوء مفضلا انعزالي عن رفاقي المرتعدين من وجودي وقد أحسست بغربتي لأول مرة عن هذا العالم ... وتذكرت قول أبي "لا تنس غربتك عن هذا العالم" ... لمحت من العلو بحر الرمال المتداخل بين الأبيض والأصفر وكأنها لوحة إطارها الخارجي تلال تقف مانعة زحف الرمال وتحوطها برفق ... وعلى الجانب رأيت في الأسفل " ياسين " ورفاقه يتحدثون في خفوت ، كان من الممكن أن أعرف كنه حديثهم لولا أنني صرت لا أهتم بأي شيء سوى المتاهة التي وجدت نفسي فيها بين حب يصرع ببطء على حافة الخوف ، و رحلة أسعى إليها

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

أو تسعى إلي ، ولقاء " السيد " الذي صرت لا أعلم ... هل هو عبد القادر طوليد ... أم هناك سيداً آخر !!!

" ... يا مجلب جليب الأرض والرمل عاجي

لو كان الرِيّ[1] فعل المَيّ لصار البَحَر ساجي [2]...

لكين روحك بروح المي ، تبردلنا نارها

تنسينا الظما والجلب ضَلُّه م الشوج شراجي [3]"

كانت دندنة مكرم عذبة بعذوبة الماء ، الذي كان يتفجر من قلب الأرض شديد البرودة بشكل غريب وكأنه يخرج من جبل ثلج مدفون بقلب الصحراء !!! ... جلست مستندا على جذع شجرة متأملا عم مكرم بينما كانت بعض قطرات الماء تتناثر فتمس قدمي الممتدتين فأحسست برودتها الغريبة

أنا – باردة المية وهي خارجة من قلب الصحرا . . سبحانه

لم ينظر لي مكرم واستمر في دندنته غير مبال بما قلته ، فانزويت صامتا ... أنهى مكرم ملء الدلو وقام مستمرا في صمته وإذا به يجلس أمامي واضعا الدلو بين قدمي وهو ينظر لي ... تأملت عينيه ووجهه عن قرب ، كانت لوحة حجرية بديعة الصنع ، كان سماره مشربا بحمرة ، بينما الشقوق على وجهه تنبئ بعمر ربما يتجاوز عمر عين الماء ، وكانت عيناه عسليتين واسعتين لامعتين بما لا يتناسب مع عمره الذي يبدو مديدا ، مد يده فأشار لي أن أشرب ... فتمنعت شاكرا ...

– أشكرك يا شيخ مكرم ... مش عطشان

أشار مرة أخرى بإصرار ... فتمنعت مرة أخرى

– والله مش عطشان ... خلي المية للي محتاجلها

---

[1] الري بكسر الراء وهو سد العطش

[2] ساجي هي ساقي باللهجة البدوية

[3] والجلب ضله م الشوق شراجي : والقلب يظل من الشوق شراقي أي شديد الظمأ

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

أشار مصرا للمرة الثالثة وبدت على عينيه العسليتين أمارات الحزم والقوة ... ترددت ... فأنا لا آكل ولا أشرب من زاد البشر ... فنظرت له شاردا ... فهمهم بلغة عربية فصيحة ...

- ليس بالضرورة أن يروي الماء ظمأ الحلوق ... فقد يكون القلب أشد ظمئا ... هذه الماء تحمل من الغيب مالا يحمله العمر ... وتحمل من الطهر مالا تحمله أحلام الصغار ...

تأملت في حديثه المدفوع بنظرات عينيه المثبتتين على عيني ...

- يا شيخ ... أنا طلعت هنا عشان أبعد عن البشر ووجع القلوب سيبني في حالي
- لم تصعد هنا باختيارك ... بل هو موعد اللقاء
- لقاء ؟ ... لقاء من ؟
- ألا تبغي لقاء " السيد " ؟
- أنت ؟ . . أنت حارس العين ؟ ... من أي قبيلة أنت ؟ ... من قبيلة " " السيد ""؟

نظر لي باستنكار شديد ، ثم نطق بفخر واضح

- أنا ؟ ... أنا من أسوان من العبابدة ...
- إنسيٌّ أنت ... ؟
- لا تتوقف عند الأسماء والصفات ، ففي هجرة القلوب ، تتلاشى الظواهر وتتجلى الخواطر ...
- كنت أظن ...
- مازلت تتعثر في عوائق الطريق ... مازلت تنظر تحت قدميك ... مازلت تصعد للجبل ناظرا للسفح ...
- لا أستطيع الشرب ...
- لا يطفئ النار إلا الماء ...

قام بشكل مفاجئ حاملا دلوه الممتلئ ... قمت اليه ووقفت أمامه ... والتقطت الدلو من يديه ومضيت أتجرع منه بعنف وشبق ... فأحسست بحميم يتدفق داخلي كأنه سكين ذو ألف حد يسير متخبطا بجوفي ... ترنحت وسقطت ورغما عني صرت أتلوى كما المصروع ... ألما لم أحسه

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

في حياتي سواءا الإنسية أو الجنية ... وظننت أنني ميت لا محالة وأنها النهاية ... نظر اليّ في شفقة الرحيم ... غمر يديه في الماء ومضى يقطره على وجهي وهو يتمتم بآيات من سورة الجن ... "قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا " [1]...

قالها ومضى ... بينما ظللت راقدا على الأرض ... وهو يهبط الدرج الحجري فوجئت بوجه " صفية " يطل من وراءه وهي واقفة على بعد درجتين من نهاية الدرج ، ناظرة لي بمزيج من الشفقة والخوف والذهول و ... والود

ظننت أنني أتوهم مرآها ... فأغمضت عيني وفتحتها مرارا ... لأجدها أمامي كما هي فعلمت أنني لا أتوهم ... تقدمت خطوات بعدما أفسحت لعم مكرم ليمر بجوارها هبوطا ... نظرت لها لمحت عينيها الباكيتين ، اعتدلت في جلستي متساءلا ...

- ست " صفية " ؟ ... بقالك كتير ؟
- حقك عليا يا سي محسن ...
- نعم ؟
- معلش يا خويا ... ماهو أصل الست مننا ما تبقى لوحدها بيبقى قلبها عامل زي العصفور ، اللي ييجي جنبه يطير ... مايخاف على شيء قد خوفه على عِشُّه و شوية كتاكيت راقدين ف حضنه ... وأنا أصلي بقالي ياما ماتعودتش ألقي جنبي راجل أحتاجله ويحتاجلي ... أنا عمري ما كنت واطية ولا ينقصني مجدعة الرجالة ... بس الخوف عشش ورقد ، ماسابش مكان لمروة ولا جدعنة
- عذرك معاكي يا ست " صفية " ... اللي زيك ما تتلامش
- تتلام يا خويا وتتضرب بالجزمة كمان . . اللي ماتقفش ورا جوزها ماتبقاش أصيلة ولا بنت أصول ... سامحني ياسيد الناس ...

[1] سورة الجن ١

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

قالتها واقتربت مني رويدا رويدا ... مدت اليّ يَدَها فَرَفَعَت رأسي و وضعتها على حجرها البض الطري ، وباليد الأخرى مضت تغرف الماء وتمسح به على جبهتي وهي تتمتم بالمعوذتين ... كنت في رقدتي أنظر لها من الأسفل ومن وراءها قمم النخل باسقات ، كأنها شمس دافئة تطل من خلف شواشي النخل ... تذكرت جلستي بجوار سيدي أبو العلا ساعة الغروب فأحسست بسعادة وبرد الصدر ما لم أحسه منذ فارقتني أمي من قديم ...

" صفية " – عارف يا سي محسن ... فاكر لما اتقابلنا أول مرة عند بيت "سيدي أبو العلا" ... يوميها بصيت في عينيك ولمحت كل اللي كان نفسك تقولهولي ، كان نفسي تنطق ولا تتكلم ... سنين استنيتك ... كنت كل ما أخرج من داري باحس كأنك واقف مستنيني ... بأحس بريحك ورا بيت أو جدار طول مانا ماشية ... (ضحكت في سرها بحياء) دانا حتى ساعات كنت باقف قدام المراية وأحط الكحل وأقول في نفسي عشان سي محسن لما يشوفني مايشوفش غيري ... كنت صغيرة ومش فاهمة ... لغاية ما جالي ابن أبو يوسف ... اتمنعت كتير ... رفضته تلات مرات لغاية ما جاني أبويا ف يوم وسألني مالك يا بت ... انتي ليكي شوق ف حد وأنا مش عارف . . ماعرفتش أرد عليه ... مع إن لساني متبري مني وبرقع الحيا كان متقطع من زمن ... ماعرفتش أرد ... أقوله ايه ... أقوله مستنية واحد لا عمره كلمني ولا حتى رفع عينه في عيني ... (بدأت دمعة تترقرق من مقلتيها المعجزتين) ... في النهاية وافقت ... قلت نصيبي وآخده زي كل البنات ... وكان نصيب أسود ... عشت سنتين كانوا أسود من قرن الخروب ... ضرب وإهانة ويجيلي كل يوم مسطول ... يهجم عليا زي التور السعران ... تنتهي الليلة وأنا راقدة على دمعة واحدة ... وأقول في نفسي ... نصيبك خدتيه يا بنت " معروف " وجزات شقاوتك ومناكفتك لأبوكي وأمك ... لغاية ما ركبت معاك العربية ... أقولك ولا ليك عليا يمين ... ماحسيت بالأمان عمري زي ما حسيته وإنت راكب العربية ومتكرمش ورايا ... أول مرة أحس إني مسنودة ... أول مرة أحس إني ضهري محمي ومش محتاجة أبص ورايا ف كل خطوة ... أول مرة أحس إني ... إني متستتة ... (تضحك بسخرية) عقل نسوان بأة ... مع إني عارفة إن " ياسين " شراني وإيده طايلة وإنك يعني ما تأخذنيش ، مش حتاخد في ايده غلوة

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

... بس برضك ... كنت حاسة بالأمان ... ولما رحنا بيت " زكية " ووقفت قدامه زي الأسد ... كان نفسي أترمي بين إيديك وأقولك خدني من هنا وطير بيا فوق السحاب ... خدني وروح بيا أي عشة ولو فرش حصير ، وخرجني من الدنيا دي ... ساعتها عرفت إن نصيبي اتغير ... وإن ربك ليه حكمة مايعرفها ابن آدم ولو شاف الغيب بعينه ...

سقطت دمعة فوق خدي فأحرقني نارها ، فأمسكت بكفها ودون أن أدري قبلته ... وتمتمت في خفوت ... " ... أنا ملكك يا أحب الناس " ... ردت بصوت باك ... "وأنا ملكك يا سيد الرجالة" ...

حرقتني كلماتها ... لو تعلم ... ليس من السهل أن تكون رجلا ... حتى ولو كنت من بني الإنس !!

كلما امتد بي العمر ودارت بي الأيام أدرك أكثر تلك المعجزة التي خلقها الله في قلوب البشر ، لا تنتهي عجائبه ، فمن القلب السامي ل"سيدي أبو العلا" الذي حمل حبا يحوي الكون أجمعه ، لقلب " صفية " الذي يحمل هماً كالجبال فيثور كالبركان في لحظة ، ثم يذوب عذوبة في لحظة أخرى ... لقلب " ياسين " الذي احتمل من القبح ما لو ملأ الأرض لضاقت به ... أدركت تلك المعجزة التي خلقها الله في صدر البشر ... القلب ... تلك القطعة من اللحم التي تنبض بدم لا تتوانى ولا تتوقف ، حاملة معالم حياة مختلفة في كل نبضة ، تمنيت عندها لو كان لي قلباً مثل البشر ...

كانت عينا " ياسين " مثبتة بنا ونحن ننزل من الدرج الصخري معا وقد نزلت أمامها وهي مستندة بذراعها علي كتفي من الخلف كي لا تتعثر وهي نازلة ، وما أن وصلنا للأرض حتى قام من فوره وتوجه الينا بنظرة حادة ...

" ياسين " – إحنا حنتحرك ونسلم البضاعة ، وبعديها كل حي يروح لحاله ... لو كلمة خرجت من حنك أي حد فيكم ... حاقطع رقبته قبل ما الكلمة تخرج ...

" صفية " – خلص وخلصنا يا " ياسين " ... لاحنا لينا غرض منك ولا ليك قلق منا خلينا نخلص وكل حي يروح لحاله

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

" ياسين " – يعني عشان ماحدش يعمل راجل عليا ... أنا أصلي عارف لما الرجالة تاخدهم النعرة قدام نسوانهم ... ولا ايه يا شيخ ؟

أنا – أنا مش حاخاف منك يا " ياسين " ... ولا عندي حد أخاف عليه ... بس صدقني ... مابيضر ابن آدم غير طرح ايديه ... اللي بيزرع علقم بيتجرعه ولو طال العمر

– باقولك ايه ... انا ماليش في كلام المجاذيب ده ... علقم بأة ولا شهد ... نخلص وكل حي روح لحاله ... " شنودة " ... قوم فز ياللا حنتحرك

قام " شنودة " من مكانه مسرعا ومضى ينفض ملابسه ، بينما مضت " صفية " إلى " فاطمة " تجففها من لعب الماء ... نظرت من خلفي لمكرم ، فرأيته يعود صاعدا للتبة حاملا دلوه مرة أخرى ... لم أدر أين ذهب ماؤه أول الأمر ولم أدر لماذا يصعد للتبة آخر الأمر ... غير أنني أدركت أنني صرت مثلي كمثل رفاق الرحلة العجيبة ، لا أدر إلا ماهو تحت قدمي ... وكفى

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

أسرار الصحراء

بدأت المرحلة الأهم من الرحلة لكل من في التوربيني ... فها هو " ياسين " يقترب من تسليم بضاعته ... وعندها سيتحدد مصير كل من في السيارة ...

بدلنا السيارات حيث أخبرونا أن التوربيني لن تستطيع أن تدخل في غمار الرمال الناعمة ، وأنه لابد من سيارة ذات دفع رباعي ... فاستسلمنا جميعا بما فينا " شنودة " الذي مانع قليلا خوفا على التوربيني فقد كانت بالنسبة له أكثر من مجرد سيارة لكنهم طمأنوه أنها في أمان طالما عند عين الزوادة . وجلسنا جميعا بنفس الترتيب ، النعش في الخلفية بثقله المدنس ، وأمامه جلست أنا و" صفية " وبيننا " فاطمة " وبالأمام جلس " ياسين " وبجواره "شنودة" يقود السيارة القوية ... سار موكب السيارات مرة أخرى داخل الصحراء البيضاء وبدا الكون من حولنا كأنه كون آخر لا يمت بصلة للكون الذي رحلنا منه ... وقد مالت الشمس للمغيب وبدأ الليل ينساب بهدوء كمعطف أسود يغطي جسد الصحراء الأبيض الناعم ...

كنا خطاً داكنا يسير وسط صفحة بيضاء ... وكنت أتأمل العين من خلفي وهي تبتعد ، وعم مكرم يخطو نازلا من التبة حاملا دلوه الممتلئ ... وكلبه راقدا على الأرض خادما ينتظر سيده ...

كانت المنحوتات الصخرية العجيبة كأنها شواهد تنظر لنا بعينين غائرتين ، " ياسين " بدا جاد الملامح على عينيه نظرة خوف خافية ، كنت أجلس وبجواري " صفية " ملتصقة بكتفي في تشبث الطفل ، بينما جلست " فاطمة " بجوار النافذة مشدوهة من عجب ما تراه ...

سار الموكب قرابة الساعة حتى اكتمل الليل وبدت السماء رائعة بنجومها المرصعة ، بألوانها المتعددة ، وبخطوطها التي لا تبدو في وهج أنوار القرية ، ذكرتني بأيام كنت أجلس فيها على قمة المقطم متأملا في اللوحة السماوية الرائعة .

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

ساعة ونحن نسير في طريق شبه ممهدة لا يعلم أحد من مهدها ، حتى بدا على البعد مجموعة خيام متحلقة وقد أوقد أمامها نيران متعددة وتعلقت بها لمبات كهربائية هددت الاحساس ببكارة المكان ...

اقتربنا منها وقد بدأ " شنودة " يعاني من صعوبة الطريق وكثافة الرمال ... فلم يكن متمرسا على هذا النوع من الطرق حتى وصلنا للمخيم ، فاصطفت السيارات ، مع خروج عدد ضخم من الرجال ، ما أن وصلنا حتى خرج رجل بدوي يبدو عليه أنه كبير القوم ، فالجميع يفسح له الطريق وهو يسير بينهم في ثقة وتأني ... نزل " ياسين " مسرعا اليه ، فتحدثا معا كلمات معدودة ، انطلق على إثرها بضعة رجال فتحوا باب السيارة وأخرجوا منها التابوت الخشبي الثقيل ، فحملوه نحو البدوي الكبير ووضعوه أمامه ... وجاء بدوي آخر ملثم الوجه ومسلح بمدفع رشاش قديم ، فأشار لنا جميعا بالنزول في هدوء ، فنزلنا جميعا متلاصقين حتى وقفنا أمام الشيخ البدوي الكبير الذي مضى ينظر لنا ويتفرس في ملامحنا حتى وقف عندي ، فتلاقت أعيننا بحدة ... هذا الرجل ليس مثلهم ...

" ياسين " – الشيخ " حسان " ... كبيرنا وشيخنا ... قربوا ياللا منك ، ليه ، لها حبوا على يده ...

نطق " حسان " بصوت عميق وقد ثبت عينيه على عيني يكاد يخترقها

" حسان " – مافي داعي يا " ياسين " ... البهوات ضيوفنا ... والضيف يكرم ويتشال ع الراس ...

" ياسين " – كلك ذوق وأصل يا شيخ " حسان " ...

هنا علا صوت " صفية "

" صفية " – وهما الذوق والأصل إنك توقف حرمة كده وسط الرجالة وهمة مرفعينا بالسلاح

" ياسين " – إخرسي يا بنت " معروف " داهية تاخدك

" حسان " – اسكت انت يا ولد الشوم ... المَرَة عندها حق ... ما يليق بالولايا يقفوا وقفتنا ... سامحينا يا بنت الناس لسة بنتعرف ع الوجوه (قالها وعينيه مازالتا مثبتين بعيني) ... اتفضلي يا أصيلة جوات الخيمة عقبال ما الرجال يخلصوا أشغالهم ...

" صفية " – أنا ماتحركش إلا وجوزي وبنتي معي

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

نظر لها بحدة المتشكك ... ثم أعاد لي النظر ببطء وتركيز ، فمال عليه "ياسين"

" ياسين " – ماتقلقش يا شيخ ... ده الشيخ عبمحسن ... من مجاذيب بلدنا وجوز الست ، لا بيهش ولا ينش ولا يعرف يأذي قطة ...

هنا نظر له " حسان " باستهتار ...

" حسان " – لا يهش ولا ينش ... طول عمري باعرف إنك غبي ... لكن هدى المرة ، أنت غبي وأعمى ... هدا اللي بتقول عليه لا يهش ولا ينش لو أراد يرفع الجبل بصباعه ويهده فوق راسك ، لرفعه ... ويهرسك من قبل ما عقلك الحجر ده يفهم أصلا هو اتولد امتى ...

" ياسين " – ده ؟؟؟؟

نظرت لي " صفية " بإعجاب شديد وانبهار فابتسمت ، يبدو أن مشاعر الرجال تنسحب علي شيئا فشيئا ...

" حسان " – " ياسين " ... خليك مع الرجال ينزلوا البضاعة وقول للسواق يجلس في الخلف مع السواقين ، شيخ عبد المحسن اتفضل معاي في الخيمة بتاعتي ... عايزك ...

بين تعجب الجميع مشى أربعتنا في أربع اتجاهات مختلفة ، أما " صفية " فقد سارت نحو خيمة مغلقة أشار عليها أحد البدو المسلحين فسارت وراءه في هدوء وثقة ، بينما سار " ياسين " مع الرجال ، وأشار ل" شنودة " فانصرف خلف الخيام حيث جلس السواقين حول النار ، وسرت أنا خلف الشيخ "حسان " ...

دخلنا الخيمة الواسعة ، كانت مزركشة من الداخل بألوان زاهية ، والبسط البدوية تغطي الأرض ، بينما تراصت مقاعد مكسوة بالكليم البدوي على محيط الخيمة من الداخل ، وفي الصدارة كانت هناك أريكة متسعة أمامها شيشة تركت بعض من رائحتها بالمكان ... تقدم " حسان " وجلس على الأريكة ونظر لي وأشار أن أجلس بجانبه ... فجلست ...

" حسان " – ماقلكش حاجة مش كده

أنا – مين ؟

" حسان " – أخوي اللي معي ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

أنا – لم أسع لأن أعرف منه شيئا ...

علمت أنه يعني قرينه ، الذي بدا صامتا طوال الوقت ينظر لي بجمود لم أستطع أن أفهم منه شيئا ، كان جالسا فوق كتفه متربعا على هيئة ذئب أسود اللون وقد أسند يديه فوق رأسه ، غير أنه بدا متآلفا معه منسجما ، فعلمت أنهما قد تآخيا ... أي بلغة أهل الإنس ... كان " حسان " "مخاوي" ... !!!

" حسان " – من أي قبيلة أنت ؟

- من السودان
- السودااان ... (سكت برهة . . لمحت قرينه يهمس له) ... دول اللي في المقطم ؟
- نعم ...
- وإيه اللي رماك في أراضينا
- أسير الرحلة مع " ياسين "
- " ياسين " الغبي ... ياراجل قول كلام غير ده ... لو حبيت تهرسه بصباعك كنت هرسته من زمان ... (همس له القرين مرة أخرى) ... آه ... هما مش عارفين ومش عايزهم يعرفوا ... عشان الحرمة اللي معاهم ؟
- أسئلة كتير يا شيخ
- وماله . . شفت زيك كتير ... حبكم لنسواننا مش غريب ولا عجيب ... بس اتجوزتوا عن حق ؟
- كيف خاويته ؟
- أخوي ... اسمه "عفار" ... من جن سيوة ...
- وكيف التقيتوا ؟
- يا شيخ عبمحسن ... إحنا في الصحرا ، يعني الليل والخلا والوحدة ، يعني الدِرا والتوهة والأسرار المخفية ، والصحرا تبوح بأسرارها للي قلبه يستاهلها ... اللي مايهابش الموت ... كنت باخرج ليلاتي بالليل في الحتت اللي مافهاش لمحة ضي ... هناك حسيته بيراقبني ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

كنت أجيبله في البدء العضم الناشف الملبس بلحم قديم ، بعد ما عرفت من شيخ الزاوية أنه هو ده أكلكم ... بعد شوية ... اتعلمت شوية تعاويذ علمهملي جدي الله يرحمه ... بقيت أقراهم عليه ... بعد أربعين يوم بليلة ... ظهرلي في شكل ديب أسود ... عينيه بتلمع ... وأنا قلبي ميت ... كنت في صغري بالعب بأم عريض[1] ... أول ما ظهر قدامي عزمت عليه وقبضت عليه من رقبته ... ماعرفش حتي يرجع لشكله ... وماسبتوش غير لما اتعاهدنا واتخاوينا

- بس ده محرم علينا وعليكو
- يا عبمحسن ... اللي يعيش عيشتنا ويشوف اللي بنشوفه ، يا يخاوي ... يا يهلك ...
- كله هلكة ... "وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا" [2]...

صمت ونظر لي بعمق ...

- أديني قلتلك حكايتي . . انت بأة اللي رماك نواحينا
- عايز أقابل " " السيد "" ...

اعتدل " حسان " في جلسته وبدا عليه القلق والوجوم والخوف من قلب بدا الخوف اليه مثل ألعاب الصغار ...

" حسان " – " السيد " ... مين ؟ ...

أنا – " عبد القادر طوليد " ... تعرفه ؟

" حسان " – (قام متوترا ، وبدا عليه القلق الشديد) ماشفتوش ... باسمع كل حي في الصحرا بيتكلم عنه ... بيقولوا إنه من أوليا الجن ... ويعرف اسم الله الاعظم ... الكل بيترعب منه وبيهابه ... مرة واحدة بس احتكيت بيه وعمري ماحانساها ...

أنا – قابلته ؟

---

[1] نوع من العقارب السامة في الصحراء

[2] سورة الجن ٦

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

" حسان " – كان محظور علينا ندخل البضاعة من السكك اللي بيدور فيها هو أو حد من قبيلته ... مرة حاولنا كان حرس الحدود قاطرنا ... كنا تلاتاشر عربية تويوتا ديزل ... عدينا من ورا تل كان في منطقته ... كنت في آخر عربية ... شفت منظر عمري ما حانساه ... كنا ساعة الشروق ... لقيت الرمل بيلف بيعمل دوامات حوالينا في كل حتة ... دوامات بتعلى وبتعلى ... وتقرب مننا ... وبتكبر لحد ما توصل للسما ... لحد ما دخلت علينا ... 13 دوامة بلعوا التلاتاشر عربية ... شفت العربيات المحملة بعينيا وهي بتطير في السما وبتلف كانها بتلف في خلاط ... واللي فيها بيقعوا من شبابيكها زي النمل ... عربيتي بس اللي فضلت في مكانها ... كأنه كان بيوريني ... طارت العربيات بالبضاعة في السما ... واختفت ... لقيناها بعدها بأسبوع عند أول الصحرا السودة ... ييجي ميتين وستين كيلومتر من هنا ... بضاعة ب 12 مليون جنيه طارت ف الهوا ... بس الشهادة لله ... ما فيه مخلوق اتمس ... من ساعتها ... بقيت ماهوبش ناحيته ولا قربه حتى ...

أنا – تعرف توصلني ليه ؟

" حسان " – ماعرفش هو فين ، ... لكن أدلك على منطقته ...

أنا – شيخ " حسان " ... إنت مانفسكي تملك سلطة " " السيد "" وقوته ؟

" حسان " – نعم ؟؟

أنا – معرفتي باللي زيك إن همهم القوة والنفوذ ... مش عايز يبقى ليك سلطة " السيد" وقوته ؟

بدا عليه الاهتمام الشديد ، فعاد واقترب وجلس بجانبي

" حسان " – ودي تيجي ازاي يا شيخ عبمحسن ؟

– وهو "السيد " جاب قوته منين ؟

– جن بأة

– وهو حتى الجن ليهم السلطة دي ... مانت مخاوي ... ماجبتش عربياتك ليه ؟

– الجن درجات بأة ومقامات ...

– ومقامك بيعلى ازاي يا شيخ " حسان " ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- ازاي يا شيخ عبمحسن ...
- الكون ده يا شيخ " حسان " ... بكل ما فيه ... بجباله وتلاله وصحاريه ... بشوارعه وحواريه ... بالإنس والجن والحيوانات والشجر والرمل ... كل حبة فيه ... كل نقطة مية في مطر أو في بحر ... كله ... ملك واحد بس ... كله بيخضع لسلطان واحد بس ... هو اللي بايديه يرفع وينزل ... هو اللي لو رضي ... يسخرلك الكون باللي فيه ... ولو سخط ... يسلط عليك كلب سعران تايه ... " " السيد "" مخلوق من مخلوقاته ... قرب منه ... التمس منه الإذن ... وإبأة واحد من أولياءه ...
- لكن ...
- وصدقني الموضوع مش بالعمر ولا السن ولا حتى كتر العبادة ... الموضوع بالقلب يا شيخ " حسان " ... اللي قاعد فوقيك ده ومكلبش رجليه على رقبتك ... عامل غشاوة على قلبك ومفهمك أنه بينجيك من شر أو بيحققلك خير ... لكن الحقيقة ... إن خيره شر . . وشره لعنة ... وقعدته معاك كفر ... ونهايته معاك في عذاب مالوش نهاية ... إنت بتعادي اللي خلق الكون وخلقك وخلق " السيد " ... بتعادي اللي بامره اترفعت التلاتاشر عربية في لحظة ... بتعاديه ... وفاهم إنه سايبك شطارة منك . . لا يا شيخ " حسان " ... حتيجي اللحظة اللي بتهرب منها ... حتيجي اللحظة اللي انت خايف منها ... وحتقابله ... وحتبقى لوحدك لا معاك عفار ولا عفاريت الجن كلهم... وساعتها ...هينتهي كل شيء ...

فجأة قام " حسان " وقد التمعت عيناه بوهج أحمر مخيف وبدا قرينه فوق كتفه متحفزا منتفخا أحمر الصدر والوجه ...

" حسان " – انت جاي توعظني هنا يا شيخ عبمحسن ... طب كنت اوعظ نفسك وانت ماشي مع مَرَة لا هي من جنسك ولا من خلقتك ... هو ده مش برضك بتسموه كدب وتدليس ولا ايه يا عفريت العلبة ... قوم فز اخرج من هنا داهية تاخدك ...

كنت أعلم أن الذي يتكلم ليس " حسان " ... إنه عفار الذي تمكن منه ولم يترك في قلبه مقدار سن الإبرة من بياض ... من طول تعامل الجن مع البشر ، يتسلل الجني شيئا فشيئا إلى القلب

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

، فكما هو متربع على كتفيه عاقدا ساقيه حول رقبته ... تتسلل أنامله إلى قلبه فتُغزَل مع شرايين قلبه ، فيتحدث على لسانه ويُسْمِعُهُ ما يريده أن يسمع ، و يُحَبِّبُهُ فيما يحبه ويُبَغِّضُه فيما يبغض ... هممت أن أجادل " حسان " وأستمر في نصحه لولا أنني سمعت ما جمدني وأسكت لساني ... فقد سمعت صرخة إمرأة من الخيمة الأخرى ... عندها لم أتمالك إلا أن خرجت مسرعا جاريا بكل أملك نحو الخيمة الأخرى ... لأرى ما راعني وجمد الزمن من حولي ...

رأيت " صفية " خارج الخيمة محتضنة " فاطمة " وهما يرتعدان خوفا ... لكن ليس هذا ما راعني ... ما راعني حقا هي تلك المرأة التي كانت تقف بجوارها حاملة طفلتها الرضيعة ... فلم تكن المرأة سوى "" زكية "" ... ولم تكن الطفلة سوى " هدية " ... !!!

كان الصراخ بسبب ثعبان مرق من داخل الخيمة ، وخرج منها فانقض الرجال عليه فمزقوه ... لكن كان الذهول مسيطرا على المكان بعد خروج "زكية" و" هدية " من الخيمة ، وكان بالطبع الأكثر ذهولا هو " ياسين " الذي كان يقف بين الرجال عند السيارة حاملا لفافة مربعة بيضاء ، وبمجرد أن لمح " زكية " و" هدية " حتى سقطت منه اللفافة و جرى مسرعا نحوهما ، ثم توقف في منتصف الطريق عندما لمح الشيخ " حسان " خارجا من خيمته من خلفي ... فحول مساره واتجه اليه ...

" ياسين " – معناته ايه الكلام ده يا شيخ " حسان " ؟

" حسان " – كل خير يا " ياسين " ... كلكم ضيوفنا وإكرامكم واجب

- من امتى بندخل النسوان في شغلنا يا شيخ " حسان "
- من ساعة ما النقلة عليت من نص مليون ... ل ٢٥ مليون يا ... يابن الشيخ
- وهو انا امتى غدرت بيك يا شيخ " حسان "
- ولا عمرك تقدر ... بس نفسك أمارة بالسوء ... وفكرت فيها بدل المرة عشرة ...
- وانت فكرك يعني المَرَة دي تعنيني في شيء ... والله لو دبحتها حتت ما حتفرق معايا
- عارف ... المَرَة دي مش حتفرق معاك مانت متجوز غيرها تلاتة ومرافق عليها ٦ ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

تجمد " ياسين " في ذهوله الطفولي الغبي ، وجحظت عيناه متعجبا من معرفة الشيخ " حسان " لأسراره

- ايه ؟؟؟
- وأقدر أقولك أسماءهم كمان لو عايز ... انا عارف إن مفيش جنس مخلوق يفرق معاك ... وده اللي رغم وساختك بيعجبني فيك ... قلبك الميت ... بس اللي يفرق معاك ويقطعك وماينيمكش الليل ... لو اتقال إن الست بتاعت " ياسين " ... في ايد راجل تاني وهو ماستعناش يتحرك ولا يتصرف ... تخيل إنت بأة الرجالة حتقول عليك ايه ...

لم يكن من الصعب للجميع رؤية ألسنة النار التي بدأت تتصاعد من وجه "ياسين " المنتفخ احمرارا وهو يقع تحت طائلة القهر التي طالما وضع الناس تحتها ... لكن ما لم يسمعه أحد ... هو القسم الذي انتواه " ياسين " في سره أن يقتل الشيخ " حسان " مهما طال به العمر ... وبالطبع علم به الشيخ " حسان " ، فبدت على شفتيه ابتسامة هادئة ، والتفت وأعطى ظهره ل" ياسين " متحديا اياه أن يقدم على أي خطوة ... ونادى الرجال بقوة

- ياللاة ياد هِم إنت وهو ... العربيات دي لازم تتحرك قبل الشروق ... أنا عايز أوصل دار سيدي مجدوب قبل الليل ... الصحرا مش حترحمنا في الليل ... (ثم نظر الي نظرة ذات مغزى) ماحدش يعرف الصحرا مخبيالنا ايه ...

لم ينتظر الرجال انتهاء الشيخ " حسان " من جملته ، فصاروا يتحركون جميعا كما الضباع حين تحوم حول فريستها ... بهدوء وصمت كانوا يفرغون التابوت من حمولته ، بينما وقف " ياسين " حائرا يتابع " حسان " بنظرات حارقة ... أما " زكية " فقد احتضنت ابنتها واتخذت ركنا بجوار النار التي صارت تزيد اشتعالا مع الهواء الذي صار يلف المكان كأنه أسراب من النحل تتطاير بأزيزها الخافت . تحركت " صفية " ببطء محتضنة " فاطمة " وانزوت بجوار " زكية " في هدوء وقد ثبتت ناظريها علي ملتمسة الأمان الذي شعرت به منذ أعلنا زواجنا السري ... أما أنا ... فصرت مترددا ... وددت لو ازويت بجوار تلكما المرأتين ، فاردا عليهما جناحين من النار تمنع حتى نسمات الهواء من التفلت اليهما ، لكنني استشعرت الحرج من أن أترك مكاني

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

بجوار الرجال لأنزوي بجوار امرأتين ضعيفتين ... ولم يكن لي أن اشارك الرجال في نجاستهم ... فتحركت رغما عني في اتجاه الخيمة التي خرجت منها المرأتان وكأنني أقوم بتأمينها لهما .

ما أن دخلت الخيمة حتى تلمست رائحة أعرفها ... بهذا المكان بعض من بني قومي ، غير أني لا أراهم ... تعجبت كثيرا ... تلفتت بكامل أرجاء الخيمة وسقفها ... لم أر سوى تلك النقوش المرسومة على الأغطية والمقاعد والسجاد المفترش أرض الخيمة ... وهنا جاءني خاطر أوجلني ... هل ستترك أولئك الرعاع لينشروا نجاستهم بأرجاء الأرض ، وأنت تشاهد ما يحدث وكأنك بعض من تلال الصحراء الصماء ؟ ... هل قصر بك الفهم فلم تر واجبا سوى حماية تلكما المرأتين وطفلتيهما الحائرتين ؟ ... أفي ترحال تبتغي به الصلة إلى رب العالمين ، تر ما يغضبه ويكرهه فتزعم أنك لست ذو صلة؟ ... تبتغي مرافقة " " السيد "" ولو رآهم لقلب رمال الصحراء فوق رؤوسهم ... أولئك الرجال الذين يخشون الدخول لمنطقة تحت نطاق حماية "السيد" ... لو كان بك صدق التوجه اليه لكانوا منك أخْوَف وأَوْجَل ... لكن ... أأستطيع أن أكون أنا وسط هؤلاء الإنس بطبيعتي الأصلية؟ ... أنا ؟ ... ومن أنا حقا ؟ ... أنا المرتحل حائرا ... انا المفقود بين عالمين ... أنا العاشق بلا قلب ... والمحترق بنارٍ تحرق من اللهفة ناراً .

جلست في مكاني القرفصاء ... وصرت أدندن بأذكار علمنيها أبي حين كنت أتوه منه بأرجاء الجبل العظيم ... كنت أتمنى الاستدلال ولو بقبس من نور ... صارت الدندنة تعلو ... لم ألحظ معها تلك الدوامات التي صارت تضرب بأرجاء الخيمة ... حتي صار أزيزها يخرق الأذان ... صارت الدوامات تعلو حتى ارتفعت الخيمة فوق الأرض وصارت تجذب أوتادها في الهواء تنازعها في التفلت والهروب ... تناهى إلى سمعي صراخ الرجال بالخارج ... سمعت صوت " حسان " بالخارج يصرخ ... سمعت بكاء أطفال ... وسمعت في الخفاء صوت يأتيني همسا ...

"الأرض تتبع خالقها ...

رائحة الدنس تقتل طهر الأرض

يا ساكن الجسد أبصر

لم يعد بالقلب سوى التعلق بمن أحياه

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

نفير العشق يحرق

وطنين الذنب يعلو فوق صراخ الأضلع الصماء

أنت وحدك دليل ذاتك

لا مكان بين الأرض والسماء

سوى ذلك المصباح المعجز

فانفر اليه

كفراشة تبلغ الفناء

حينها

تخشع الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا "

أفقت من غفوتي المفاجئة ، لأري المكان من حولي فراغ ... لا خيمة ... لا سيارات ... لا رجال ... لا " صفية " ولا " زكية " ... ولا " فاطمة " ... كان الظلام دامسا ... السماء بحر من النجوم الملونة ... والقمر صافيا مضيئا كمصباح نور فلكي ... من على البعد رأيتها وحدها ... واقفة وحدها يتطاير ثوبها المزركش ... طفلة لم تبلغ بعد الثلاث سنوات ... تقف في نور القمر الفضي كأنها ملك من الملائكة ... حولها وقف اثنان من الملائكة الحراس تتسند عليهما وهي تخطو خطوات مترنحة ... سارت الي وكأنها تسير فوق الهواء ... وصلت الي ... أول مرة أراها عن قرب ... عينيها عيني "سيدي أبو العلا" ... بصفائها الرقراق ... اقتربت ... مدت يديها فمست وجهي البشري الطيني اللازب ... وتمتمت بلغة فصيحة ...

" هدية " – أنت . . أنت

- من أنا
- المرتحل
- فمتى الوصول ؟
- حين يخلو القلب ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

قالتها وتلاشت في الأفق كالأثير ، ... وأظلمت الدنيا فجأة ... فلم أر شيئا ... ثم عاد النور فجأة ... لأري " صفية " بجواري جالسة القرفصاء في حالة من الهلع ... نظرت حولي لأري نفسي في الخلاء ، بينما كل شيئ على ما هو عليه ... سوى أن الخيمة قد طارت فلم يعد لها أثر ، بينما الجميع يقف واجما ... و" زكية " تجلس مكانها محتضنة " هدية " و" فاطمة " بينما وقف " حسان " وسط رجاله ذاهلا وبينهم " ياسين " ... وخلف مكان الخيمة المقتلعة وقف "شنودة " بين السائقين ينظر لي بعمق ...

- ايه اللي حصل يا ست " صفية "
- ابدا يا خويا ... احنا لقينا الخيمة بتضرب فيها الريح زي الطبل ، زي ما يكون جواها بسم الله الرحمن الرحيم شيطان محبوس وعايز يطلع ... وفي غمضة عين لقينا الخيمة بتطير من حبالها وانت يا حبة عيني نايم ع الأرض متسمر تمام بالظبط زي اللي حصل عملول ... ايه اللي بيصيبك بس يا سي محسن ؟

جاءني من الخلف صوت " حسان " ... هادئا رزينا

" حسان " – ايه يا شيخ محسن ... حد ضايقك ولا ايه ؟

لم أرد عليه ... فاقترب مني ... وفجأة اختطف " صفية " بين يديه وتغيرت لهجته كما الذئب الجائع ...

" حسان " – الظاهر مش " زكية " وبنتها همة ضمانتي ... عموما يشكر "ياسين" ... ماكنتش اعرف ان ليه فايدة

وسط تملص " صفية " وصراخها أخرج " حسان " خنجراً معقوفا من جلبابه وأسنده على رقبتها بعنف حتى سالت منها الدم ... فوقفت في هدوء ...

" حسان " – الرجالة حتحمل البضاعة ... وحنتحرك ومعانا المَرَة دي ... ولو حبة رملة اتحركت ... حنندفن فيها سوا ...

أنا – والباقي ؟

" حسان " – الباقي ؟ ... مين " ياسين " ؟

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

أنا – مايهمنيش " ياسين " ... كلكم كلاب حتنهشوا ف بعض في يوم م الأيام ... إنت مش محتاج الست " زكية " ولا البنتين ... سيبهم يروحوا ...

" حسان " – حاسيبهملك تروحهم ... والرجالة حييجوا معايا ... " ياسين " بأة مايلزمنيش بنكلة ...

التفت " حسان " وهو قابض على " صفية " كقبضته على روحه ... بينما كانت عينيها جاحظتين دامعتين ... تنظران لي ول" فاطمة " بلهفة ... تمتمت في صعوبة ...

" صفية " – " فاطمة " ياسي محسن ... " فاطمة " ...

نادى " حسان " بقوة على " ياسين " ، لكن لم يلحظ الجميع في ظل التوتر اختفاء " ياسين " ... ولم ننتبه إلا وسيارة من السيارات تنطلق بجنون نحو الصحراء ، هم الرجال أن يسرعوا لسياراتهم للحاق به لكن "حسان" أوقفهم ...

حسان – سيبوه ... لو طلع من الصحرا يبقى مكتوبله عمر جديد ... كله يركب العربيات ... ياللا ...

في ثوان معدودة خلا المكان من كل من كان فيه ... سوى " زكية " وقد احتضنت " فاطمة " بينما قامت " هدية " في ترنح طفولي يسندها ملكين حارسين وهي تقف ناظرة لي بحنان بالغ .

للكون مالك يديره ، يعلم الجميع ذلك ، لكن لا يوقن به إلا من أدرك المالك وما يملك ، عدا ذلك يصير الهم رفيقا لا يغادر القلب الضعيف ، نسعى ونشرد ونجري ، ونظن أننا نسير الأمور ، وما نحن إلا كمن يلقي بحجر صغير في بحيرة متخيلين أننا نغير مسار الماء ... لكن في الحقيقة أننا لا نتحكم إلا في موضع خطونا والذي غالبا ما يلقينا إلى ما هو مقدر سلفا ...

بعد خلو المكان ومغادرة الجميع ، تقدمت خطوات حتى جلست بجوار الست " زكية " والطفلتين ... بدا على " زكية " الشرود في سكون ، أما " فاطمة " فكانت خائفة ترتعش في صمت ... أما " هدية " فكانت واقفة تبتسم في براءة ... " هدية " متصلة بالمالك ... فهي لا

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

تخشى شيئا في ملكه ... أما نحن ... فزعزعتنا الحياة الدنيا حتى تدنينا معها عن السمو لرحابة الملك العظيم ... جلست على ركبتي ...

" زكية " – العمل يا شيخ محسن ؟

أنا – العمل عمل ربنا يا ست " زكية "

- حتسيب الست " صفية " معاهم ؟
- المقدر مكتوب يا ست " زكية " و الأمر بأيد الملك ...
- بس دي قالت إنكم إتجوزتوا ... يعني مراتك في حماك ... حتسيبها يا شيخ؟
- لا يا ست " زكية " مش حاسيبها ... أطمن عليكم إنتوا بس الأول ... ماقدرش أسيبكم في الخلا والصحرا والليل لوحدكم ، والست " صفية " موصياني على " فاطمة " ...
- سيبنا يا خويا ، سيبنا وارجعلنا حتلاقينا ... اللي خلقنا مش حيسيبنا ...
- اسيبكم هنا يا ست " زكية "
- سيدنا ابراهيم ساب الست هاجر لوحدها في واد غير ذي زرع ... سابهم للملك يا شيخ محسن ، وربنا مش حيسيبنا ...
- الكون ليه أسبابه وقوانينه يا ست " زكية " ، والملك أمرنا نتبعها
- والملك بيغير قوانينه لو انعدمت القدرة ... "أمن يجيب المضطر إذا دعاه"
- ونعم اللي ربي ... ونعم اللي علم ...

كنت أرى الملائكة الحراس قد أحاطت بالمكان ، فعلمت أن هذه المرأة محروسة بأمر الخلاق الملك ... لكن كانت نظرة الخوف في عيني " فاطمة " تلقيني في بئر من الحيرة والخوف ... ليت لي يقين مثل يقين " زكية " ...

" زكية " – يا شيخ محسن ... أنا عارفة كويس إنك تقدر تلحق " صفية " ... ماتشغلش بالك بينا ... اللي خلقني وخلقك مش حيخذلنا ...

"روح انت يا شيخ محسن ... أنا معاهم ... " التفتت ورائي لأرى " شنودة " قادما من قلب الظلمة ، بعينيه ود افتقدته منذ موقف كوثر وقد ظننته لن يعود . .

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

شنودة – روح يا شيخ محسن ... ماتقلقش عليهم ... أنا عارف صفية تهمك أد إيه ... وعارف إنك تقدر ترجعها ... وسامحني يابن عمي على سوء ظني فيك ... أنا عارف إني من ملة غير الملة ... بس صدقني يا خال ... البني آدم بني آدم ... سوا كان مسلم ولا مسيحي ولا حتى كافر ... البني آدم اللي بجد ما يرضاش بالظلم ولا القهر ... والست زكية زي أختي ، و هدية وفاطمة زي ولاد أختي ... ويمين باللي خلقني وخلقك ما حاجة حتمسهم لحد ما ترجع سالم ...

... نظرت له وعلمت أن قلب الرجل حيّ مملوء بالحب ... ومن ملأ قلبه الحب الحق ... يرتقي بين زمرة البشر ليكون من أكارمهم ... ثم نظرت لعيني " هدية " فوجدتها بابتسامتها المعجزة تميل على "فاطمة " وتلاعبها وكأنها قرأت ما بي ... فاستودعتهم الملك ، وابتعدت عنهم حتى ابتعدت عن ناظريهم ... وفي لمح البصر تخليت عن طبيعتي الإنسية ومرقت حتى صرت فوق السيارات الهاربة فوق دروب الصحراء المظلمة ... كان الموكب يسير بسرعة جنونية ... ، وفي آخر السيارات جلس " حسان " وبجواره " صفية " وهو مازال مثبت السكين المعقوف فوق رقبتها ، فقد كان يدرك تماما أنه في غفلة عين أستطيع أن أغرس هذا السكين في صدره الأسود ... لكنني كنت أخشي من قرينه ... ففي لمحة الصراع قد يتمكن " حسان " من ذبح " صفية " في لحظة ... وفي الحقيقة ... كنت أرى بعضا من بني جنسي يحلقون حول السيارة وكأنهم يحمون " حسان " ومن حوله ... كان الوضع صعبا والمخاطرة جسيمة والخسارة غير مقبولة ... لم يخل القلب بعد ...

لم أقترب خشية أن يدرك المرافقين وجودي ... فظللت أرقب الموكب من بعد ، حتى فوجئت بالموكب يتوقف فجأة ... لسبب غير " معروف " ، فوجئت بالرجال ينزلون من السيارات متوجهين لسيارة " حسان " ... وكأنهم يناقشوه في الأوامر الصادرة منه ... أما " حسان " فلم ينزل من السيارة ولم يرفع يديه من على رقبة " صفية " ... كنت أحتاج أن أتسمع ما يقولون غير أني كنت أبعد من أن يصل لي ما يقولون ... فاتخذت مكانا فوق تل بعيد أرقبهم من تحتي نقاط بيضاء مضيئة وسط الصحراء ... تعالت أصوات الشجار ، أخرج "حسان" مسدسه وضرب

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

طلقات أصابت واحدا من الرجال ... بدا لي الأمر أقرب لحالة تمرد ... الرجال يرفضون الانصياع ... إنه يأمرهم بما لا يطيقون ... وتعجبت ... بعد كل ما رأيت من تلك الطاعة العمياء لرجال يسيرون كأنهم مسخرين ... تعجبت ... ما ذاك الذي يرفضون تنفيذه اللحظة ... الشيئ الوحيد اللذي يخاف عليه الإنسان هو حياته . . قد يتهاون ويتنازل ويقبل بكل الخطايا والدنس في مقابل أن يعيش بضع أنفاس زائدة ، ولو علم الإنسي أن الحياة مقدرة بوقت محدد لا يزيد ولا ينقص مهما فعل لما ارتضى الهوان والذل ...

فما الذي يخشاه الرجال لهذا الحد ... سوى ... " حسان " يريدهم أن يسيروا في منطقة "السيد " ... !!! من الرعب الذي رأيته بعيني " حسان " من هول ما رأى أدركت حجم الرعب الذي قد يكمن في نفوس هؤلاء الرجال ... هذا فقط هو ما يخشون ... هم لا يخشون إنسي مثلهم ... لكنهم يرتعدون مما لا يعرفون ...

سقط منهم واحد على الأرض لكنهم ظلوا متسمرين أماكنهم ... حتى الموت لم يعد لهم رادعا ...

تحركت سيارة " حسان " وحدها متقدمة الركب ... تقدمتهم بمسافة طويلة ... ثم عادت ... توقفت عندهم قليلا ... ثم عادت مرة أخرى متقدمة الركب ... فركب الرجال وسارت السيارات متتبعة سيارة " حسان " ... لكنهم محافظين على مسافة تسمحلهم فقط برؤية سيارة " حسان " من على البعد ...

" لو يعلم الإنسي معنى الخوف الحقيقي ، لكان أخوف ما يخاف منه هو نفسه " ...

التفتت ورائي لأرى الشيخ مكرم واقفا حاملا دلوه الملئ بالماء وبجواره كلبه الوفي ... تسمرت مذهولا ...

أنا – شيخ مكرم ؟؟؟

مكرم – هل التقيت "السيد " ؟

أنا – لا ... ليس بعد

مكرم – فتعال الآن

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- الآن
- الآن
- لكن ...
- لك الاختيار
- الآن ؟
- لك الاختيار
- أين ؟
- ستأتي معي
- لكن ...
- الآن

نظرت من على البعد للموكب المغادر حاملا معه " صفية " ورقبتها مستندة على حد السكين ... ثم أعدت النظر للشيخ مكرم ... كان عينيه تشعان بريقا هادئا ... بهما لمحة من عطف وود لم أرهما في عين الزوادة ...

أنا – معك يا شيخ مكرم ... لله الأمر من قبل ومن بعد ...

مد الشيخ مكرم يده فأمسكت بهما ... وتمتم بكلمات ... فاختفي الكون من حولي لأرى نفسي وسط الصحراء البيضاء بتكويناتها المنحوتة نحتاً ... تلفتت حولي ... اختفى مكرم وكلبه ... وبدا المكان من حولي خاليا وضوء القمر ينير المنحوتات الحجرية فكأنني أراهم يتحركون وينظرون الي ... من على البعد لمحت هيكل جالسا القرفصاء وسط أرض فسيحة أحاطت بها من علي البعد تلك المنحوتات الجبلية المنتشرة في الصحراء البيضاء ، كان منكفئا على نفسه مرتديا رداءا أبيضا مسدلا على رأسه غطاءاً يغطي وجهه منسدلا على كتفيه كاشفا عن شق طولي رفيع في منتصف الوجه ... كانت هيئته كذلك الذي رأيته فوق سقف البيت في البويطي لكن كان يبدو أكبر قليلا ... اقتربت منه حتى وصلت اليه ... كان ذلك الشق في منتصف الوجه يشع منه نور أبيض أقرب للإحمرار ... كانت يده طويلة بشكل ملحوظ ... مغطاه تحت

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

اكمام الثوب المنسدل ... اقتربت منه ، فاستوى واقفا ، فبدا ضخما مهيبا فارع الطول ...كان في طوله الفارع كأنه أحد تلال الصحراء البيضاء المنحوتة يخرج من قمتها نور أبيض كأنه فنارة وقفت في بحر الرمال تهدي الحائرين ...

توجه لي من خلال الشق الأبيض المضئ ... وخرج الصوت عميقا رخيما جهوريا تكاد تلال الصحراء أن تهتز من قوته ...

- من أنت ؟
- اسمي عبد المحسن بن ...
- (قطعني) ... من أنت ؟
- أنا من جن السودان ... نسكن في ...
- (قطعني مرة أخرى بحدة) ... من أنت ؟
- أخبرني سيدي

اقترب مني فملأ قلبي الخوف ...

- ماذا تريد ؟
- أريد لقاء "السيد" ...
- ماذا تريد ؟
- أريد أن أتعلم ...
- ماذا تريد ؟
- أريد أن أصل ...

للمرة الأولى أحسست فيه بالارتياح ، فأدركت أنها الإجابة الصحيحة الوحيدة التي ذكرتها ضمن كل الأسئلة التي سألني إياها ...

- وهل تعلم محطة وصولك ... ؟
- أعلم وجهتي
- ما دليلك عليها ؟

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- شغفي واحتياجي
- فمتى ستدرك أنك وصلت ؟
- سأعرف ... لا أعرف كيف لكني سأعرف ...
- فلماذا إذن تحتاج للقاء أي مخلوق ؟
- تعلمت أن الرفقة من حسن السفر
- عَلّمَكَ حكيمٌ كما أرى
- ومازلت أتعلم سيدي ...

التفت عني مشيحا بشقه المضئ فألقى بضوءه على الأرض حيثما يتجه بوجهه ... ومد يده فخرجت من الأرض دوامة من رمالها وحجارتها البيضاء فصارت تتشكل بتناسق عجيب وهو يدور بيده حولها كما الخزاف حين يصنع أنية فخارية بديعة ... فعرفت أنه من صنع هذه التكوينات البيضاء البديعة في قلب الصحراء البيضاء ... خاطبني بدون أن يحول إتجاهه لي ، وظلت هالة النور التي تشع منه مثبتتة على المنحوتة الحجرية التي تتشكل رويدا رويدا ...

- هذه الرمال البيضاء ... تفترش الأرض عمرها ... تحمل في قلبها صلابة الأرض لكنها في دقة حجمها تتشكل في ليونة ... فلو صادفت يد عليمة ، صارت جمالا متأنقا يقف في تحد ... ولو تركت للرياح لتناثرت وصارت غبارا ... هكذا النفس الحية ... في جهلها تصير جامدة متصلبة ، فإن أدركت ضآلتها كمثل هذه الرمال ... وصادفتها يد تعلمها ، ... تتشكل فتكبر وتنمو حتى تصير على بدعة[1] من يعلمها ...

كانت المنحوتة في يديه تكبر وتنمو حتى صارت أثرا رائعا مهذب الأطراف ... ويديه تشذب كل جوانبها ... حتى إذا انتهى منها ... ابتعد عنها فصارت في شعاع الضوء المتفلت من عباءته منحوتة تبدو على شكل شيخ معمم كبير الرأس مرتكزا على رقبة رفيعة ...

- فإذا كبرت واستوت ... صار عليها أن تعرف ... من هي ... هل مازالت حبة الرمل المهملة المتناثرة فوق الصحراء ... أم هي تكوين حجري يحمل في قلبه الجمال والاتساق ...

---

[1] إبداع وفن

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

أنا – فكيف تعرف ... ؟

التفت لي فسقط عليّ شعاع النور ...

"حين تمعن النظر في نفسها والكون من حولها وتسأل ... "

قبل أن أنطق . . بادرني

"ولا تهم الإجابة ... بقدر ما يهم السؤال "

- السؤال واضح جلي ... من أنا؟
- السؤال الحقيقي ... لماذا أنا ... وليس من أنا؟ من حوالي ٨٥٠ تريليون و٧٤٠ مليار و٣٠٠ مليون خمسمائة أربع وسبعون ألف حبة رمل في هذا المكان الذي نقف فيه أنا وأنت ... لماذا كانت هذه الحبة تكوينا جميلا معجزا ؟
- لماذا ؟
- هذا سؤال لا يجيب عنه سوى "السيد" ...
- وأنت ... من أنت ؟ ألست " السيد " ؟ ...
- أنا عبد القادر طوليد من قبيلة الأكرمين ، طوليد أصلها طويل اليد ... وحرفت لطوليد ... نحن قبيلة من النحاتين ... ننحت قلب الصحراء ... تعلمناها من أجدادنا الأوائل الذين كانوا ينحتون لسليمان عليه السلام "مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ"[1]
- ألست أنت "السيد " ؟
- مازلت تنشغل بالأسماء ... كنت "السيد " أم لم أكنه ... ماذا تريد ؟
- أريد أن أصل إلى الله
- وهل كان بعيدا لتصل اليه ؟
- أريد أن أراه ... بقلبي

[1] قال الله تعالى: يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ {سبإ 13-12} والمحاريب جمع محراب وهو مكان الصلاة ، والتماثيل معروفة ، والجفان : جمع جفنة ، وهي القصعة العظيمة التي يجفن فيها الماء ، أي يجمع ويحوط عليه كجفن العين، وشبهت الجفان في عظمتها وسعتها بالجوابي . وهي جمع : جابية وهي الحوض العظيم الواسع العميق الذي يجمع فيه الماء لسقي الأشجار والزروع أما القدور فهي جمع قدر وهي إناء يوضع فيه الطعام ليطبخ من لحم وزيت وأدهان وتوابل

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- وهل لك قلب ؟
- لا أعلم ... أريد أن أراه ... أن أحسه ... لكني علمت أن الجن لا قلب لهم ؟
- وما القلب ؟
- قطعة خلقها الله في صدر البشر
- وهل هي التي تحس وتميز وتدرك ؟
- لا أعلم ...
- فكيف أحببت " صفية " ؟
- نعم ؟!!!
- وكيف أشفقت على كوثر ... وغضبت من كمال ... وأخلصت للشيخ ... وسخطت على " ياسين " ... وحنوت على " فاطمة " ... وحميت " زكية " ... و تلهفت على "هدية " ؟ ...
- أنا آآآآ
- القلب يا عبدالمحسن ليس إلا قطعة عضلية من طين ... خلقها الله لتضخ الدم في عروق الإنسي فيحفظ له حياته ... لو كانت تلك القطعة مناط الحس والحب والكره ... لو كانت هي من تقرر وتختار وتتحكم في مسار الإنسي وحياته ، لصار مريض القلب عليله أقل إحساسا وحبا وحنانا من ذاك الشاب الذي يهدر قلبه قوة ... لكنك ترى وحشا مثل " ياسين " ، قلبه كمثل قلب الثور ، لكنه جامد الإحساس ، خامد المشاعر كحجرة جامدة ، وترى شيخا مثل أبو العلا ، وقد كان قلبه يتهتك تعبا حين يصعد درجتين من السلم لكنه يحمل حبا وحنانا لو انسكب في الكون لغطاه ... القلب يا ولدي ليس قطعة من لحم ... القلب لمحة من نور يلقيها الله في النفس الحية ... فمنا من يشعلها فتصبح مصباحا متوهجا يشع في الكون نورا ضياءا ... ومنا من يخمدها فتصبح بيتا مظلما مهجورا كوكر الخفافيش ...
- أتعني أن لي قلبا مثل الإنس ؟

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- أعني ... أنك ، والإنس وكل حي مكلف في هذا الكون يحمل سرا من الله أودعه الله في هذه النفس ، سر يولد به ويعيش معه ويتلقاه يوم الدين
- لماذا ؟
- أرأيت ؟ لماذا ... هذا هو السؤال ... لم تغنيك إجابة سؤالك "من أنا" ... مازلت تقف عند السؤال الأكبر ... لماذا ؟ ...
- أنا مخلوق ناري محبوس في جسد بشري ... أنا ذات مختفية في ذات
- ومن منا غير ذلك ... هل هؤلاء البشر في حقيقتهم هم تلك الوجوه والشعور والأجساد ... أم إنهم أرواح سكنت جسدا بشريا مؤقتا سرعان ما سيزول حين يأتي الميعاد؟ ... إنك لا تختلف كثيرا عن " صفية " أو الشيخ أبو العلا أو " شنودة " أو حتى " ياسين " ... الجميع ليسوا إلا سكانا مرتحلين داخل مساكن طينية مؤقتة ...
- لكنني لو خرجت من الجسد الإنسي سأظل أسيرا لطبيعتي الجنية ...
- تخرج من طور لطور ... كما الإنسي يخرج من الطفولة ليصير شابا فكهلا فعجوزا ... كما الإنسي حين غروره وعنفوانه وذاته المغلفة لروحه الحقيقية ... نحن جميعا أسرى ، ولن يحررنا إلا الموت ... أو ...
- أو ماذا ...
- هذه هي مهمتك ... هذا هو إجابة سؤالك ... لو عرفتها ستعرف إجابة ... "لماذا"
- سيدي ، تركتني أكثر حيرة مما أتيت

تلفت عني عائدا للمنحوتة الحجرية ، وتمتم في خفوت ...

"أتعجب ... هل أدركت حبة الرمل بعد حقيقتها وسبب وجودها ؟... هل بدأت تتساءل لماذا هي من كل حبات الرمل التي تقف شامخة برأس شيخ معمم ؟ ... (ثم تلفت الي بحدة) ... أم لعلها ... وهي في انتظار إجابة أسئلة غير هامة ... ستسقط أرضا وتصير من غبار الصحراء ؟ "

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

قالها وانصرف ... حاولت أن أتبعه لكن دون جدوى ... اختفي في الأفق الذي بدأ في التكشف في اللحظات الأولى للشفق الوردي ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

السيد

لا أعلم كم مضى من الوقت وأنا جالس في مكاني ... أشرقت الشمس وبدا وهجها حادا فوق الرمال البيضاء ، وأمامي وقفت منحوتة الشيخ المعمم وكأنها تشرف على رمال الصحراء تلقي درسا على الرمال الحائرة مثلي ... منذ بدأت الرحلة وأنا أسأل نفسي ، من أنا ؟ ... ولم يدر بخلدي للحظة ... ذلك السؤال ؟ ... لماذا ؟ ... لماذا أنا ؟ ... كل الأمور تتم بمقادير ... "إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ[1]" ... كل حادث محدد الوقت والمكان والزمن والتاريخ ... ومن يحضره ومن يغيب عنه ، فلماذا ؟ ... لقائي بالشيخ كان بقَدَر ... لقائي بصفية كان بقدر ... لقائي ب" ياسين " كان بقدر ... وهذه الرحلة ... قدر ... كل الحوادث جزء من مخطط عظيم يسير بدقة متناهية لهدف ما ... فلماذا؟ ... أعجزني التفكير ... فأعدت النظر للمنحوتة الحجرية فوجدت بعضا من الرمال يتطاير منها ويطير غبارا في الصحراء ... فأشفقت عليه ... تلك الحبات التي كانت جزءا من معجزة فنية ساحرة ... أصبحت غبارا ليس ذو قيمة ... فهل أصير مثلها ... نفسا هائمة في صحراء التيه ... أم أصير جزءا من هذا المخطط العظيم ؟ ...

وقفت بقدمي الإنستين ... وسرت ببطء طابعا خطواتي فوق الرمال ... كنت أحسها تشاهدني وتنظر لي وأنا أسير وسطها ... كنت أحس الشفقة في الحبات المتراصة ... كما أحسست بالشفقة نحوها ... هاهنا الاختيار ... وكل له إختياره ... الاختيار ... أن يجد الإجابة حول السؤال الأزلي . . لماذا ؟ ... أو يتغافل عنه فيحيا ويموت وينتهي وصير غبارا في عالم الإنس لا وظيفة ولا أهمية ولا قيمة ويهدر ذاك السر الهائل الذي أودعه فينا الخلاق ... وسيسترده منا ذات يوم ، ليسألنا ...

"يا إلهي ...

يا هادي الحائرين ...

---

[1] سورة القمر ٤٩

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

يا من قلت "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا[1]" ...

أنا العبد ...

أنا المخلوق ...

أبتغيك حباً ...

يا أحب من ينادى ...

ويا أعظم من يرى ويسمع ...

أين أنت ؟ ...

أخبرني بالإجابة ... دلني

هاأنا بين عالمك الأزلي أقف أمامك ...

أسير عاري القدمين ...

مهلهل النفس منزوع القوى ...

أبتغي معرفة الإجابة ...

لماذا ؟ ...

فدلني ... إهدني ...

لأصير معك ... معك وحدك ...

يا مبتغى العشق الأكبر ...

وسر الحب الذي لا ينتهي ..."

تطلعت للكون من حولي ... بدون أن أدرك وجدت نفسي قد ابتعدت كثيرا عن تلك المنحوتة المعممة ... وجدت الكون من حولي صامتا ... تضاءلت الرمال ... تضاءل الكون ... ارتفعت قدماي من على الأرض ... و رأيت جسدي البشري يتساقط مني كما أوراق الشجر تتساقط من أفرعها ... ورأيت ظلي على الأرض بكينونتي الأصلية ... فجاءني خاطر " صفية " و" فاطمة " والطفلتين ... فطرت بأسرع ما يمكنني ، وارتفعت عاليا فبدا الكون من تحتي متضاءلا

[1] سورة العنكبوت ٦٩

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

... تذكرت ما قاله " حسان " عن دار مجدوب ، فانطلقت في الصحراء الشاسعة نحو الغرب حيث كان متجها ... طرت تتعاقب من تحتي الدروب والتلال والجبال كلمح البصر ... مررت ب" زكية " و" فاطمة " و" هدية " فوجدتهما وحولهما قافلة من السيارات وبضع رجال من البدو ينصبون خياما ، بينما وقف " شنودة " بجوارهم كما الحارس الأمين ... فعلمت أن الملك قد أسدل عليهم رعايته وعطفه ، ولمحت من على البعد عيني " فاطمة " وقد بدا عليها الهدوء والاطمئنان ... قد ربط الله على قلبها الصغير كما ربط على "فؤاد أم موسى" ... فقط " هدية " هي التي نظرت الي وكأنها تراني ، تبادلنا نظرات وابتسامة طفولية خرجت منها ناعمة ، ثم أكملت طريقي ، سألت بعضا من بني قومي من قبيلة النحاتين التقيتهم في طريقي ، فعرفت مكان دار سيدي مجدوب ... وقبل استواء الشمس في مقلتيها ، كنت قد وصلت من على البعد لأري موكب السيارات واقفا والرجال يحملون الصناديق من السيارة في بيت كبير يقف وحيدا وسط الصحراء ... بينما لم أجد بينهم " حسان " و" صفية " ... بدا واضحا أنه داخل الدار ... تلك الدار التي كانت محروسة بقوة من العديد من بني "عفار" وقومه ... جلست من على البعد وتساءلت لماذا سمح لهم " " السيد "" بأن يخوضوا غمار الصحراء دون أن يوقفهم ... ملزالت الخطة لم تنتهي بعد فصولها ...

جلست غير بعيد متحينا لحظة ألمح فيها " صفية " أو " حسان " ... لم يطل انتظاري حتى رأيت " حسان " خارجا من الدار وحده ، فارتعدت لمجرد فكرة أن يكون قد تخلص منها ... لكنني ... ولم أعد أخشي من شعوري باللهفة عليها ... فهكذا تجلى السر في قلبي ... قلبي الذي لا أعلمه . . لكنه موجود ودلالته الحب ... من لم يعرف الحب ... لم يعرف الله .

ظل الرجال يعملون في تنزيل البضاعة من السيارات لداخل البيت بينما وقف " حسان " يشرف عليهم ... حتى انتهوا من تنزيل بضاعتهم ... و" حسان " واقف عليهم يملي عليهم أوامره وقد عاد الرجال لطبيعة الضباع بعدما أدركوا سطوة زعيمهم ... غير أنه في لحظة غير متوقعة ، فوجئ الجميع بإطلاق نار من على البعد ... التفت الجميع نحو مكان ضرب النار ... ، سوى " حسان " ، الذي سقط فجأة وعلى ردائه الأبيض بدا واضحا بقعة دم واسعة تحيط بصدره

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

الواسع ... من خلف التلال رأيت " ياسين " وقد رقد فوق تل مرتفع وبيده سلاح يصوبه نحو الرجال ... " ياسين " كذلك كان يعلم بموعد " حسان " في دار سيدي مجدوب ...

" ياسين " ذو القلب الميت أمات صاحبه ميت القلب ...

أموات يميتون أموات ...

وسبحان الحي الذي لا يموت ...

بعد معركة لم تدم طويلا ، وصل الرجال ل" ياسين " بسرعة فحاصروه حتى انقضوا عليه فوثقوه وجروه على الأرض مسحولا خلفهم وهم يركلونه بأقدامهم بوحشية وقسوة تلائم مع اعتاده "ياسين" من خسة و وضاعة ، ... في نفس الوقت الذي خرج فيه من الدار رجل بدوي يشرف على المكان ... هرع بدوره ل" حسان " الذي بدا أنه في أنفاسه الأخيرة ، وبشكل مفاجئ أشار بيده ... . لا في اتجاه " ياسين " الذي أمسك به الرجال ، بل في اتجاهي أنا ... فأدركت أن قرينه مازال يمعن في شره ، عندها رأيت كل الجن الحراس رفقاء عفار يصعدون الي ... وفي لمح البصر وقفوا أمامي متراصين كمجموعة من الصقور أحاطت بفريستها ...

وقفت أمامهم وقد ملأ قلبي ثبات لم أعرفه من قبل ... فالتفتت حولي لأري ذلك الملاك الحارس الذي يرافقني منذ خرجت في هذه الرحلة ... نظرت له مبتسما ، ورفعت له يدي أن ينصرف ... فأنا الآن في معية الملك ...

اقتربت من هؤلاء المتراصين حولي ... وهم يتأملون فيّ بدون أن يتحرك منهم أحد ...

وقفت أتأملهم ، كانت المرة الأولى لي التي أخوض فيها صراعا مع الجن ، كنت أسمع كثيرا من أبي حول حروب الجن وصراعاتهم ، وكانت قاسية ، ووحشية ، ويروى من قديم أن هذه الحروب هي التي ذكرتها الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام حين قالت لرب العالمين "إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ" [1] ... كانت الجن هي من أفسدت في الأرض وسفكت الدماء ... كانوا يقفون أمامي حوالي سبعة منهم ... ملامحهم

[1] البقرة ٣٠

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

تنطق بالشراسة والقسوة ، ينظرون لي شزرا ... هؤلاء هم أتباع إبليس وأولياءه ... اقتربوا مني ، مضوا يدورون حولي كالضباع حول فريستهم ... وأنا واقف مكاني لا أتحرك ... توقفوا حولي في دائرة ... نظرت لهم ... كان من بينهم "عفار" ذاك الذي لم يجلب لسيده سوى الهلكة والوبال ... نظرت له ...

أنا – هل رأيت ما أهلك سيدك ... لا ترجو إلا الهلكة مثله ...

عفار – قدر مكتوب علينا منذ الأزل

– كذب ورب العالمين ... ما كتب الله الهلكة إلا لمن تكبر وعصى ...

نطق واحدا من ورائي ...

جني ١ – وأنت ؟ ... ألست منا ؟

أنا – حاشاي أن أكون منكم

جني ٢ – فممن أنت ؟

أنا – لا يهمني الأسماء ولا الصفات ... أنا روح تنتمي لخالقها

جني ٣ – والنار التي تجري بأوصالك

أنا – من النار ما يحرق ، ومنها ما ينير ...

جني ٤ – خنت عهدنا ... وحلت عليك اللعنة

أنا – بل بقيت على عهد خنتوه وخانه جدكم لعنه الله

جني ٥ – أتظن نفسك من الإنس ؟

أنا – لا يعنيني من أنا

جني ٦ – دنست نفسك بحب إنسية

أنا – من لم يحس بالحب فليس بذو روح

عفار – ستظل غريبا بينهم

أنا – أنا والإنس غرباء عن هذا العالم

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

نظروا لي جميعا وقدا بدا اليأس مني وقد حفزهم للانقضاض علي ، فمضوا يدورون حولي كإعصار من حمم نارية ... وأنا في وسطهم تكاد نفسي تنخلع مني ... انقض علي أحدهم فاخترقني كما الشهاب ، فأحسست بألم رهيب يمزق أحشائي ، فترنحت ثم عدت واقفا ، فعاجلني آخر ... ثم آخر ... ثم آخر ... ومضوا جميعا يدورون حولي ويخترقونني تباعا وأنا أتلوى من شدة الألم حتى ظننت أنها النهاية ... وبدأت أنفاسي تتلاشى ... وأتهاوى كمثل بناء قديم يتصدع ... توقفوا وعادوا لدائرتهم يرقبونني ... وقد توهجت أعينهم بملئها الغضب والغيظ والقسوة ... أحسست ببرودة تنتابني ، فأيقنت أنه الموت ... وجال بخاطري عمري كله ... فرأيت سيدي أبو العلا ... واستشعرت شوقي له ... ورأيت صفية بعينيها الصافيتين السوداوتين ... ورأيت هدية ... تمد لي يدها بعذوبة طفولتها البريئة ، وحسدت البشر من داخلي ... فجاءني خاطر أنني لست منهم ... لكن ربما أرتقي فوقهم ... فما يسمو وما يهين . . ليس لون البشر ومس البشرة ... بل من الأوثق صلة بمالك الكون وخالقه ... فأخذني شوقي لرب العالمين ، فابتسمت ، وعلمت أن منتهى الشوق والحب ... حين أراه فوق عرشه الأزلي ... فأسلمت روحي مشتاقا لأجل المحبوبين وأعظمهم ... لكن ... بدلا من أن أسلم روحي ... وجدت في داخلي بقعة نور كأنها مصباح أضاء بداخلي ... ظلت هذه البقعة تتعاظم وتكبر حتى ملأتني ... ثم امتدت مني ... فسرى منها شعاع نور إنطلق كالسهم فأصاب عفار فاحترق لساعتها ... نظر له الجميع بذهول ... ثم سرى شعاع آخر ... فاحترق آخر ... وهكذا ... حتى بقي منهم واحدا ... اقترب مني ونظر لي بعمق ... وتمتم ... "من أنت ؟ " ... فأجبته ... "أنا من عرف لماذا خلق " ... واحترق .

هبطت التل في ثقة وهدوء وهم حولي صرعى لا يتحرك منهم أحد ... مررت بجوار السيارات ... في مرآة منعكسة من سيارة نظرت لنفسي ... فوجئت ... لم أكن بهيئتي التي أعرفها ... لم أر سوى هالة زرقاء تتحرك في نعومة ... لم أتعجب ... لم أسأل من أنا ...

مررت بجوار رجال حسان وهم ينظرون الي بدهشة ورعب ، وتعجبت أنهم يروننني ... دخلت الدار لأجد " صفية " جالسة في ركن البيت خائفة مذعورة بجوارها وقف حارس مسلط عليها

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

سلاحه المعدني الأسود ... كان كلاهما ينظر لي بدهشة وبذهول متعجبين من تلك الهالة الهلامية الزرقاء التي تتحرك في نعومة ... أمسكت بالسلاح في هدوء وقد تسمرت أنامله فوقها ... فما أن لمسته حتى ألقى الرجل بالسلاح أرضا ... وإذا بالرجل يتراجع في رعب نحو باب الدار التي امتلأت بالأعين تراقب تلك الهالة الزرقاء التي تفلتت من بينهم كنسمة هادئة ... اقتربت من " صفية " فهمست لها في هدوء ...

"تعالي معي ولا تخافي " ...

بعد تردد وقلق شديدين ... وبعد أن أعدت عليها عبارتي ثانية ...

"تعالي معي ولا تخافي ... وسلمي أمرك لرب العالمين " ...

وقفت " صفية " ذاهلة ... وسارت خلفي وهي تنظر للرجال في خوف ورعب ... حتى خرجنا من باب الدار وهي في ذهولها ... بينما وقف البدوي الكبير رافعا يده آمرا رجاله أن يبتعدوا ... بينهم " ياسين " في الأرض مكبلا بالحبال بين أياديهم ... تركته وانصرفت ... فلكل مصيره المكتوب ، وسرعان ما سينهش الرجال في بعضهم البعض ... وَجَدَت النسور جيفة تنهش فيها حتى تمتلئ البطون الدنسة ... ستظل هذه الأنفس حبات غبار وسط الصحراء

ما أن إبتعدنا عن الرجال حتى سقطت " صفية " خلفي منهكة ... صامتة تتمتم وتتعوذ بكل الآيات التي تعرفها ... اقتربت منها ... جلست بجوارها في صمت ... تمتمت في رعب ...

" صفية " – بسم الله الرحمن الرحيم ... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ...

أنا – لست شيطانا يا ست " صفية "

– أمال ... إنت إيه ؟

– روح خلقها الله لحمايتك

– حمايتي ؟ ... ليه ؟ ... من مين ؟

– من شر مخلوقاته

– وفين " فاطمة "

– في أمان

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- وفين عبد المحسن ...
- يا ست " صفية " ... أنا عبد المحسن ...

نظرت لي مشدوهة ... تراجعت وهي جالسة خطوات ... تجمدت الدموع في أحداقها ...

- عايزة أشوف " فاطمة " ...
- حاوديكي ليها ...
- إنت إيه ؟
- أنا إسمي عبد المحسن بن عبد القدوس السوداني ... من جن الأرض

صرخت صرخة مكتومة ... وتراجعت خطوات أخرى ، بينما أكملت كلامي ...

- كنت باخدم "سيدي أبو العلا" ... كنت وانا معاه بادور على طريقة أوصل بيها لرب العالمين ... أنا من الجن المؤمن ... بأؤمن بالله وبكتبه وبرسله ...
- عايزة أروح ل" فاطمة "
- شفتك ... حبيتك ... وماكنتش أعرف إن الجن ممكن يحب ... كنت فاكر إن الحب بس للي ليهم قلب ... لكني عرفت إن القلب بس للي بيعرفوا يحبوا ...
- حبيتني ؟ ... يعني ايه ؟
- يعني حبيتك ... يعني كنت باشوف الكون جميل لما بتكوني فيه ... يعني بأحس بالراحة وسط نظرة عينيكي الطيبين ... يعني بألاقي نفسي وأنا باتحرك حواليكي ... يعني
- بس ... بس كفاية ...
- كنت طول عمري باتابعك من على البعد ... وانتي بتخرجي من بيتك ورايحة مع أصحابك الفرح ... وانتي رايحة السوق ... وإنتي حتى بتلعبي مع فاطمة عند الساقية الكبيرة ، ... كنت معاكي وانتي بتبكي بين ايد الشيخ وتشتكيله من زوجك السيئ اللئيم ...

لملمت نفسها وتكرمشت في ذراعيها مثلما تفعل المرأة حين تحس أنا عارية ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- ماشفتكيش غير وانتي مستورة محفوظة بأمر الله وحفظه ... ولا طلعت مني نظرة ليكي غير وانتي وسط الناس ...
- يالهوي ... يالهوي بالي ... طب وعايز مني ايه ياسي ... يا عبمحـ ... طب أناديك بايه ...
- عبمحسن ... زي مانتي طول عمرك بتناديني ...
- طب وايه دلوقتي ...
- حاروحك بيتك معززة مكرمة ...
- وإنت ... ؟
- حافضل هنا ... لسة الرحلة ماخلصتش ...

بدأ شعاع الاطمئنان يتسرب بها شيئا فشيئا ، بدأت تنظر حولها ... وقد تحررت دموعها فبدأت تنسال على خدها في خفوت ... ثم أعادت النظر الي وهي تمسح دموعها ...

- طيب ممكن ترجعني ل" فاطمة " ؟ ...
- يالاه بينا على بركة الله ...

هممت على الرمال من تحتها ، فرفعتها بيدي بنعومة بدون أن ألمس جسدها المرتعش خوفا ، وفي لمح البصر كنا قد هبطنا خلف خيام البدو المنصوبة عند "زكية " والطفلتين ... قامت " فاطمة " وقد أفاقت من دهشتها ... وما أن لمحت "فاطمة " حتى صرخت بصوت عالي واندفعت لها كشلال ماء كان محبوسا خلف سد عالي ... احتضنتها بعنف حتى تقلصت الطفلة بين ذراعيها غير واعية بما يحدث حولها ... مضت " صفية " تقبل " فاطمة " من رأسها حتى قدميها ... لو كان هناك سر أعجب من الحب ، لكانت الأمومة ...

إستطاع البدو الطيبين أن يجهزوا للمرأتين وطفلتيهما سيارة يقودها " شنودة " تنقلهم لعين الزوادة حيث ترقد التوربيني سالمة ومن هناك سيقوم " شنودة " بإعادتهم لحيث يريدون .

طوال الرحلة لم أبتعد عنهم لحظة ولم أفارقهم لمحة عين ... حتى وصلت المرأتان لبيتهما سالمتين ... مرت الرحلة في سكون ، " صفية " لم تنطق بكلمة واحدة ، كانت كثيرة التأمل حولها ، كانت تبحث عني ... في لمحة منها رأيت طيف ابتسامة فبادلتها بمثلها ، لا أعلم هل رأتها أم لا

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

لكنها كانت تبدو مطمئنة آمنة ... " فاطمة " كانت كثيرة الحديث عما حدث ، " زكية " كانت هادئة كثيرة الذكر ، " شنودة " وضع لهم في كاسيت السيارة صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد وسورة مريم ، ما أعجب قلب هذا الشاب ... أما "هدية" ... فلم تتوقف عن ملاحقتي بعينيها ...

بعد الوصول ، عدت مسرعا لعين الزوادة ، اشتقت لماءها ، كان مطهرا لقلب شريد تائه ... أصبح الكون بالنسبة لي عالم هلامي لا أنتمي له بصلة ، صارت سعادتي في لحظات الليل الطويل الهادئ حين أخلو ... علمت أن رحلتي لن تنتهي ... إلا باللقاء ... الذي اشتقت له ... رحمك الله يا "سيدي أبو العلا" ... "اللقا شوقة" ...

عندما وصلت لعين الزوادة ، اتخذت مقعدي فوق التبة العالية عند منبع الماء ... جاءني الشيخ مكرم حاملا دلوه الفارغ من الماء ... جلس أمامي يملأ دلوه ... مضى يتمتم ...

مكرم – هل التقيت "السيد" ؟

أنا – نعم ...

مكرم – هل التقيت "السيد" ؟

أنا – نعم ...

مكرم – لم تعرف بعد أليس كذلك ؟

أنا – ومن يعرف يا شيخ مكرم

– أنت ... تعرف ذاتك

– فمن أنا ؟

قام الشيخ مكرم من مكانه ، جلس أمامي ... نظر لي كلا واحدا فلم يعد لي هيئتي الإنسية المعتادة ...

– أنت ... أنت ... أنت " السيد " ...

تعجبت من قوله ...

– أنا ؟؟؟

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

- " السيد " هو من يظل العمر يبحث عن أصله ... فكثرة البحث تربطكبما تبحث عنه ... تشعلك شوقا اليه ... تراه بعينك في الساعة واللحظة ... حين يشتد الظمأ ... يصير الماء هو أصل الترحال وسببه ... حين يشتعل العشق ، يصير المعشوق ملء القلب والفكر ... حينها ... تضعف كل الروابط التي تربطنا بالدنيا ... لتصير سيدا ... يسود نفسه وذاته ليقودها لنهاية الترحال ...
- أنا ؟ ...
- هذه العين موصولة بخالقها ... لا تروي إلا من أخلي ذاته من كل القيود ... فاشرب وأروي الظمأ ...

اقتربت رويدا رويدا من دلو الماء ... امتزجت معه ... أحسست بدغدغة لطيفة تسري في ... لم يرتوي الظمأ بعد ... تسللت من الدلو إلى العين المنبثقة من الأرض ... فانسبت فيها ... عندها ارتويت ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

الوصول

مضى من العمر مالا أعلمه ... مشتاقا يحرقني شوق اللقاء ... مر بي العديد من مخلوقات الله ... إنس وجن ... مر بي كل الأزمان ... ليل ونهار ... صيف وشتاء ... كنت أرقد وحدي في الصحراء البيضاء بجوار منحوتة الشيخ المعمم أتأمل في السماء ... أأتنس بخالقي وأنا أراه ينظر لي بعين العطف والود والمحبة ... أناجيه وأعلم أنه يسمعني ... أحدثه ... أحكي له عن حياتي ... عن أبي وأبو العلا وصفية وهدية ... وأتساءل ... متى يحين اللقاء؟ ...

منت أرتحل بين العوالم فأرى من ملكوته ما يزدني يقينا بجلاله وعظمته ، كنت أتجول بين الملائكة المسبحين فأسبح معهم ... وتعلمت النحت ... فصرت أنحت من الرمال بعضا مما أراه من جميل ملكوت السماء وأتمتم "سبحانك" ... وكنت أحدث كل حبة رمل ، لأحكيها عن مصيرنا ومصير كافة مخلوقاته ... ليعلم الجميع إجابة السؤال الأزلي ... لماذا ؟ . . لماذا خلقنا؟ ... لنحبه ... فقط ، لهذا فقط خلق الله القلب ... فكما خلق العين لكي نرى ... والأذن لكي نسمع ... خلق القلب لكي نحب ... نحبه هو ... بكل ما نستطيع من قدرة على الحب ... حتى إذا جاءت لحظة الوصول ، كان لقاء المحبين بعد طول اشتياق .

كنت بين الحين والآخر أرتحل لأطمئن على "صفية" ، التي تزوجت برجل صالح أنجبت منه ثلاث أبناء كان أكبرهم عبد المحسن ... ، رأيتها وقد هرمت وصارت عجوزا لم ينقص من جمالها شيئ ، وكنت معها حين وصلت ، ورأيت هالتها المضيئة وهي تنسل بين الأيادي الحريرية الناعمة ... و رأتني يومها ... ونظرت اليّ فرحة سعيدة تشير لي من على البعد ... رأيت " فاطمة " وقد صارت إمرأة مكتملة وكنت موجودا وقت زواجها ، ووقت ولادتها ... وكنت معها كذلك حين وصلت ... رأيت " شنودة " وقد تزوج كوثر وكان يوم زواجه مبهجا وديعا وكان في نفس الكنيسة التي التقيت بها القس الطيب ، وأذكر أنه نظر لي مذكرا إياي بوعده لي باللقاء ... رأيت " زكية "وقد لحقت بأبيها سريعاً وإحتفالاً مبهراً أحاط بوصولها حتى أثار في نفسي الغيرة ... ورأيت "هدية" .....

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

"هدية" أكملت مسيرة "سيدي أبو العلا" ... كانت مباركة طوال عمرها ، تَرَبَت عند خالها وكان شيخا صالحا تربية أبيها الشيخ جابر ، ذرية بعضها من بعض ، ... تعلمت القرآن وحفظته وصارت تعلم أهل قريتها ... لم تتزوج ... تعلقت بحب راقٍ سامٍ لم يتزعزع ... وابتسمت في داخلي ... فقد أدركت أنه عندما وصاني جدها "الشيخ جابر" ، و"سيدي أبو العلا" برفقتها لم يكن لحمايتها ، بل كانت رفقتها لحمايتي أنا ، لتأخذ بيدي لمحطة الوصول ... لذلك قال لي الشيخ جابر ، "إحنا سبنالك هدية مني ومن الشيخ أبو العلا" ... كانت "هدية " هي هديتي من الرجلين الصالحين ... كانت نبراسي في ظلام الترحال ... وكان وصولها أعظم من أن يوصف ... !

وفي ليلة الوصول ... ظللت راقدا كثيرا ... حتى رأيت الموكب يقترب من على البعد ... "يا فرج الله ... أخيرا" ...

كان الموكب مبشرا ... حنونا ... فرحا ... يتقدمهم ملك الموت في جلاله ومهابته والملائكة تحوط به ... لمحت من بينهم ملاكي الحارس الذي لم أفقده لحظة ... لمحت من بينهم هالات أعرفها ... "سيدي أبو العلا" ... " صفية " ... " فاطمة " ... " هدية " ... "أبي" ... " عبد القادر طوليد " ... "الشيخ مكرم" ... كان الجمع مألوفا حنونا ... اقترب الموكب ... كنت أستحثه للإسراع ... فقد بلغ الشوق منتهاه ...

"يا إلهي ...

هل جاء الموعد ... ؟

هل تمن علي بالمثول بين يديك ... ؟

هل تنعم علي بلمحة اللقاء ... ؟

يا الهي ... هل أنا مستعد بعد؟ ...

هل تزينت بما يكفي للقدوم عليك ؟ ...

هل تطهرت بما يكفي ؟ ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

هل بحثت عنك بما يرضيك ؟ ...

وهل رضيت .....؟ "

وقف الملك العظيم من فوق ... ابتسم لي ... جلس صامتا ... اقترب مني "سيدي أبو العلا" ...

سيدي أبو العلا – مستعد يا بن نصيبين ؟

أنا – هل جاء الإذن بالمثول ؟

سيدي أبو العلا – جئنا لنزفك لخير يوم طلع عليك منذ لفظتك النار ...

فوجئت بما لم أتوقعه طوال حياتي ... شعرت بسخونة تملأ كياني ... ارتعدت

- سيدي ... ما هذه السخونة ... هل هي النار ؟
- هذه ما نسميه الدموع يابن نصيبين ... لم تتفلت دموعك من حب الإنس أو حرق الدنيا ، فتلفتت عند اللقاء ... الآن أنت مستعد ...
- ياسيدي ...
- أطلب يابن نصيبين
- سيدي ... أريد أن أقص قصتي ... ليعلم الجميع أول الترحال ومنتهاه ... ليعلم الجميع كيف يجيبون على السوال ... لماذا ؟
- لساك شايل من البشر ضيق الفهم يابن نصيبين ... سيعلمون ... هذا هو قدر الله ... سيعلم الجميع ... لكن فقط المرتحلون هم الواصلين ...
- أشفق عليهم سيدي من طول الترحال ...
- يابن نصيبين ... لا تشفق عليهم ... ربك أرحم بهم
- يا سيدي ... لا أشفق عليهم من العذاب ... أشفق عليهم ألا يذوقوا عذوبة حبه
- ... (تبسم) ... لهذا كنت أنت "السيد" ...
- إذن ... فخذوني لأجلّ وأعظم من يُعشق ...
- على بركة الله ...

يا من تقرأ ...

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

يا من تعني ...

سلام عليك من رب العالمين ...

وحب و ود ولطف بلا نهاية ...

فشد العزم واستعد للترحال ...

إنه في انتظارك ...

فلا تطيل البعد ...

كن أنت "السيد" القادم ...

وعندها ...

ستعرف منتهى العشق . . .

buhaiba@gmail.com 15 Apr 2016

أحمد أبو هيبة

buhaiba@gmail. com

https: //www. facebook. com/ahmed. abu. haiba

نرجو وضع رأيك ونقدك للرواية على موقع Goodreads كالتالي :

https://www.goodreads.com/book/show/25416459